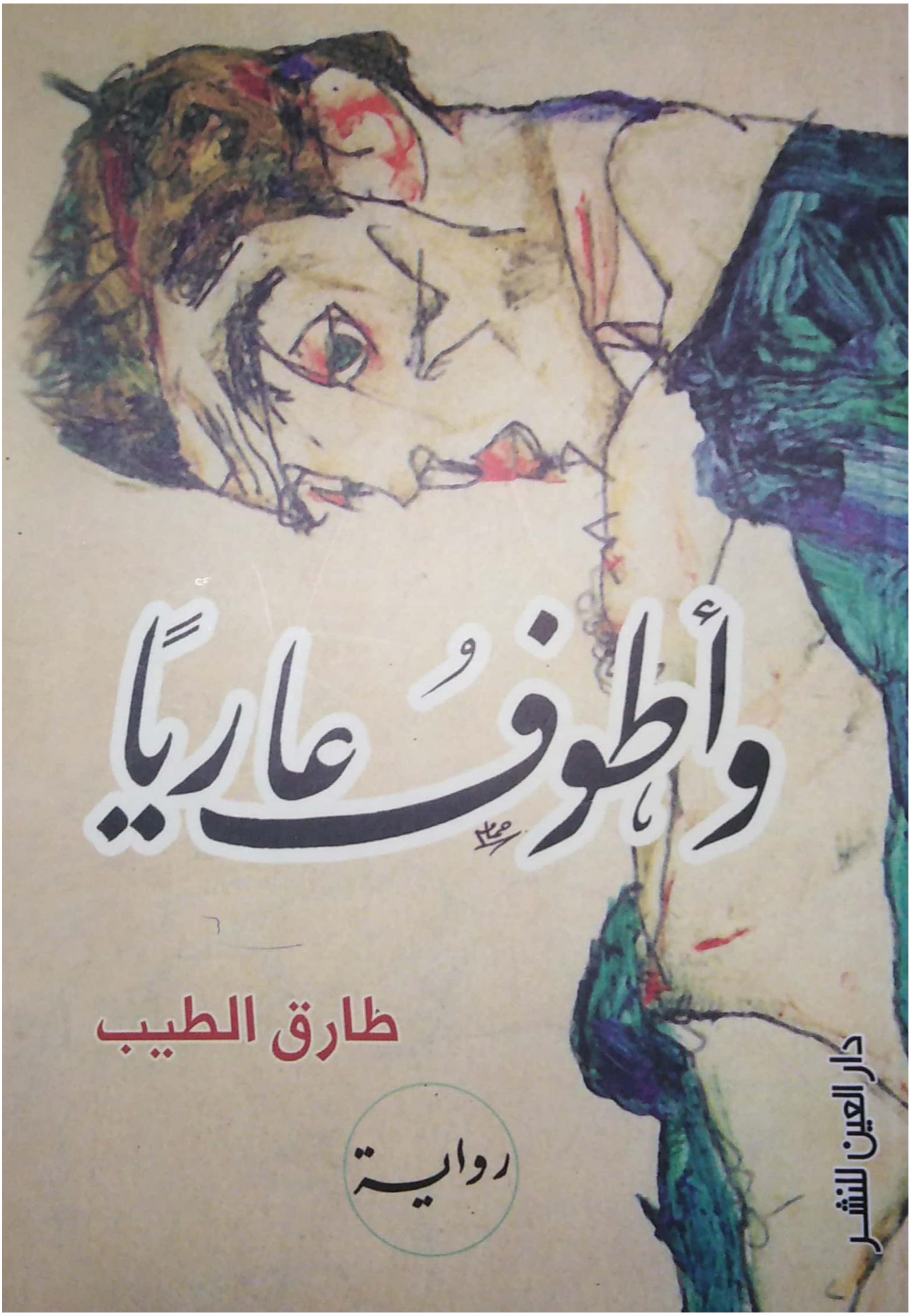

وأطوفُ عاريًا

طارق الطيب

رواية

دار العين للنشر

وأطـوفُ عـاريًا

Nude, I go wandering

روايـــة

طارق الطيب

دار العين للنشر

وأطـوفُ عــاريًا
Nude, I go wandering

روايــة

طارق الطيب
Tarek Eltayeb

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحـمد شـــوقــي
أ. خـــــالد فهمـي
أ.د. فتـــح اللـه الشـيخ
أ.د. فيـصل يـــونـــس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطـمة البــودي

الغلاف: هبة حلمي
عن لوحة الفنان النمساوي: إيجون شيلي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٧/٢٨٠٨٤
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 487 - 5

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الطيب، طارق

وأطـوفُ عـاريًا: رواية/ طارق الطيب.

الإسكندرية: دار العين للنشـر، ٢٠١٨

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٤٨٧ ٥

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٨٠٨٤ /٢٠١٧

الإهداء

إلى ليـــزي

Für Lisi

لَن أتَقاسَمَ مَعكِ الأحلامَ
سَأُهديكِ النِّصفَ الذي لي
ليُصبِحَ حُلْمُكِ مُكتَمِلا

مبــتـدأ

الصندوق الأسْوَد

كلٌّ مـنّا له صندوقُه الأسْــوَد الذي يسجِّل فيه تاريخَه السِّرّي؛ حماقاتِــه وخيباتِه وانـهياراتِــه ولذّاتِه الماجنةَ ونزعاتِه الشــاذّةَ المخفيّةَ وتناقضاته وخطاياه.

كلٌّ مـنّا يرغب من حـين لآخـرَ في اســتعادة جزء مسجَّل داخل صندوقه الأســود، جزء يعَزِّز اشتهاءاته النفســيَّةَ السرِّية، أو قد يرغب في محو ما يســتحي منه، فيســتحيل عليه؛ إذ إن خفايا الصنــدوق مثل عِقْد من خَرَز لا يمكن فــضُّ حبَّة منه دون انتثار بقية الحبّات، أو مثل عمود شــاهق لأســرار من مُكعّبات صغيرة مرصوصة بعضها فوق بعض بلا لاصِق أو ماسِك، لا نُفلح معها في إقصاء مكعَّب أو زحزحته دون انـهيار العمود.

ربمـــا المقدور عليه هــو إزاحة جزء عن الذاكـــرة إلى حين، فعِصْمة الإظهار والإخفاء جزءٌ منها بيد صاحب الذكريات، وجزءٌ بيدِ قدريَّةٍ لا سلطان له عليها.

سعيد الحظ -أو ربما تعيس الحظ - هو من يتمكَّن من مسح كلّ ذكرياته الســرّيّة من الصندوق إلى الأبد، لكنْ لا يستمْكِن أحد من هذا الأمر إلّا بالموت!

لكلٍّ صندوقُه الأسود المَخفيّ في قعر سحيق، صاحب الصندوق هو فقط من يســتطيع اســتحضاره، أمّا ما حــكاه للآخرين أو ما اعترف به أو ما عرفوه صدفةً عن ســهو منه أو عن عمد؛ فلن يصبــح بعد ذلك من الصندوق الأســود، فما يخرج من الصندوق الأسود يصير إلى صناديقَ أخرى لها كلّ الألوان إلّا الأسود!

1

"قِفْ من فضلك!"

صدر أمره مفاجئًا ومربكًا؛ فكيف سأقف وأنا واقف أصلًا؟ أم لكلمة (قِفْ) معنًى آخر في الألمانية، لا أعرفه؟

"استَدِرْ، رجاءً! أرجوك!"

نَطَقَتْ السيِّدة كلمة "أرجوك" بتطويل ودَلَع، فلِنْتُ لها قليلًا ونفَّذتُ.

هل هي صدفة أن أسكن في ڤيينّا في شارع "ميلدَه مانّ شتْراسّه" في الحيّ العشرين؟ وهل هي صدفة أيضًا أن ترفض أكاديمية الفنون في ڤيينّا أعمالي، وينظر لها بروفسور "ڤايْسمانّ" بهذه

النظرة المستخِفّة المبطَّنة بتهكُّم وازدراء، فيهيّج في نفسي انفعالات السُّخط، لأشعر في لحظة أنني على شفا خطوة من تدمير هذا العالم التافه؟

ففي اللحظة الحسّاسة التي يكاد فيها المرء أن يُخلَق في السماوات مُقرَّبًا من الآلِهة، يمكن لجرثومة بشرية منتفخة أن تلوّث الرُّوح لتصبح البغضاء خَصلة دخيلة في طبعي، ويتمنّى المرء أن يصير قنبلة ذرّيّة تنفجر في كبد العالم، وليمُتْ مع من يريد أن يُمِيتَ الحسَّ فيه.

هذه اللوحات من صنيع دمي أيها البُرْص الحقير، حملتُها معي آلاف الأميال حتى لا تفنَى، لأعيش معها وبها. هذه اللوحات التسع هي الجزء الأعظم من عمري الفائت، اخترتُها لعجزي عن جعل كلّ لوحاتي لاجئة، فتركتُ بقية عائلتها هناك، على أمل أن ألُمَّ شَمْلها ولو بعد حين.

حملتُها على صدري ألف مرة مثل قلب كبير ثانٍ، يضخُّ دم مسيرتي كلما وَهنتُ. أو مثل رئة تسعفني بالحياة في زمن التمويت. رافقَتْني حجًّا على القدمَيْن، وحشْرًا في سيارات وتاكسيات وميكروباصات ولأميال بعيدة داخل قطارات وطائرات. أهنتُ نفسي مرات، ولم أهِنْها؛ هي سُرّة سيرتي ومساري، وشعلتي الوحيدة الباقية، يا أهطل البَراري يا رذيل!

احمل هذه اللوحات لا لأتسوَّل بها أو اسألُك حسنة، بل لأطـلب تقييمًا منكَ أيها الوســخ المنتفخ، يا من تغَـازل زميلتـكَ الحســناء الدلُوعة طـوال وقوفي ولا تـهـتم بالنظر بعيْن صادقة للوحاتي. تَبًّتْ عيْناكَ وخشمك ورُوحك أيها الدنيء الخسيس!

كنتُ أشــتُم فعلًا بـهذه الصفات الغريبة، كأنـــي اخترتـها عَمْدًا لتناســب هذا الجو الغريب. وبالتأكيد تفوَّهتُ بسباب أقذر، دون أن أدري من أين هبطَتْ هذه العجائب على لساني.

لكن قد تكون نصف نعمة الآن أن أسُــبَّهُ في سِـــرِّي بأوســخ الكلمات، وألعـن مـــا تبقَّى له من عمر، وكلُّ النعمة لو كنتُ جريئًا وتقيَّــاتُ فــورًا ما في صدري مـــن غِلٍّ على أمّه وأمّ رأســه وأمّ أكاديمـيّته؛ فأيهما أرْيَح لي الآن: دبلوماســية مزيَّفة وصبر حكيم ولســان ملجوم، أم صراحة وجرأة ورَدُّ فعل مباشر؟ أيهما يَـجبُرُ خاطــري: أن أتحمَّل في خنوع كلــب مدجَّن حتى أصِل لغرضي، أم أن أردَّ اعتباري الـمُـنـتهَك، ثم أخرج إلى الشــارع كلبًا شــريدًا مُتبجحًا بنُباحه الـحـرّ في عَبَط العراء العريض؟

ســتربكه بضعة أمور لم يتفكَّر فيها: مِشْــيَته ونظرته وصدى صوته وظلّــه على الأرض. لم يدرك بعدُ أنه يقف على أرض أخرى تشــدُّه الجاذبيــة إليها أكثرَ منِ الآخرين أو قد تُرخيه طافيًا عديمَ الوزن، ما يراه ســيُرهق عقله، فأذنه لا تفهمِ ما يقال، ولن يكون صوته القديم مثلما كان في مكانه القدِيم، بل ستغلّفه طبقة بحجمِ المسافة والترحال المُضني. سيشــاهد ظلّه على الأرض مغايرًا لظل البشــر والكائنات

والأشياء، مختلفًا عن ظلِّ الشجرة والمبنى،وحتى عن ظلِّ الدعسوقة. ظِلّ أسود مرات وأبيض مرات أخرى، ظِـل يَـثْـبُـتُ مكانه بينما هو سائر، أو يغادر جسمه ويركض في طريق مخالف بينما هو واقف، أو ظِلّ يُعابثه ويلهو كطفل شقي بينما هو جالس في منتهى الرَّزانة. ظل يقول لـــه: "أنا حرٌّ أكثر منك، بل أكثر قدرة منك على الانفصال عنك متى شئتُ، والاتحاد بك وقتما نويتُ!"

3 أكتوبر 2013

عند الفجر وفي شـــبه اســـتيقاظ، متمدِّدًا على ظهري كفرعون مســـجًّى. أفتح عينيَّ على حُلم قديم، عيْني اليسرى ترِفُّ بعصبية. انظر للسقف، وأضواء السيارات من أسفل الشارع تتهادى كشرائط نور متحرِّكة، تلمع على الســـقف كخطوط عبور مشاة تتوالى من جهة رأسي نحو قدمَيَّ، تمسح السقف برتابة وتكرار حسب سرعة السيارة. تســـحبني هذه الرتابة إلى تنويم فاتر يدفعني للحُلم القديم، الـــذي أجْزِم أنني رأيته مرات بتنويعات لم تمْحُ أصله، لكن لم يكن فيها هذا الرنيـــن المجلجِل. يتكرَّر الرنين بِدَويٍّ مُفزع يقاطع الحُلم ويقطعه. أقوم هَلِعًا.

"... رام-سيس سولي-مان...؟"

"نعـــم هذا أخي!" رددتُ على صوت مُـحَـدِّثي في التليفون الذي كان يتكلم الإنجليزية بلكنة ممطوطة.

"نعتذر، لكنه ... ..."

وانقطــع الاتصـــال التليفوني ولم أفهم شــيئًا. التليفون رنَّ عند الخامسة فجرًا، لم أسمع رنّاته الزاعقة بهذا الإقلاق طـوال عمري، كان مزعجًا كأنه ســيعلن عن خبر أكثر إزعاجًا، وها قد أعلن عن لا شيء، لكنه يوحي بحدث غامض.

حاولــتُ أن أتأكَّد من رقم المُتّصل ذي الصوت الغريب واللكنة الأغرب. كان الرقم الظاهر على شاشـــة التليفون طويلًا بكود غير محلّـــي. حاولتُ أن أتعرَّف على بلـــد أو مدينة هذا الكود الذي يبدأ بالأرقـــام 0039، دخلتُ عبر الباحـــث الإلكتروني "جوجل"، ومع ارتباكي وتعَجُّلي ظهر لي أن الكود يخصُّ موقع رموش ذات شعر طبيعي وبيجامـــات حريمي. انتبهتُ إلى أننـــي أخطأتُ، وضعتُ صفـــرًا فقط بدلًا من صفرين. قبل أن أعـاود المحاولة رنَّ تليفوني مجـــدَّدًا، وتكرَّر الـــكلام بذات اللكنة الإنجليزيـــة الممطوطة؛ لكن بصوت أُنثوي هذه المرة، لم أتذكَّر منه ســـوى كلمة: "رام-ســـيس سولي-مان"، ثم رَدِّي المتكرِّر: "نعم، هذا أخي!".

كنتُ واقفًا منكوشًا مفزوعًا ببيجامتي القصيرة أدور في غرفتي حول الصينية المعدنية الكبيرة المحفورة على طراز شرقي، والتي تتوسّط الغرفة؛ ألفُّ حولها كعقرب ساعة يدور عكسيًّا نحو اليسار، وأهذي بعد غارة الفجر هذه:

"رمسيس.. يا رمسيس.. يا ترَى عَمَلْتْ إيهْ يا رامو؟"

جلستُ على الكنبة القريبة منّي مُنهَكًا من القلق، محاولًا تجميعَ أفكاري، هل أنا في حُلم أم يقظة! أحـاول استرجاع ملامح الحُلم أو فَهمَ المكالمـة. أحمل في يدي التليفون ســـاهمًا في شاشته ثم في المكتبة التي أمامي، وعيناي لا تريان سوى فراغ داخلي.

كنـتُ في ملابـس الإحـرام حليقًـا مرتديًـا إزارًا ونعلًا لونهـا أبيض، وأرى كفَّيَّ مخضَّبتَـيْن بحنّاء في لون ريش العُقاب. طويلًا جدا كنتُ، لم أستغرب حالي، ولم أرَ استغرابًا على وجوه الحجيج. كنتُ الوحيد الذي يطـوف عكس مسار الجميع. كنتُ أسير في الحرم عكسَ اتجاه الساعة، والحجيـجُ يسيرون مع اتجاهها، مُوقنًا أننـي على صواب، ومع ذلك لم يَعُقْنـي أحد في سيري، كان طريقي مُشْرَعًا خاليًا لمسافة ممتدة بين أفواج النـاس، سائرًا على أرضية من رخام تســـري منها برودة مريحة لباطن قدمَيَّ الحافيتَيْن.

في هذا الوقت المبكِّر، عند الخامســـة، لم تكن نشـــرات الأخبار المحليـــة في ڤيينّا قد بدأتْ فـــي التليفزيون، لكني فتحته. كان هناك برنامج مُســـتَعاد من الأمس عن تحليل لخَسارة ثقيلة لفريق "رابيد" النّمساوي في كرة القدم، وشريط متحرك للأخبار بالألمانية يجري في أسفل الشاشة، التقطتُ منه:

[غرق... لامپيدو ... 300...]

كانت حركة الشريط أسرع من قراءتي البطيئة، ولم أعرف ماذا تعني "لامپيدو" بالألمانية. تَلَتْهُ أخبار مختلفة وعيْناي معلَّقتان على عودة خبر الغرق. قلَّبتُ القنوات متشائمًا، حتى وصلتُ لقناة عربية تزعق بصفاقة:

"أنتَ مَطِيَّةٌ ذليلةٌ لرئيسكَ الديكتاتور الأحمق يا كلب الحاكم!"

"اخـــرَسْ يا عميل الغرب والصهيونية، يمَوِّلونك لتكون حذاءً ملحدًا...."

كانـــت القناة تعيد برنامجًا جداليًّا صاخبًا بين خَصميْن يسُـــبّان بعضهما في الوقت نفسه، دون أن ينصِتَ أحدهما للآخر ودون أن يستوعب المشاهد معنًى، بينما المُحَـاوِر يقف منحنيًا يحاول بحركة يديه تهدئة الحوار المســـعور دون جدوى، فيبدو في انحنائه مثل طائر يحـاول الطيران بجنـاحيْـن عليليْن. عُدتُ للقناة النّمساوية سريعًا.

وعاد شريط الخبر فقرأتُ بلهفة:

[غرق اليوم... 300 شخص... إيطاليا...]

لم أفهم شــيئًا بسبب القلق والتوجُّس والضيق وبطء إعادة الخبر على الشاشة.

رســائل كثيرة تدفقتْ منه، من الجنوب إلى الشــمال. ألَحّ في رسائله الأخيرة على رغبته في الحضور إلى ڤيينّا بأيّ طريقة؛ إلى وضع قدمَيْه على أرض الشمال. رمسيس كان في عامه الثاني بكلية الألسُــن في جامعة عيْن شــمس، يدرس اللغة الإيطالية إلى جانب الإنجليزية، دَرَسَ بسلاســة، وبرع في اللغتين، لكن ڤيروس السفر والترحال أصابه مبكرًا. وَاسَــيتُه بالصبــر والانتظار حتى ينتهي ويحصل على الليســانس، لكن الرســائل كانت تتدفّق نحوي مُبديةً الامتعاضَ من الدراســة المُمِلّة وخيبة المآل بعد التخرُّج، ورغبته في أن يحيا مع اللغة وباللغة بين أهلها وثقافتها؛ لا أن يكون مجرد آلة تدخل منها لغة لتخرج لغة أخرى.

ردودي كانت مُعطِّلة؛ مؤجِّلة لأيّ سفر؛ رافضة لبداية قد تكون مُهلِكــة. لا أدري هل كنتُ على حقّ بحرصــي عليه وبصرامتي القديمة الـمُزمـنة التي خافتْ عليه لســنوات؟ هل كان الأصوَب أن أســمح له بالمجيء والتجريب؟ هل كان من المفروض أن أُمارس سُــلطة منْع أبويّة خفية؟ هل خشيتُ المسؤولية؟ تَـهلُّ عشراتٌ من (هَلْ) كلما قرأتُ رســائله الحميمة المكتوبــة بخط يده التي تنهمِر بالْـتماســات وتوسُّلات واســتغاثات من أجل الانتقال إلى جنّات النعيم في الشـمال!

انام مكتئبًا مغمومًا بالمسافة التي بيننا.

أتســاءل: أين راح نَـومي القديم الصافــي! أين راح صحوي القديم البريء! في عمر السادسة تقريبًا، أتذكّر استيقاظَ أبي مبكرًا وجلوســـه في الجانب الشرقي من الشرفة مواجهًا لشمس الصباح الشــتوية. فـــي غيابها كان يتدثّــر ببطانية صوفيـــة، وبكلّ صبر يحاول ضبــط الموجة القصيرة للإنصات للراديو الترانزيســتور الصغير الذي يحمل على ظَهْره حَجَرَيْ بطارية ضخمَيْن مُـثَـبَّـتَيْن بـ"أسْــتِك" عريض. كنتُ أُحب أن أســتيقظ معه فـــي هذا التوقيت وأخرج للشــرفة، فيُعِدّ لي معه شـــايًا بالحليب أغمس فيه البُقسُماط اللذيذ حتى "يبوش".

ســمِعْته يقول: "لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلّا باللـه!" فقد استمَع توًّا لخبر وفاة شــخص يُدْعَى "لويس دي فنيـــس"، لم أعرف في ذاك الوقت مَــنْ يكون. قال لـــي أبي إنه ممثل رائع لن يجـود الفن بمثله أبدًا. اســتغربتُ الاسم والموقف وأبي. بعد ســنوات طويلة سأحبُّ هذا الممثل؛ محبّةً لذكرَى أبي لا للممثل. تَـكـرَّر الأمر في صيف العام ذاته وهـو ينصت للراديو نفسه، وتتكرر جملة "لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلّا باللـه!" بصوت ولَـحـن أعرفُ منهما أن شخصًا قريبًا لقلب أبي قد غادر الدنيا. ســمعتُ في ذاك اليوم بوفاة "أمل دنقل"؛ الذي لم أكُن

أعرفه أيضًا، ظننتُ أنـها سيدة؛ فهي المرة الأولى التي كنتُ أسمع فيها باسم "أمل" لرجل. بعدها بفترة تكرَّرَتْ جملة "لا حَوْلَ ولا..". رأيته في عباءة الحزن نفســها وهو يقول: "الرانعون يغيبون هذا العــامَ كعِقْدٍ منثور!" نطقها هكذا بالفصحى. فهمت (عِقْد) على أنها (عُقْد) ولم أعرف معنى (مَنْثور) هذه، ظننتُها (منصور)، وخَمَّنْتُ أنها ربما تعني عُقْدًا مباركًا أو متينًا أو ما شــابه. كانت الوفاة هذه المــرة للفنان "محمود المليجي"، لم أفهم حزن أبي على هذا الممثل الشــرير؛ فعلى العكس منه فَرِحتُ وأخفيتُ سعادتي بخبر وفاة هذا المجرم، مُستغرِبًا من أبي ومن زعله على وفاة مجرم شرير.

عبر الموجة القصيرة لأخبار السودان، عرفتُ تقريبًا في أواخر العام في الفترة الصباحية نفسها -وأنا جالس مع أبي المتدثّر بمُلاءة خفيفة- أن الرئيس السوداني "إبراهيم عبُّود" قد توفي. انزعاج أبي جعلني أشـعر بأنَّ كارثة ما ستَحِلُّ بالبلاد قريبًا.

أتذكَّر الآن إحساس المتابعة المتوتّر الذي انتاب أبي فشَمَلَني هذا القلق بأنَّ هناك كارثة قادمة جاءت أخبارها عبر الراديو.

ها أنا هنـــا الآن في هذه المدينة البعيـــدة أنتظر مذعورًا بالقلق القديم نفســه والإحساس المشوَّش نفسه بنـزول كارثة. أُعيدُ قراءة شريط الأخبار:

[غرق ... أكثر من 300 شخص ... في زورق ... بالمهاجرين الأفارقة غير الشرعيين ... إيطاليا]

لم أقــرأ كلّ الجملة الطويلة لكن الكلمات التـــي التقطتُها كانت كافية لتوصيل المعنى. جسمي كلّه يسخن، يذكّرني بإحساس غَرْزِ حقنة البنسلين التي قرَّرها لي الطبيب بسبب إصابتي بالتهاب حادّ في اللوزتَيْن وأنا في الســـابعة، أتذكّر أنّ الالتهاب تَسبَّبَ في بُحَّـة صوتي حتى فقدتُه لأيـام. أثارتْ حالتي انـزعاجَ أمّي وإشـفاقَ أبي ومُزاح إخوتي. مع الحقنة الأولى ظننتُ أنني تبوَّلتُ على نفســـي؛ لإحساسي بسائل حارّ يجتاح جسمي وانعدام سيطرتي عليه ثم عرق مفاجئ واتّقاد مخيف، نَـزَّ جســـمي كلّه فجأةً وصَـهَدَ، فشـــعرتُ أن مسامّات بشــرتي كلّها تفتَّحتْ وتبخَّرتْ منـها كلّ ســوائلي ممزوجة برائحة البنسلين النفّاذة. الآن يعود لي الإحساس نفسه، كأنني أتبوَّل على نفســـي أو أن كلّ حُقَن البنســـيلين قد انغرزَتْ في رُوحي. في ذهني الآن شـــريط يُرَكِّب الكلام المتحرِّك على الاتصال التليفوني على رســـائل كثيرة وصلتني من رمسيس أو "حاجّ رمسيس"، كما كان يحلو لنا أن نسمِّيَه. يحدث هذا وأنا لا أكتفي بمعلومات الشريط. أتنقّــل بعصبية لقنوات أخرى بحثًا عن تفاصيلَ أو صور حية، أو حتى ميِّتة:

[غرق اليوم أكثر من 300 شخص في زورق مكتظ بالمهاجرين الأفارقة غير الشرعيين قبالة جزيرة لامبيدوزا بجنوب إيطاليا]

اكتمل الخبر والفزع!

"يَعني كُنْت معاهُم ولا عَرَّفْتِنِيشْ ولا قُلْت لي يا رمســيس! ليه كِدَا يا حاجّ رمسيس؟"

في الحُلـم الذي انقطع كنتُ أرى أمّـي حُبْلَى في رمسيس، تطوف قريبًا مـن الكعبـة في عباءة سـوداء. عيْنـايَ عليها وأنا في الطـرف الطائف بعيـدًا أدور في دورات واسعة، وكلّما صارت هناك فجوةُ نظر بَرَقَ لي ظهورها عن بُعْد. شعرتُ في لحظة أنني أطوف حولها. بطنها يُبَيِّن حَبَلًا أعلـى من شهرها السادس. تبدو نشطة تطـوف بدأب، حين يتبدّى لي وجهُها جليًّا -رغم المسافة- تظهَر لي مُنهَكة، عَرَقُها يَنْشَع من جبينها كبلّـورات نـدى، وكلّما حاولتُ الاقـتراب منها بالدخـول مواربًا إلى قُطـر الدائرة متخلّيًـا عن مساري المفتوح؛ دفعنـي الناس للابتعاد نحو الأطـراف. كنـتُ ألهـثُ طائفًا عكسَ اتجـاه كلّ الناس، وعكسَ اتجاه الساعة.

في الحُلـم كنـتُ أظـنُّ أن الجنين الذي في بطـن أمّي هو ابنـي وأودُّ أن أسـمّيه رمسيس!

فجـأةً اختفتْ أمّي من حشد الطائفين والطائفات حول الكعبة. أُصبتُ بذُعـر، وظللتُ أطوف في مساري العكسـي متعجّلًا باحثًا عنها، حتى وجدتُ نفسـي أتَخفّـف من جذْب الأرض وأطير حائمًا فوق الناس، ثم أطوف في الفضاء وأرتفع رويدًا، عيْناي كانتا حادّتَيْن من هذا العلو

كعينيْ عُقاب، أرى النملة من هذه المسافة الشاسعة كأنّي أقف على بُعْد قـدم منها. حدّقتُ بكلّ ملتحفة بالسواد ولم تكن أيٌّ منهنّ أمي. تبدّلَتْ يداي لجناحيْن هائليْن، ورغم ذلك لم أستغربْ شكلي. انكمش جسمي وصـارت لي رِجْلَا عُقاب مَلَكي شرقي، ومخالبُ في لون الحنّاء، ومنقار فضّـيّ معْقـوف، ولم أندهش. صرتُ أحوّم بخفّـة ساكتة بلا رفرفة ولا حفيـف. كنتُ أبحث عن أمّي وأنا في هذه الهيئة المتبدّلة، محلّقًا دون أن أغـيّر من حَوَماني الذي ما زال عكسَ اتجـاه الساعة، ظللتُ أتعالى حتى صارت الكعبة مثل حبّة بَرَكةٍ سوداءَ في صحنٍ أبيضَ فسيح.

2

"أنا باخونَكْ يا عُمَر!"

قلقتُ عند الفجر، بلل الوســادة عند الخدِّ يشــي بدموع. أنفاسي لاهثة، والظلام يُشــعرني بأنّي في صندوق أســود. لا أرى. تَلمِس أناملي رموشــي لتتأكّد من منبع الدمع. قلبي مغموم، وصوت الدنيا ميِّت، أو أنا التي قد مِتُّ بالفعل. بقيتُ مشلولة على سريري مرمية كفستان فاتن؛ خالٍ من الجسم. ظللتُ في تابوتي الدامس حتى أشفق عليَّ شــعاع وحيد شكّني بدبُّوس الحياة. شقْشَقة العصافير دغدغَتْ رُوحي قبل مواتـها، ونســيم خفيف بارد سَرَى فأعادني للدنيا. بقايا الدمــوع المعلّقة علــى أهدابي كانت تـجاهد في نســج الحُلم الذي يتعجّل الفرار؛ حُلم امرأة مكتئبة تَعِســة مُكَبَّلة بغربة تســري في رُوحها وقلبها على مهــل، وهي في أكثر أماكن الدنيا أُلْفَة لها: في وطنها؛ وبيتها؛ وعلى سريرها.

تشـعر أنها في منتهى الغربة، وأسوأ غربة حين يكون المرء وَسْطَ كلّ مَـن يعرف وما يعرف ولا يُحِسّ به أحد؛ أشـقى غربةَ هي حين يضيع من المرء أمانه!

قلقتُ في وقت خانق لكلّ بهجة، وقت كامد. خرجتُ للشرفة هربًا من التابوت المظلم. بزوغ الشمس ضايـق وضَيَّق عيْنيَّ المُرْهَقتَيْن من الدموع. صعدتْ الشـمس مُعلنة عن بداية مَلَل قادم. الشقشـقة المعدنيـة المزعجة لهذا الرتل الخفي من العصافير صدَّعتني. الجوّ لا نسـيمَ فيه ولا نفَس ولا حتى نقطة ندى، جوٌّ عاطل عن الحياة. السـيجارة التي بين أصابعي من نـوع آخر لا أدخِّنـه أبدًا. طعمها صدئ وله رائحة البارود. هـا قد بدأتُ أهذي في أوصافي! لكني لم أبالـغ، هذا ما شـعرتُ به عند هذا الفجر المضطرب وفي هذه الشـرفة الخاملة خلف تلك الأشـجار المنكوشة الصاخبة بطيورها المعدنيـة. هنا وقفتُ وحيدة وظهري لهذه الحجرة المائلة على كلّ آمالي.

وقفتُ في قميص نومي الحريري الشـفاف. فيه رائحة عطري الليلي الممزوج بعرقي الخفيف. حرَصْتُ دائمًا على شـراء أغلى قمصان نـوم وأفضل ملابـس داخليـة عن قناعـة. فهي الأقرب لـملامسة جسـمي ويجب أن تكون الأنفَس والأنعم. عطر ما قبل النوم فـرْضُ عيْن، عطر كالنعيم اخترتُـه بصبر وتجريب، دون تأثُّـر بالإعلانـات المِلْحاحَة أو أناقة ولطف بائعـات البارفان في

المدن الأنيقة ومحلّات المناطق الحرّة في المطارات. لا أتنازل عن عطـــري الأثير قبل النوم، أرتديه فـــي أحلامي، يضوع في الغرفة برفق شـــفيف فأروح معه، عطر لا تـعرفه إلّا قليلات. أتخيّل في حضوره ملكة أحببتُ سيرتها. يبدو هذا الوصف رومانسيًا وكماليًا للبعض، لكنه جزء من طقوس تشتهيها رُوحي وتخصُّ ولعي الذاتي بشكل حـميم لا أتـمَـظْـهرُ به أمام أحد.

أُحبُّ هذا العطر "جوي جان باتو" في علبته الذهبية، لون العطر الحناوي الذهبي الذي يشبه حياتي في جانبَيْها الـمُـتَلألئ والصَّدِئ. ربـما هو بـــذخ مريض في ظنِّ البعض، لكنَّه يلائم رُوحي ويُلئمُها من الألـم في بعض ظنّي. عطر يمثّل رُوح أكثر من عشـــرة آلاف بَتَلةِ ياسمين مُضافًا إليها مئات من الورد البلغاريِّ النادر، وتركيبة ســرّية لا يعرفها غير المؤتَـمَـنين على سرّ تصنيعه. رُوح كلّ هذه الورود انتُسِل فقط في قارورة بحجم 30 ملّي جرام.

وحدي في شـــرفة غرفتي؛ شـــرفتي اليومية على العالم المبتذَل الكسير. أسـعلُ بصوت أحاول كتمَه فيخرج متحشرجًا بأزيز أنكرَ ممّـــا لو تركتُه حُرًّا، وما زالتْ في يدي اليســـرى تلك الســـيجارة الرديئة.

لماذا أُمسك الســيجارة دائمًا بأصابع يدي اليسرى؟ ولا أرفعها باليمنى أبدًا؟ يدي اليمنى أستعملها في كلّ أموري. فلِمَ اليسرى دائمًا

مع السيجارة؟ أحاول أن أُشغِل نفسي قليلًا بهذا اللغز الفاتر المناسب لهذا الوقت الأبله، ربَّما يمضي؟

الشمس تستطيل وأركانها تتمدَّد وترسل سَامًا مُزمِنًا على كلّ حواسِّي.

وجدتُ نفسي أردُّ بصوت مرهَق مهدوم، على سؤال في ذهني أنا فقط؛ سؤال مُرّ ذي صوت مائل له طعم قشر الرمان:

"نعم، أحببتُ ثلاثَ مرات، أخفقتُ في الأولى والثالثة!"

أُذكِّر نفسي بفشل لم يسألني عنه أحد. ربَّما هي محاولة منّي للتخلُّص من الغمِّ بالبوح، لكنَّ البوح يحتاج لأذن واعية تُحسِنُ الإنصات، وقلب أمين يكتُم السرّ.

أما أنا فربَّما أحدّثكم عن حبِّها الذي وصلَ لسبع مرّات إن استدعاني البوح لاحقًا.

هي ذكرَتْ ثلاث مَحبّات -لم تكذب علينا- لكنها تغاضتْ عن ذكر حالتَيْن أحبَّتْ فيهما من طرف واحد، وحالة تأزَّمتْ فيها حتى تورّطتْ في محاولة فاشلة لمغادرة الحياة، وحالة أخيرة لا تجرؤ حتى على استعادة لمحة منها، وربما أستجيبُ لرغبتها بالتزامي الكتمانَ في محاولة منّي لمحو سرِّها أو الإبقاء عليه ناعسًا في صندوقها الأسود؛ فلأكُنْ لها مرة مثل هذا الصندوق، في عصمتي المَحوُ والإخفاء.

هي متزوِّجة منذ بضع سنوات وتجاهد في التشبُّث بمحاسن تلك

الفترة. هناك مَيْل واهن لزوج يتوارى عن القلب، هناك بقايا اهتمام؛ ملامح شغف؛ شدّ وجَذب للخروج عن المُمِل والمألوف. لم يمنعها الزواج من الشروع في حركات تمرُّد عاطفي خجول؛ من افتتان بآخرٍ أو غرام بلحظة؛ من قلق مؤقت وخشية دائمة، لكنها لم تتجاوز خطّ الندم.

هو كان يُجاهِر ويتندَّر بأنَّ لكلّ زواج فترةَ صلاحية، ينتهي بعدها مفعول حَبّة المَحَبّة. مع الوقت صارتْ طُرْفته تُؤرِّقه، ثم أضحى أوّلَ المصدِّقين لها. كأنه كان يبحث بدأب في لا وعيه عن صدق نظريته.

حين يسمع أغلب الناس بمثل هذه الحالات التي يطْلقون عليها "حالةَ الانفلات العاطفي"؛ كتعبير محتشم؛ نسمعهم في كلمات ممطوطة وأصوات مندهشة يقولون: "لكنه متزوّج!" أو "لكنها متزوّجة!"، كأنَّ الزواج مانعٌ لمَيْل فؤاد لفؤاد، أو ربما يعتبرونه إحساسًا غيرَ جائز؛ بل غير موجود. البعض يُصِرُّ على أنَّ مثل هذا الانفلات لا ولم ولن يحدث أبدًا في بيته أو عائلته أو قريته أو مدينته أو بلده بالكامل، وإن هذا "الانحراف" يخُصُّ مجتمعات وأممًا أخرى ذات مِلَل وعادات دنيئة وأخلاق أكثر دناءة. فقط أقليّة لديها خبراتٌ في مراعي الحياة السرّية أو تجارب مُروق مماثلة أو صدق عفوي نادر، تُجاهر بالدفاع بالقول: "مَنْ كان مِنكم بلا خَطِيَّة فليَرمِها أوَّلا بحَجَر!"، بينما الغالبية تُظهر تقبيحها لسلوك الذكر جهرًا، مقابل صرامتها في المطالَبة بالقِصاص من الأنثى باعتبارها الفالتة المُستهترة.

تجربة الحياة والمُعايَشة الصادقة تثبت أنَّه لا شيء يكبح غريزةَ الوصل وحِضن الرُّوح؛ لا صلاةَ تمنعُ من حدوث هذا الهُيام؛ لا جُنَّةَ صيام ولا وَرَعُ حجٍّ ولا مظهر حجاب ولا فصل بين ذكور وإناث ولا أيّ موانعَ مكتوبة أو مسموعة أو محفوظة؛ فللقلب مساراتٌ غير محدودة وفضاءاتٌ أرْحَب يسلكها وقتما وكيفما شاء، وليس

بمقـــدور أيّ كائن مهما كانتْ فِراســـتُه أن يـــدرك غيب قلب أو مدار غرام، فلا أمر بمعروف ســـيُنهي، ولا نهيّ عن مُنكر سيُحَصِّن، ولا دخْلَ للشيطان في أمر الحُبِّ؛ فالحبُّ ليس إثمًا!

قالت لنفسها:

"فُتور عيْنيه هو السبب."

قال لصديقه:

"السبب هو فُتور قلبها."

وحيـــن يتحوَّل الفُتور إلى خُمود، فعلى الحبِّ الســـلام، وعلى الزواج رحمة اللـه بلا بركات.

لم تعرف لِمَنْ تشكو وجِيعتَها وانتكاستها. عيْن زوجها عليها بارِدٌ، لم تعد تَشغَفُ بها أو تَهُز وجدانـها كما كان يحدث في أيام تاهت وسط الأيـــام. كلما ثَبَّتـــتْ عيْنيها في عيْنيه لا تجد غيـــر زوغان متكرِّر، فتنقبض وتكتئب. فؤادها يميل الآن لـغيره ولا ســـلطانَ لـحَـزْم قلبها عنه.

لـــم يعرف ما الذي تغيَّـــر ولا متى خَبَا الوَجيب. لا يشـــعر بفؤادها القديم الملهوف؛ بذاك القلب الذي كان يحقِن في وجهها حُمْرة في كلِّ لقاء. يراها منذ زمنٍ -غارٍ في الزمن- قد صارت ملهوفة على توافِهِ الحياة، مُنشغلة بكل ما يمقتُـه هو، مائلة لـكلِّ ما يصدع الوصل الذي بينهما.

قديمًا كان يُحِسّ بقرب جســمها قبل أن تلمســـه. كان يشعر بدغدغةِ حين تحبو يدها على جســمه. لو مَسّتْ بها رأسه يعرف أنها تغترف من سَـــطوته، ولو مرّرتْـها على صفحة صدره فهي تتلمَّس محبَّته وتلتَمِس حنانه، وقـد تغطِس كـفُّ يدها المالِســة الدافئة بكاملها

في غرَزٍ بطنه وتحت بطنه لإيقظ غريزة لا تفتر.

الآن إنْ وضعتْهُ على كتفه فهي توقظه، وحسب النمسة يعرف توقيت الإيقــاظ. فلو الوقت مبكرٌ تكون نمســة الأنامل حنونة، ولو تأخر في نومه قليلا تكون الكف مُنَبِّهة بتكرار رتيب، ولو سَـــهَا في النوم تغي اليد بنغزاتٍ على أقرب جزء من جسمه، تكاد فيها تغــزُ العظمَ بأصبعٍ متشــنجةٍ صُلبةٍ غير تلك الرقيقةَ المعتادة، لا يهمُّها تقطيب جبينه أو تَبَرُّمـه.

"أنا باخونك يا عُمر!"

اليوم حين فتـح عينيه صفعتْه بتلك الجملةَ الصادمةَ دون انتظار أو تمهيد.

مرتبك كملاكم يترنَّح بعد ضربة قاضية، يتمنَّى أن يعود لنعاسـه. لكنَّ ضربتَها أغلبتـه وأفاقتـه في آن: "هل قالت هذه الملعونةَ تلك الجملة اللعينةَ؟ اللعنة على الكوابيس!"

يفتـح عينيه بصعوبة مُحدِّقًا في ســقف الغرفة، يشـخُط ويلعن في الفراغ بصوت مسموع.

تمدَّدتْ على سريرها ووجهها نحو السقف. كلَّما ضاقت نفسها عليها ترمي بجسمها على السرير، وتبحلق في السقف كعادتها. كمَنْ تقرأ على صفحته ســطورًا أو تشاهد مشــهدًا. وجهها يموج تحت الجلد بموجات من نور تتواتـر برفق. تسـتدعي حُلمًـا أو ربما تختَلقه. تروح لــذاك اليوم الذي رافقتْ فيه جدَّتها للأوبرا لمشــاهدة عرض للباليه. من صغرها وهي تُقَلِّــد راقصات الباليه بإتقان مدهش. بل صارت تتأسَّــى بلوحـــة "راقصة الباليه" لـ"رينوار"؛ التي تعشــقها وتعلق صورة بوستر ضخمة لها بالقرب من سريرها. ولمَّا بدأتْ في تعلم الباليه صارت كلَّما ذهبتْ للتمرين تلبَس ســوارًا أسْوَدَ في يدها

اليسرى وتربط شريطًا أسود أيضًا على عنقها ولا تنسى أن تُتَوِّجَ شَعرَها بالشريط الأزرق، تمامًا كفتاة اللوحة.

حين وصلَتْ "شوشو" للثامنة، صمَّمَتْ جدَّتها على أن ترسلها لمدرسة الباليه على نفقتها؛ وقد كان، فجسم البنت كان ممشوقًا متناسقًا وأبدتْ توافقًا موسيقيًّا وحركيًّا وعضليًّا وعصبيًّا بشكل ملفت، أما ليونتها الجسمانية فكانت غير عادية. التحقتْ بمدرسة باليه عريقة تستعين بالعزف الحيِّ ولا تستعمل التسجيلات الموسيقية. كان يعزف على البيانو عازف أرمَنِيّ مُتَمَكِّن. كانت جَدَّتها تَلُمُّ لها شَعرَها الغزير الفاتن في ضفيرة واحدة سميكة خلف ظهرها، ليتناسب مع هذا الفنّ الجميل الصارم؛ شعرها الذي يرسم هالتها اللافتة منذ طفولتها.

تصحو في تلك اللحظة اللا يقينية الملتبسة، زوجها ينظر لوجهها يتفرَّس ملامحَها، فتشعر أنه كان معها يتلصَّص على أحلامها. تريد أن تغيب؛ أن تعود لحُلمها الأكثر إدهاشا من كل واقع؛ أن تستعيده؛ تَشدَّه؛ تجذبه؛ أن تغلق في وجهه باب اليقظة الكاملة.

وجهها ما زال نحو السقف. تتذكَّر مُرافَقةَ جدَّتها لها وتشجيعَها "البلا حدود". مواظبتها على التدريبات أثَّرَتْ على خطوها، صارت لا تمشي مثل قريناتها؛ بل تتنقل بخِفَّة فَهدٍ صغير، تكاد لا تلمِس الأرض. ولفرْطِ خفتها تسبق قريناتها دون قصد إنْ سِرْنَ معًا؛ فتضطرّ للتوقف مرات تنتظرهن، وحين تمارس الرياضة معهن تكون أخفَّهن ركضًا وقفزًا، وأكثرَهن مرونة، وأقلَّهن عرَقًا.

حجزتْ جدَّتها تذكرتَيْن في مسرح الأوبرا لتشاهد "شوشو" معها فرقة "البولشوي" Bolshoi الروسية التي زارتْ مصر في أواخر الثمانينيات وقدَّمتْ عدَّة عروض مذهلة. شاهدَتْ مع جدَّتها للمرّة الأولى "بحيرة البجع" في حفل "ماتينيه"، وجلسَتْ في الصف الأوَّل. ليس أمامها سوى البجعات الروسيات الخفيفات كالريش. "شوشو"

لا تكـــاد ترمِش حتى لا تُفلِتَ منها لحظة. بـدا لها هؤلاء الراقصون والراقصات مثــل دُمَاها التي في البيت؛ هداياهـــا الأثيرة من جدَّتها أيضًا. ربما كانت تلك الدميات هي سبب شغفها المبكر بالباليه.

الخفّة التي تشاهدها، وذاك الانسياب المذهل أدْمَعَها؛ فاهتزَّت المَشَاهد أمـــام عيْنيها. كانتْ جَدَّتِها تهمس لهـــا بملاحظات متكرِّرة، لكنَّها لم تكن تســمح لها بدخول أذنها، تهزّ رأســــها تدَّعي السمعَ، بينما هي تنفــض عنها كل مـــا يعطل حواسَّ انبهارها، فهـــي غارقة في عالم أسطوري أو سابحة فيه.

كأنه قد شـــاهد على شاشة وجهها ما كان. جسمها منتصبٌ مشدود، عرق خفيف وكرمشـــات على قميص نومهـــا، رائحتها تضوع بعطر خافِـــت مريح تحِبُّه. حمّامها المســـائي قبل النـــوم يُقَرِّبها من الجنَّة. تتمطى ببطء ولذة لتُمزِّقَ عباءة الكسل التي يبَّسَتْ جسمَها.

مُنهَكة في شَدٍّ أطراف الحُلم الفالِت وهي تبتسم ابتسامة تبدو جديدة عليه تمامًا، فهو يعرف ألفَ ابتسامة لها، أمَّا هذه الواحدة بعد الألف فهي تُربِكُه.

يضايقُها هذا الكشفُ الذي يفيض من عيْنيها أمامه وهو قارئ عيون بامتياز، تشـــعر كأنَّه دخل عليها وستار حُلمها مفتوح. مهما فعلتْ لا تستطيع أن تُخفي نظرتها التي بانَ فيها ما فسَّره هو.

الاحتماء من سطوع الضوء بالكفِّ المرفوعة يجعلها "تبَـــزْبِـــش" بعيْنيها ثم تفتح إحداهما. تختار العيْن اليســـرى، البعيدة عنه، والتي تبـــدو أكثر براءة. أدركتْ هذا بعد أن قامـــت باختبارات متكرِّرة أمام المرآة. اكتشفتْ براءة ما في عيْنها اليسرى بينما لاحظتْ دهاءً فادحًا في اليمنى، أو هكذا خُيِّل لها.

قالت: "الحبُّ الثاني كان أسوأ حبٍّ وقعتُ فيه!"

ربما نشــأتُها الرخِيَةُ الرَّخوَةُ أفقدَتهَا مناعةَ مجابَهة قســوة الحياة، فإيقافُهـــا على قدميْها كلما وقعتْ وهي صغيرة والرَّبتُ على رأســها ومسح خدّيْها؛ عوَّدها على البكاء لو تأخَّر الإسعاف؛ وعلى الصراخ الحادّ -مثل "سارينَة" سيارة نجدة- لو قوبلَتْ بالتَّجاهُل. عادة جعلتها -حيـنَ كبرَتْ- تبقى زمنًا جاثية باكية في انتظار اليد المُشـفِقة التي ستُعينُها على الوقوف.

"قلبي انكسَرَ مرَّتـيْن!"

قولٌ لا يبوح به رجلٌ نشـأ في مجتمع يقدِّس الرجولة ويُجلُّها ويرفع مـن شأن الذكَر، فالانكسار ليس من شِيَم الرجال. الجيناتُ الرجولية مُتَشَــبِّطة بدمه يفتخر بها ســرًّا وجهرًا، ولو قال: "خُدِعتُ من أنثى مرةً!"، سيعدُّونها نقيصة فيه، فالرجل في أعراف جماعته أذكى من المرأة وأقوَمُ، ولا يفلّ حديدَهُ أنثى خُلِقتْ من ضلع أعوج.

يدخل الليل عليهـــا في اليوم التالي متمهِّلًا. وحدها تمامًا يغمرها هذا الشعور النادر أنه بإمكانها أن تفعل ما تريد: تُغنّي، تصرخ، تضحك، تبكـــي؛ فليس هناك من يراقب أو ينتقد أو يســخر. لحظات نادرة في حياتها تتخلص من كل ما يـكبِّلها، وتبدأ بتحرير جسمها. تُعيد طقوسها الســرِّية. تخلع ملابســـها ببطء كتباطؤ دخول الليل عليها، تتخلص منها بدءًا من مسيرتها من المطبخ حتى غرفة نومها، تخلـعها بخِفَّة ســـحرية، كأنها حرائرُ رهيفة معلقة عليها، ترميها واحدة بعد أخرى بخفَّة "باليرينا"، تَنـثرُها فـــي طريقها الطويل. الملابس الحية التي كانت منذ لحظات تســتمدُّ طاقتها وجمالها من جسمها؛ تتهاوى الآن علـــى الأرض بَدَنًا بلا رُوح تمامًا مثل جســد. عند باب غرفة نومها ترمـــي بآخرِ وأصغر قطعتيْن تَبَـقَّـتَا لهـــا. بالعُرْي تتخفَّف من أحمال الدنيا، وتتمنَّى لذاكرتـها العُرْيَ نفسَـه.

علــى غير عادة، تترك الأنوار كما هي، فغرفة نومـها لا تطالُها عيْن متلصّص. تشمُّ رائحة جســمها بعطره الخفيف، غلافها الحميم الذي يدثّرها. تتهادى في غرفتها برشاقة، تدور وترقص رقصتها الخاصة، تشعر بأنها تسيرِ على سحاب. كأنّـها راقصة في فرقة البولشوي التي سوف تراها لاحقًا في مبنى الأوبرا في فيينّا ذات يوم لن تنساه. ترى انعكاسِ صورة جِســمها على المرآة، تتأمّل وتختال وتختزن الجمال. تمسِّد شَـعرَها فتُطرب راحتيها، دائمًا التمسيد من أجل راحتيها لا من أجل شَـعرها. تستلقي في سريرها. تمدُّ يدها إلى بطِنها العاري تشعر بأحاسيس لا تشعر بها حين تلمس بطنها وهو مُدثّرٌ بالملابس.

هناك عيْن واحدة في عمرها كلّه اســتطاعت أن تُثَـبِّت هذا الإحساس بكلِّ الألوان الممكنة؛ أنْ ترســم لجسمها تاريخًا أزليًّا في لوحاتٍ؛ أن تخلــق رُوحًا لا تخلقهُ المرايا بصورها المؤقّتة. تعرف أنها قد خُلِّدَت مــرات بيده، لكن لا تدري مصير هذا الخُلــود، ولا في أيّ مكان من العالم يعيش الآن وبأيّ قلب ورُوح يحيا!

تُطفــئ الأنــوار فيتلصّص عليها ضوء بدر تتواطـــأ معه، تتقلّب له وتغتســل في ضيائه على سريرِها، تتلمّس جسمها بلا خجل لتتعرَّف عليه من جديد. تنعَس وهي تحلم حُلمًا غيرَ مألوف.

ممددةً على سريرها ووجهها نحو السقف. كلّما ضاقتْ نفسها عليها تَحلُم بجدّتها؛ بالباليه؛ بسِـــوَارها الأسْوَد؛ بحذاء الباليرينا؛ بنغمات البيانو من العازف الأرمَنِــيّ؛ بيوم زيارتها لمســرح الأوبرا؛ بفرقة البولشــوي؛ ببحيرة البجع؛ بلوحاتها ذات الشــعر الغزير؛ برسّامها الأثير الذي رســمها علــى ورق وقماش؛ بكتاب ســيجموند فرويد؛ بقلبها؛ بنبضهَا؛ بعيْنيْها؛ بدمعها.

جَدَّتها كالعادة تصطحبها لفندقِ ســميراميس بعــد كلّ نُزهة لتتناول الــذ آيس كريم تحبُّه وهي مُطلّة علــى النيل. الجدة تغرس فيها بذرة

الفن وتبعدها عن كلّ ما يعطّل احتساءها للجمال. فهل كانت تلك الرغبةٍ بالإيغال في سحر الفنّ والجمال عينًا عليها في مواجهة الواقع المختل المنحرف؟ هل غيّبها هذا الجمال عن القدرة على التعامل مع القبح؟ هل كانت المبالغة في الرِّقة سببًا في فقدها المناعة ضدّ قسوة الحياة؟

افتراضيًّا وفي عمر الثامنة وحتى أوائل مراهقتها، صَيَّرَتْ "شوشو" راقص البولشوي لسنوات طويلة حبيبًا لها وخطيبًا ورفيقًا، ازدَحَمَتْ أغلب حيطان غرفتها بملصقات له. شافتْ نفسها تراقصه، تطير في الهواء ليلتقطها من خصرها بخِفَّة، فتميل عليه وتشعر بأنفاسه حارّة ويديه ساخنتين كاللهيب. يرميها في الهواء فتبقى هناك طويلًا وتتهادى نازلة مثل زغب طائر. يرميها مجدّدًا فتطير وتعلو ولا تنزل، تمُدُّ ضفيرتها السميكة الطويلة إليه فيحَلق متعلقًا بها صاعدًا إليها، ترفعه بيُسر فيَصِل إليها خفيفًا. يضمُّها بسخونة جسمه وكفّيْه. تقول له: "حذارِ جسمي من شمع! احترِس!"، لكنه لا يسمع أو لا يريد أن يسمع، ولا يريد أن يتوقف عن ضمِّها، يُقبِّلها بلهيبه، تذوب، تتساقط شمعًا على أرضية المسرح البعيدة في الأسفل. تتأمّل نفسَها قطرات تنزل وتتكوّم. العرض مستمرّ والراقصون والراقصات منهمكون والموسيقى تصِلها حتى السماء وهي مازالت تتساقط قطرات من شمع ذائب ساخن.

حين تجمَّعَتْ على أرضية المسرح كُتلة من الشمع، كانِ البطل جاثيًا على ركبتيْه يعيد تشكيل كتلتها الشمعية، وكانت هي طيفًا يَرَى ولا يُرَى، سعيدة بسخونة كفّيْه وهو يعيد تخليقَها. حين انتهى كان قد كوّن من الكتلة اثنتيْن؛ واحدة تشبهها بلا شعرة فارقة. أخذها ووضعها في صندوق زجاجي وأغلقه. الثانية -التي لا تشبهها- قام يراقصها مع الموسيقى نفسها التي صعدتْ عليها للسموات، ثم سارا معًا لمكان مُعتِم اختفيا فيه، وهي تسمع جلجلة ضحكة هذه الغامضة تزلزل بدنها وترجفها.

تفيق ممدَّدة على سريرها ووجهها نحو السقف. تبكي. على مخدَّتـها بُقَـع شمع ما زالت ساخنة. تنظر للسقف، ويغيب مشهد الحُلم رويدًا. يجيش نَفَسُــها وصدرهـــا يعلو ويهبط مثل راكضــة في ماراثون. بقع شمعية تيبَّسَـــتْ، لها رائحة عاطرة كالحنّاء. كفُّها عند سُرَّتـها. كـــفـها ساخنة كالنار. تغيب في شبه حُمَّى.

تعـــود لحُلمها، تقف إلى جوارها نظيرتُها التي انســلَّتْ من شـــمعها -والتي ترى شوشـــو أنها لا تشـــبهها- تمدُّ يدها الساخنة لتمسك تلك التي لا تُشـبـهُها، تلك التي اختفتْ في العتمة، ترفعها على كف يدها، تُذيبُـها. يخرج البطل من ركن مظلم في ملابس "ماتادور"، مصارع ثيـــران لا راقص باليه. ينطلق نحوه ثور هائج. يصيبه الذعر يركض في كل ناحية ويقفز فوق الثور قفزات راقص باليه لا قفزات مصارع ثيران، تبدو حركاتـه هَزَلية مثيرة للشـــفقة، حين يراها جالسة بعيدًا تـراقبـــه، يركض إليها راميًا نفســـه في حِضنـهـــا، يتحوّل لرضيع، تُـلقِمُه ثديهـــا، حين تفلت الحَلمة من فمه ينـــزّ الحليب مثل قطرات شمع تسقط عليه فيتيبَّس تدريجيًا.

تروح في النوم طويلًا. يوقـظـها شـــعاع شـــمس حـــارّ على حَلَمَتها. تفتـح عَيْنيها على جســـمها؛ جســـم عارٍ ساخن شبع من الغَزْي الحرّ الفاتن.

لم تكن الشمس مستطيلة في صباح اليوم التالي، ولم تعُدْ ترسل سامًا مزمنـــا على الحواسّ كما كان. فصنـــدوق ذاكرتـها الأبيض جلب لها لونًا شـــفافًا ناعمًا في رهافته. قعدَتْ وسط سريرها وخلَّلَتْ أصابعها في شعرها الطويل الكثيف.

كـــان هناك رجل آخـــر في الحُلم، تكاد تعرفه، تجاهد في شـــدّ الحُلم وتحاول أن تســـتكمل الحكاية بخيالـها؛ بذاكرتها؛ بتاريخها؛ بلوحاتها

الضائعـــة؛ بمراهقتها؛ بأيامها البهيّة. كان هناك واقفًا في ركن خفيّ، في عتمة ما، تراه من ظهره، تتمنى لو يستدير، اســمه يكاد يلمس لســانها. تحتاج فقط لرؤيــة وجهه، للحظ ملمح منـــه، لكنه أبدًا لا يستدير.

هل سمِعَتْ نفسها في الحُلم تقول: "وأنا اسمي 'نيالا'"؟

وهل كان هناك صوت ذكوري أليف يردّ عليها: "اســم جميل! وقْعه جميل"؟

3

أســـير وأنـــا أرفع بطـــن كفّـــي أمام عيْنـــيَّ لأقـــرأ العنوان: Schillerplatz 3, 1010 Wien شـــيلر پلاتس رقـــم 3 الحيّ الأوّل فْيينّا. تعـــوّدتُ منذ صغري أن أكتب أرقـــام الهواتف أو العناوين القصيـــرة على كفّي بقلم جـــاف؛ لأنقلها فيما بعد إلى ورقة أو دفتر أو لا أنقلهـــا. كنتُ متعجِّلًا قبل نزولي من البيت ولم أجد أيّ ورقة، فسجَّلتُ العنوان على كفّي وخرجْتُ.

في الطريق وتحـــت هذا المطر الصيفيِّ الماكـــر أطبقْتُ كفّي على العنوان، مطـر ناعم مراوغ رذاذه يُفرِحُ في البدايات، لكنه إن اســـتمرَّ في إلحاح خفي لوقت طويل يُصِبْني بالبلل والملل. أطبقتُ يدي خوفًا من امِّحاء العنـــوان، لكن دفـء كفّي وتعرُّقها فَعَلا أكثر مِمّا كان ســـيفعله المطر. كان العنوان يختفي تدريجيًّا في كلّ مرة

كنت أفتح فيه كفي لأتأكد من وجوده. القلم الجاف مكتوبٌ عليه أنه ضد الماء. لكن من الواضح أنه لم يكن ضدَّ المطر أو ضد العرق! قررت أن أحفظ العنوان غيبًا لسهولته قبل أن يذوب في كفي. كررته مرات: "شيلر بلاتس رقم 3، شيلر بلاتس رقم 3".

ما زلت بعد غريبًا بشوارع هذه المدينة وحاراتها، أضلُّ طريقي مرارًا وأكره المترو المنطلق في أنفاق مزعجة مملة وصاخبة. أخرج غالبًا في محطته الساكنة تحت الأرض من المخرج الخطأ بسبب اختياري الدائم لأقرب مخارج الصعود. أخرج إلى الأرض حتى لو اضطررتُ بعدها لأن أدور حول الميادين وصولاً لهدفي. هاجس ما يجعلني أصعد سريعًا فارًّا من تلك الكهوف المرعبة.

حين صعدت، الشارع أمامي واسع مُنْحَنٍ، مبنى أوبرا فيينا الضخم من خلفي. اتخذت مساري في هذا الشارع الدائريِّ المسمَّى "الرينج"(*)، عابرًا نحو "ميدان الجبل الأسوَد"(**)، وأنا على عادتي وعشقي لترجمة أسماء الشوارع والميادين إلى لغتي الأمّ، أو البحث عن معناها ربما أكتشف في الترجمة دلالة تحفظ للمكان شبهة الألفة؛ كما قالت لي جارتي العجوز الضريرة فراو "هيرمينه"

(*) Ring وتعني في الألمانية (الخاتم)، لاستدارة الشارع حول الحي الأول بكامله

(**) Schwarzenbergplatz

ثـم قنال الدانوب والبورصة والجامعة والبرلمان وحديقة الشـعب والقصر الجمهوري حتى ميدان الإمبراطورة "مارِيا تيريزيا". في مسيرة واحدة تأخذني ترجمةُ معاني هذا المسار الجغرافي القصير نحو التاريخ والاقتصاد والفلسفة والحُكْم والفنّ والمتعة والألم.

كنتُ سائرًا خطأً دائرًا عكس اتجاه الساعة، ولم يكن أصلًا بيني وبين عنواني المقصود -لو كنـتُ اتَّجهتُ يمينًا منذ بداية خروجي من محطّة المترو- أكثر من عشـر دقائق. دُرتُ لساعة كاملة هائمًا حول المعاني في كلّ الاتجاهـات، مُـخْطِـئًا في اتجاه قدميَّ، فهكذا اعتدتُ دون قصد أن أدور عكسيًّا في طرقي مثلما أدور عكسيًّا في كلّ حياتي. أسمِّيه قَدَري لأخفِّف عن نفسي وقْع الخيبات والتعطُّل؛ قَدَري الذي يختار لي الأبعد والأصعب ويؤجِّل لي الأقرب والأيْسَر، أنجذب دومًا للطرق العكسية، أو ربَّما هو تسرُّع فطري يطرحُـني على تجارب يقتات الزمن فيها من عمري، ومَنْ يعلم؛ ربَّما يجنّبني القَدَر شرًّا لا أعلمه: "كلّ تأخيرة وفيها خِيرة!"

أقولـها لنفسـي بصوت مسموع، متمثِّلًا صوتَ جدّتي وأمثالَها. أحاول اسـتعادة نغمة صوتـها المستحبِّ القديم، الصوت الآتي من الأزل والموروث في أذني، يرنّ الآن ليلطِّف لَـهْوَجتي ويحتويني، فأسرح فيه وأغرق للحظات في حنين دافئ يخفِّف قليلًا من برودة بدأتْ ترتديني.

بحثتُ عن منديل في جيوبي أجفِّف بـه بعض البلل عن وجهي، فظهرتْ قُصاصـة ورق بخطّي مطويّة قديمة ومنسـية، ضاعت معظـم الحروف في ثناياها، مكتوب فيها: (تسـلَّلتُ إلى حبيبتي... ضَمَمْتُهـا في بُسـتان... اصْمِتْ يا حبيبي اصْمِتْ كي لا يسـمعك أحدٌ!) أسعدتني قصاصة الورق، وأنعَشَتْ عندي ذكرى لا أنساها: "كاتارينا".

كأنّ رُوح جدَّتـه يرافقه في أوقات ضيقـه أو حيرته؛ فرغم فرحه ودفئـه بالقصاصة المطويّـة والذكرى؛ فإن أعماقـه كانت بحاجة لبَلْسَم قديم، جاء عفويًا عبر تَنَـزُّل مَثَلِها عليه: "كلّ تأخيرة وفيها خِيـرة!". محبَّتُه العارمة لجدَّته "نرجـس" تحتاج لفضفضة قادمة تسـتحقّها هذه الجَدَة الصبورة؛ تلك التي كان يعشق اسمها ويناديها بـ"نينَه نرجس".

نرجـس هي جدَّته لأمّه، تبدو في سِـنّ أصغر بكثيـر عن أعوامها الثمانية والعشـرين. يسـتغرب الناس حين يناديها أولادها وبناتها بكلمة: (ماما)، يلتفت الناسُ مندهشين: "ماما؟ هل يمزحون؟" فهي تبدو صبيّة تكاد تُماثِلهم سِنًا.

غادر جَدُّه الذي يكبرها باثنين وعشرين عامًا للحجّ للمرة الخامسة. لم يعُدْ. انتظرَتْ سِـتّ سـنوات، تتلظى على نار صبر وأمل وقنوط. تصِلها عنه أخبار مشوَّشة ومتناقضة، يتبرَّع الناس باختلاق أكاذيبَ ظنًا منهم بأنها تخفيف عنها. يتغاضَون عن كون تلك الأكاذيب ستعيد فتح أبواب أملها واجترار صبرها، وأنها سـتكون نَكْأ لجُرْح يراودها كلّما خلَتْ لنفسها. أضناها الانتظار الذي صفَقَ كلّ الأبواب المفتوحة

آلافَ المــرّات، ولم يدخل الجدُّ منها مرّة، بل كــان يخرج ممعنًا في الغياب. كل عام تتحرَّى عن الذاهبين والذاهبات للحج، تُحَمِّل الجميع أمانة الســؤال عن "نســيم جميل اللــه الفنجري"، ولا ردَّ يشفع ولا جملة يتيمة صادقة تحسِم الأمر. الشائعات تتكاثر وتتضارب: (تزوَّج من شامية ورحل معها) يؤكد مؤكد. (تزوّج يمنية وأنجب منها أولادًا) يكرِّر سامع. (انتقل لمدينةٍ اسمها الدمّام ويعمل هناك) يؤلف مُؤَلف. (التقــاه بعض الناس ورأوه في موســم الحج هــذا) يقول حاجّ عائد ليجاملهــا في ملتقى الفـقد بما يظنه تخفيفًا لغمِّها. (لا يعرفه أحد ولم يسمع باسمه أحد) يقول صادق لا يصدِّقه أحد.

ملخَّص تاريخ غيــاب الجَدِّ في جملة غير مفيــدة: (الجدُّ لن يعود)، لكنَّها لن تســتطيع إثبات وفاته، ولم يعُدْ لهــا طاقة على هذا الهجر الغادر ولا على وضـعها كامرأة مُعَلَّقة. ذهبتْ لإمام المسجد:

"رَخِّصْ لي بالطلاق يا شيخنا!"

"أعوذ باللــه! الطلاق حرام."

"سِت سنوات بلا واجب عشرة يا شيخنا!"

"لكنه سافر برضاكِ وعليكِ الصبر."

"الدين بيقول: ﴿فَأَمْسِــكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَــرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾(*) يا شيخنا! وسِت سنوات وأنا مرميّة منسيّة!"

"الصبر يا مؤمنة!

"للصبر حدود يا مولانا، والفتنة أشد من القتل!".

لم يردّ الشــيخ، بل اســتعاذ باللــه وحَوْقَلَ وعلَّــق حلال الطلاق عند حدودِ الحرام. تغاضى حتى عن ذِكر جملة (أبغض الحلال) من حديث قد يخفف من الثقل على رُوحها. شــكَتْ للمحكمة، فحلّل لها القاضي

(*) سورة البقرة، من الآية 231.

الطـــلاق غيابيًا. تزوَّجــتْ من رجل طيب ميســور الحال؛ مفتش في وزارة التعليــم كان يحبُها منذ أزل، بقِيَ عازبًــا عازفًا عن الزواج لســنوات طويلة بعد زواجها من غيره. أبوها رفضه حين تقدَّم لها، زجرها وسَخِرَ منها بجملته القاسية التي لن تنساها:

"دا يــا دُوبْ مُــدَرِّس مَســكين.. لا طِين في إيديــهْ.. ولا مِلْكْ تحتْ رِجْليهْ!"

تردَّدتْ شائعات بعد زواجه منها، إن هذا المفتش -زوج جدته الجديد- هو مَنْ تســبَّب في اختفاء الجد نسيم جميل اللــه الفنجري، بل تردَدَتْ أقــوالٌ عن تورُّطــه في قتله، دون أن يتثبَّتَ أحد من تلك الشــائعات المختلَّة المتهوِّرة التي ظلَّتْ أطولَ عُمرًا وحجْبًا للحقيقة.

المطـر كما هو على وتيرته المُمِلّة لا يزيد ولا ينقُص ولا يتوقَّف. ملابسي الخفيفة ابتلَّتْ والتصقتْ بي. خطواتي المتسارعة تعرّقني فيختلط بلَلُ الدنيا ببَلَلِي، أســرح بذهني في "نِيالا" وهي مبتلّة من رأســها حتى قدمَيْها، في شَــعْرها الفاتن حيــن يبتلّ، في صورتها بحَلْمَتيْها الـبُنِّـيَّـتَيْن المُنتَصِبتَيْن عبر شــفافية البلوزة البيضـاء، في نظرة عيْنيها الســوداوين. أتذكّرها في تلك اللحظة فتَعرُج خطواتي بين إسراع وإبطاء، وكأنَّ كلّ قَدَم تأخذ أمرًا مخالفًا مني؛ قدمٌ ترى نِيالا فتسرع، وأخرى تستحضرها فتبطئ. أستدعي نِيالا، أُخرجها من قمقم الزمن لترافقني طوال الطريق وتجفّفني بدفـء ذكرياتنا.

أحســنتُ بخروجي من البيت مبكّرًا كعادتــي، فالطريق أطْوَل

ممّا وصفتْهُ لي "جيردا" صديقتي الشـــابة باهرة الجمال ذات اللثغة الطفولية المحبَّبة، التي تـمارس رياضة كرة القدم والرسم في الوقت نفســـه، صاحبة هذا الاســـم العجيب الذي لم أستسغه في البداية، ثم أحببتُ كلّ من اسمها جيردا بسببها.

أعتذر لـــك ألف مرة يا نِيالا؛ كنتُ صَـلِـفًـــا معكِ وأنا أُصَنِّمُكِ أمامي لســـاعتيْن أو أكثر في كلّ لقاء وأغضَـــب لو تحرَّكتِ بغير إذني. تقفيـــن أمامي منحرِّرة ومُـخْـتَـرّة أو مرتعشـــة، لا أبالي إلّا بصمت جسمكِ، بسكونه، بتحويله إلى جسد ساكت، أرغب في أن أخلـــق منه صخبًا على الورق ليصير له خلود الفنّ في الحياة، كنتُ أُصَـنِّـمُـكِ وأتحرّك أنا لأراكِ من كلّ زاوية، فريســـةً كنتِ يا نِيالا وكنتُ أنا نَمِرًا عليكِ يطاوع غريزة مجبولة فيه لا يفطِن إليها، منكبًّا على خطوطي وظلالكِ بتَعَبُّد ناسك. لو كنتِ تدرين كيف كنتُ أنظر إليك؛ لعذرتِ قســـوتي التي أدركتُها بعد غيابك! كانت عيْناي عليكِ بنظرة تَشِـــفُّكِ للورق فأراكِ، ونظرة تَشِـــفُّكِ للقلب فألْمِسُـكِ، شَفٌّ يَشْفي الرُوح ويُشقيها.

الآن في غيابكِ أطبَـعُـكِ من رُوحي أكثر.

عرفـــتُ معنى التَّصَنُّم حين أصبحتُـــه على أرض أخرى وكأنه ثأرُكِ. بينما أقف مثلما كنتِ تقفين، بل أكثر، تنهشـني أربعٌ وأربعون

عينًـــا. صنم أنا الآن لَـهُنَّ ولـهم. لم تكوني عارية محبوبة إلّا لي، الآن عَـارٍ أنا، مُـبَـاحٌ للجميع.

اخيـــرًا وصلتُ إلى ميدان "شـــيلّر"، ينتصب أمامي هذا التمثال البرونزي الممشوق بلونه الأخضر الكافوري أو لون الصبّار، تمثال كهذا لا بُدَّ أن يســـتوقِفَني. غمرني الفضول فـــدُرْتُ حوله. تمثال رشيق للشــــاعر الشهير الذي سُـــمِّيَ الميدانُ باسمه. استحضرتُ لذهني مســـرحيَّته (اللصـــوص) والحركة الأدبية التـــي انتمى لها (العاصفـــة والاندفاع) التـــي ذكّرتني بحركات أدبيـــة وفنية مثل (حلقـــة ڤيينّا) و(نهضة هارلِم) و(الزنوجة النهضوية) و(جيل بِيت) و(الغابة والصحراء) وغيرها من الأسماء الثنائية لحركات جمالية بعثَتْ بالفعل على الإلهام، وتذكَّرتُ شـــيلّر أكثر بأسطورته الأشهر "ڤيلهيلم تِلّ" التي درَسْناها في المدرسة الإعدادية باللغة الإنجليزية باسم "ويلْيام تِلّ"!

تمثال عجيب يـثير الفضول مُحاط بتلك الأشكال الثمانية. شيلّر منتصب واقف أعلى عمود مســـتطيل، تحت قدميه أربعة أشخاص واقفون، وتحتهم أربعة آخرون جالســـون. مَنْ هُمْ يا تُرى؟ وما هي حكايتـهم مع شيلّر؟ أُجْزِم أن الأمر ليس تشكيلًا هندسيًّا بلا مغزى. كانَ سِـــرًّا ما في الأربعة الواقفين جعلنـــي أدور أربع مرات من أجل التمثال الممشوق، ومثلها أربع دورات أخرى حول الجالسين.

بدَوْتُ ربّما في هذا الطواف مثل حاجّ يؤدّي طقوسًا معلومة، أو كمَنْ يفكُّ نفسه من أسْرٍ ما أو يُكبِّل نفسه به.

في استعادتي ليلًا لما حدث اكتشفتُ أنني طُفْتُ حول التمثال عكس اتجاه الساعة؛ فهل صحيح أن دَوراني في اتجاه الساعة أو عكسها يعني أنني أربط نفسي بقَدرٍ ما أو أتحلّل منه؟

شيلّر منتصب متشامخ ينظر نحو الشمال. عيْناه على صديقه الحميم "جوته" الجالس هناك على بُعْد حوالَيْ مائتي متر عند ناصية "بيت النخيل". كأنّ حوارًا ما في هذا الفضاء بين التمثالَيْن الخالدَيْن يدور منذ عشرات السنين. أوّل ما طرأ على ذهني وأنا ألمح جوته من بعيد، هو تلك الجملة التي لا أنساها، تقول: (قبل قليلٍ تسلّلتُ إلى حبيبتي، دون عائقٍ، ضمَمْتها في بستان.)

شيلّر مختال في صورته مثل أمير بمعطف طويل وملابس أنيقة ضيِّقة، ناظرًا إلى جوته الذي يبدو في سَمْتِه الوقور وجلسته الواثقة الحكيمة كمَلك مرتاح مطمئنّ على عرشه. تُرى كيف كانا يسيران في هذه المدينة قبل عشرات السنين؟ وكيف كانتْ خطواتهما تحت مطر يسحُّ مثل هذا المطر؟

في أول أشهري في ڤيينّا، كنتُ أتسكَّع في طرقات المدينة بصُحبتِها. تعرّفتُ عليها في حفل عيد ميلاد أحد الأصدقاء الذي جمع عددًا كبيرًا من العُقلاء والمجانين في بيت قروي واسع على

أطراف غرب ڤيينّا. فضّلتُ الجلوس في ركن هادئ بعيد نسبيًا عن الرقص والصخب مستمتِعًا بتذوُّق مشروب أزرق لا أعرفه، تذوَّقتُه من المائدة العامرة فاستحسنتُه، على غير عادة ملأتُ كأسًا ولم أُكلِّف نفسي عناءَ قراءة الاسم من على الزجاجة. المشروب أزرق سماوي يشفُّ بلونه من الزجاجة فيُدهِش طفولتي البعيدة.

رأيتُها تبتسم لي وفي يدها المشروب نفسه، سألَتْني:

"أتسمحون لي بالجلوس معكم؟"

"بكلّ سرور."

"أراكم لا تُفضِّلون الرقص."

"لا، بالعكس، لكنِّي أُصِبتُ أمس بتمزُّق في أربطة قدمي اليسرى أثناء لعب كرة القدم."

اتسعتْ ابتسامتُها، كأني ذكرتُ لها طُرفة رزينة، سألتها:

"وأنتم الا تحبُّون الرقص؟"

لم ترُدّ، رفعَتْ ساقها، فرأيتُ قدمها حتى رُكْبتِها ملفوفة بجبس عليه توقيعات كثيرة، وانتبهتُ إلى عكّاز مُسْتَلْقٍ إلى جوارها.

ضحكنا مثل بالونات تفرقع. هي ذات ضحكة انفجارية مميَّزة وأنا أصابتني العدوى، فتركتُ العنان لتنطلق ضحكاتي مثل الألعاب

النارية. دردشْــنا كثيرًا، بل رحتُ مرَّتيْن لملْءِ كأسَــيْنا بالأزرق السماوي حتى الحافَّة. رفعنا نخب الأزرق الذي غمرنا بالمرح ولم اعرف ما هو، لكنني تركتُ الأيام تُبيِّن لي فألَه، وسمّيتُ المشروب باسمها: كاتارينا.

صرتُ أتسكَّع فــي طرقــات ڤيينّا بصُحبتها، وكنتُ أســتمتع بالإنصات إلى سَرْدِها لتاريخ المكان وحكاياته وأساطيره وخرافاته، حتى حكاياتها الشــخصية مع هذه الأمكنة كانــت تضيف لي أُلفة وعشــقًا أكثر لهذه المدينة. وصلنا إلى نُصُبِ تمثال جوتَه، فتوقَّفتُ قبل أن ندخل إلى "بيت النخيل" لأقرأ اسم جوتَه الملصوق بحروف بارزة على النُّصُب تحت قدميه، شــدَّتْني كاتارينا من يدي بعد أن تسمَّرتُ إلى جوار التمثال الضخم العالي، قالت: "سأعطيكَ تذكارًا منه يومًا ما!"، مشيتُ معها ناظرًا للخلف متلكِّئًا مشدودًا بيدها مثل طفل مبهور. ســرتُ على بساط العُشْب الأخضر داخل بيت النخيل حتى جلسنا فألقيتُ برأسي على فخذها. كانت جالسة مُمَدِّدة رجلَيْها مستندة على يد وبالأخرى تتحسَّــس وجهي ورأسي المستريح في حِجرهــا، بينما أبْتَدِع لها قصصًا مُلفَّقة تخلبها عن الأُسُــود التي تمــرّ من أمام بيوتنــا مثل كلاب ضالّــة، والأفيال التي تدبدب في الأحراش خلف دارنا، وطائر الرُّخ الضخم الأسطوري الذي يحوِّم علينا مرة كلّ عام ويخطـف الأطفال الأشرار. كنتُ أموت عشقًا في ضحكتها الرنّانة وكانت تعشق حكاياتي الكاذبة؛ تدرك أنها مبالغاتٌ

مفرطة ومع ذلك تحثُّني على المزيد. تكافئني بعد كلّ حكاية بقُبلة دافئة مكتنزة رطبة معصورة من شـــفتين لهما ملمس الخوخ وطعم التين.

اقترب منّا ضابط بوليس وأنا غارق في حكايات الخوخ والتين. الصوت البشري ذو الحشرجة المعدنية الصادر من جهازه اللاسلكي أشعرني بالمحذور. استقمتُ جالسًا لكن كاتارينا دفَرتْ رأسي بكفِّها في حِجرها وقالــت لي (هُسّ)، كلمة تعلَّمتْها منّي بالعربية من بين كلمـــات قليلة حفظَـتْها. كنتُ أقهقه عاليًا حينما تقول لي: "بوسْـــني bitte"(*). كانـــت تحبّ أن تنطق جزءًا مـــن الجملة بالعربية وآخر بالألمانية.

أردتُ أن أستقيم وأعتذر للضابط عمّا فعلتُ؛ فكما تنصّ قوانين البلاد التي أتيتُ منهـــا يُعتبَر ما نفعله هنا فعلًا فاضحًا في الطريق العام أو وضعًا مُخِلًّا بالآداب العامة. هكذا ترجمْتُ حالتنا التي كان يشبهنا فيها -في تلك اللحظة وفي ذاك المكان- ما لا يقلُّ عن عشرة محبِّين ومُحِبّات، ولكنني لستُ من هنا؛ وعليه فقوانين بلادي ستنال منّي أنا أوّلًا، وأينما كنتُ!

كانـــت ألمانيتي ما زالت تحبو. تحـــادثَ معها الضابطُ باحترام شديد ولهجة سريعة جدًّا وتركَنا وانصرفـ، وأنا غارق في حَرَجي

(*) وتعني كلمة bitte (بِتّه): رجاءً أو من فضلك

وارتباكي واندهاشي، وعلامات التعجُّب والاستفهام غلَّفتني فصرتُ أقربَ إلى الأشكال الكرتونية.

"علينا أن ننتقل إلى الحديقة الواسعة عند الأشجار!"

قالت مبتسمة لا مبالية بدهشتي وهي تهمُّ بالقيام وتشدُّني من يدي وتكمل:

"الضابط قال لي إن الجلوس على الحشائش عند السور ممنوع؛ لحماية الزهور، وإنّ هناك لافتة مكتوبة بهذا المعنى لم أنتبه إليها، وترجّاني أن ننتقل للحديقة الخضراء الواسعة التى أمامنا!"

"فقط؟ هذا فقط كلّ ما أراد؟ بل وترجّاكِ؟!"

"نعم."

أكاد أُجْزِم لو أن هناك أشعّة ليزر لتصوّرَني لوجدَتْ فقّاعة هائلة بحجمي داخلها علامة استفهام ضخمة يتبعها عشر علامات تعجُّب!

قبّلتني كاتارينا حين وقفتُ وشبكَتْ أصابعها في أصابعي. سبقتني كعادتها وهي تشدُّني إليها وتدبُّ في الأرض لننتقل إلى روضة المحبين الواسعة. كاتارينا مثل معظم النّمساويّات، خافتة حين تتكلّم، تكاد تهمس، إلّا أن الشيء الوحيد الذي تخالفه فيهنّ هو ضحكتها. تفلت منها بانفجار كطَلْقة مدفع تَرُجّ أيّ مكان تتواجد فيه.

تعتذر عنها أحيانًا للمندهشات والمندهشين، وأحيانًا تتبعها بضحكة أخرى رنّانة لتصفع بها الوجوه التي تطيل استياءها. مِشْيَتُها على الأرض واثقة وســريعة. لها ضفائر إفريقيــة رغم شَعْرِها الأشقر، وعلى ذراعها الأيســر من الخلف بالقرب من الكتف وَشْــم لفيل صغير. تُحســن الوصف والشرح بإيماءات جسمها وتشويحاتـها على غير عادة أهل أوروبا. رائحتها الطبيعية مثل رذاذ مطر على عشب نضرٍ وحضنها أمومي ساحر.

وقفــتُ عند مدخل المعهد أمســح العــرق والمطر عن جبيني، وأجفّف أصابعي في بنطلوني المبتلّ، حاملًا لوحاتي التسعَ المغطّاة بإحكام داخل عدة أغلفة من البلاســتيك. سرحتُ في تساؤل فَرَضَ نفســه عليَّ فجأة من التاريخ: هل عبَرَ "هِتْلَر" فعلًا من هذا المدخل ذات يوم؛ يوم أن رفضه البروفســور داخل هذه الأكاديمية كرسّام ونصحه بأن يتّجِه للهندســة المعمارية؟ هل أنا مثله الآن أيضًا على موعد مع الرفض؟ وهل سأفكّر في إشعال العالم لو تمَّ رفضي؟ هل أصابني ڤيروس من المكان أم أن قَدَرًا ما حطّ بي لأســكن في ڤيينّا وتحديدا في شــارع "ميلدَه مانّ شتْراسّه" في الحيّ العشرين؛ ليس فقط في الحيّ الذي عاش فيه هِتْلَر بل الشــارع نفسه؟ لقد أتيتُ من بلاد لا تغادر مياهَها التماسيح إلّا حين يعزّ النهر بالفرائس، وتزداد شــراهة ونَهَمًا حين تُجبَر على الجوع والخروج، وقد يكون الغرق الذي لفّني به المطر قد لَطّــف من شراهتي للشّرّ.

رغـم طرافة ما حدث فــي ذاك المغرب مــع كاتارينا وبقائي مستمتعًا ناعسًا في جنّة العاشقين؛ فإنني أصِبْتُ في تلك الليلة بأحلام غريبة اختلطتْ بكوابيس.

تـراءى لي "جوتـه" محشـورًا في بذلـة عسكرية مشبوطًا بهـا كمية من النياشـين والقلائد، يقف في الشرفـة العالية في ساحـة الأبطال ويرفع يده لحشد ضخم يُهلّل له. فجأة تحوّلَت الملابس المدنية للجموع الواقفة إلى ملابس عسكرية في لون مُقْبِض مخيف، واعتمرتْ رؤوسُهم جميعًا خـوذات حربية ورفعوا أذرعهم اليُمْنى مفـرودة إلى أعلى بشكل مائل وكـفّ مُتشنّجة مفتوحة إلى أسفل، ثم فجأة تحـوَّل البَشَـر إلى مجموعة زرافات ذات صـوت هادر مُرعب. أحسستُ بِهَلَـع، فقد كنتُ أظنُّ أن الزرافـات لا صوت لها، أو بالأصحّ لهـا صوت يستحيل على أذن البشـر العادية سماعُه. كان جوته منتصبًا عصبيًّا يطلق خطبة نارية في صرامة عسكرية، لا تخلو جُـمَلُه من سَجْع وقافية. كان الوجه والجسم لجوته والملابس لجنرال مسيطر، والصوت معدني ساخط، والبَشَـر قد تبدّلوا لزرافات بأعناق طويلة ورؤوس شاهقة ترتعش في تعصُّب وتنعَر بكلمات مُبهمة في صوت رعدي هادر وشنيع.

بشـاعة الحُلم جعلتني لا أحاول تثبيته أو تذكُّرَه، بل حاولتُ أن أستعيد كاتارينا والأوقات السـعيدة معها. نجحتُ في استحضار ذكـرى مُفْرِحة، ففي عيد ميلاد لي لـم أتنبّه له، جاءتْـني كاتارينا

حاملة علبة خشبية أنيقة عليها حرف S محفوف بطَوْق من الورد، مكتوبًا عليها بالألمانية (فندق صاخَر – ڤيينّا) عليه ختم (تورتة صاخَر الأصلية). العلبة من خشب طبيعي بُنّي فاتح والحروف محفورة بحَرْق بُنّي، لها حواف معدنية ذهبية في أركانها تُكْسِبها فخامة.

داخل العلبة كانت تلك التورتة الشهيرة بختمها البارز المدموغ من الشوكولاته، وعلى سطحها الداخلي منديل ورقي رقيق مُخَرَّم ومُغَلَّق بلاصق، ومعه ظرف صغير عليه اسمي بخطّ يدها بالعربية وقد نسيَتْ نقطة حرف النون، واضعة اسمي داخل قلب مرسوم.

قبَّلَتْنِي قُبلَة بملمس وطعم التّوت وغنَّتْ لي أغنية عيد الميلاد بالألمانية. نزعتُ الرسالة المعلّقة برفق وفتحتها؛ رسالة على ورق فخم من البردي كتبَتْ عليها بخطّها: (هذه قصيدة لجوتَه، عليك بترجمتها في أقرب وقت! ستتذكّر يومًا لنا كتبه عنّا جوته قبل أكثر من قرنين!)، قالتها وهي تطبع قُبلة أخرى بطعم التين.

أكلتُ التورتة كلّها في أقل من يومين ونسيتُ القصيدة في درج مكتبي لأزيدَ من عام ونصف. وكنتُ قد اشتريتُ القاموس الألماني الضخم لـ"جوتْس شريجْلَه" الذي فكّ لي الكثير من طلاسم الألمانية. جلستُ ذات يوم صافٍ ومزاج رائق وفي يدي رسالتها وقصيدة

جوتَه. ترجمتُ؛ لزمن طـــال؛ ترجَمـة أولى. بعد أيام جوَّدتُ فيها حتى تصوَّرتُ أنني اســتطعتُ إنجازَ ترجمة مقبولة. القصيدة التي نقلَتْهـــا كاتارينــا بخطّها عنوانها "الصَّرْخــــة" وكانت ترجمتي لها كالتالي:

قبل قليلٍ تسلَّلتُ إلى حبيبتي،

دون عائقٍ

ضمَمتُها في بُستانٍ. فقالَتْ

"دعْني، سأصرخُ حقًّا!"

هدَّدتُ مُتحَدِّيًا:

"وَلَوْ، ساقتلُ مَنْ يزعجنا!"

أومأتْ ولَثَغَتْ:

"اصْمتْ يا حبيبي.. اصْمِتْ كي لا يسمعكَ أحدٌ!"

1767، يوهان ڤولفجانج فون جوتَه

"تشــرَّفنا! أنا بروفســور "ڤايسْــمانّ" وهي زميلتي "ماجدالينا براون"!"

وقفــتُ مبتلًا، مرتبكًا مُغتمًّا لأنني فكرتُ في شــكلي أكثر ممّا فكَّرتُ في الكلام الذي أسمعه أو الذي سأردُّ به.

هززتُ راسي فتابع:

"ارسلَتْكم "جيردا أمَرلينج"، ابنة حفيدة الرسام الرائع الذي نُـجِلُّه جميعًا. أتعرفونه؟"

"طبعًا هو واحد من أهمِّ فناني البورتريه في النّمســا في القرن التاسع عشر. رأيتُ بعض لوحاته في بيت جيردا."

"من أين أتيتم؟"

"من الحيّ الثاني."

ضحكــا؛ فارتبكتُ، لــم أفهم ما الذي جعل الحـــيّ الثاني مثارًا للضحك.

"تفضَّلْ، اجلِسْ. هل معك بعض أعمالك؟"

قالها وهو يشير بيده للوحاتي المغلَّفة بالبلاستيك المبتلّ. خشيتُ أن يكون لكلمة (اجلِس) معنى آخر. ظللتُ واقفًا.

لم أرُدّ، بدأت أفكّ في عجالة ربطة اللوحات التي كنتُ قد سندتُـها علـــى الأرض وركنتُها إلى خصري ثم إلـــى المقعد القريب. يداي مبتلّتان وباردتان جـــدًّا. فكرتُ: لو كانا قدَّما لي كوبًا من القهوة أو كأسًـــا من النبيذ لغفرتُ لهما كلّ ما تقـــدَّم من ضحكهما وما تأخَّر، لكنهما لم يفعلا.

مسحتُ كفَّيَّ المبتلَّـتَيْن في بنطلوني الجينز المبتلّ، فكأني مسحتُ

بللاً ببلل. فضضتُ الأغلفة البلاســتيكية الســميكة بعناية وسرعة. أخرجتُ أعمالي التســعة. كنتُ قد رتَّبتُها قبل تغليفها بشــكل رأيته الأفضلَ للعرض. لن يصدّق أحد أن هذه اللّوحات ســافرَتْ كلّ هذه المسافة وعانَتْ كلّ تلك المعاناة.

•

لم ينظرا بتركيز لِلّوحات التي بدأتُ أرفعها واحدة بعد الأخرى، بل كانت عيونـهما عليّ. ظَـلّا ينظران لي ويتشاوران بلهجة صَعُبَ علــيّ فكُّ جملة صحيحة واحدة منها. هو يتحدَّث الدارجة الڤيينّاوية بســرعةِ جُملتَيْن فـــي الثانية، وهي تتحدَّث ببطء آسِـــر لكن بلهجة أصعبَ بكثير، ربما كانت لهجة أهل غرب النّمسا. لم أتيقَّنْ ممّا قالاه إن كان استحســـانًا أم ازدراءً أم اســـتكمالًا لحديث سبق حضوري. عدتُ لمـــلاذي القديم في محاولة فهم كلام النـــاس في هذه المدينة عــن طريق الإنصات بالعيْن، العيْن هي دليلي وترجُماني، عليَّ أن أنصت إلى الإيماءات بعيْنيّ. لكن في هذه المرة لم أصِل لفهم.

"قِفْ من فضلك!"

صدر أمره مفاجئًا ومُرْبِكًا هذا "الڤايســـمانّ"؛ فكيف سأقف وأنا واقف أصلًا؟ أم لكلمة (قِفْ) معنى آخر في الألمانية لا أعرفه؟ حين صدر أمره، عبسَتْ ملامحي وتأهَّبتُ بالسبّ الخافت بلغتي. فطريقة الطَّــرْدِ لا فنَّ فيها ولا جَمال في مقـــام الفنّ والجمال، ولا تليق بي وليس بها أدنى قدر من الحسّ أو اللباقة.

عُـــذتُ ألملـــم لوحاتي، قـــالا معًا: "اتـــرُكْ اللوحـــات قليلًا!"، فارتبكْتُ.

"من فضلك، قِفْ!"

"ما هذه اللعبة السخيفة يا أولاد الحرام!"

عفويًّا ينزلق مِنّي لساني سبًّا هامسًا في مثل هذه المواقف، لكنّني قُلتـُها بصوت سمعاه، وكنتُ متأكّدًا من أنهما لن يفهما لغتي. شَعرا بامتعاضي وكنتُ قد وقفتُ مشدودًا كوَتَرٍ متوتِّرٍ مَـوْتـور.

"استَدِرْ، رجاءً! أرجوك!"

نطقَتْ زميلتُه ماجدالينا كلمة (أرجوك) بتطويل ودلع، فلِنْتُ لها قليلًا ونفَذتُ. استدرتُ ثم عدتُ لأواجههما، أعادت الجملة بصوت أنعَمَ وألْطَفَ وتابَعَتْ: "سِرْ قليلًا لو تكرّمت!"

طريقة رجائها تجعلني أستسلم وأُنفِّذ. لم يخطُر ببالي أبدًا مغزى هذا الوقوف ولا هذا الســـير. ركنْتُ اللوحاتِ إلى المقعد وبحرص تركْتُ أغلفة البلاســـتيك المبتلّة مكوَّمة على الأرض. سرتُ بضع خطوات فشاهدتُ نفســـي في مرآة جانبية طويلة؛ بنطلوني الجينز مبقَّع بألوان غامقة عند القدمين والركبتين بفعل المطر، وقد التصق "التي-شيرت" على جسمي في عدّة مواضع.

في أعينهم وهج متطفّل غريب ونظرةُ ظَفَر لم أفهمها؛ فما علاقة لوحاتي بوقوفي وسيري واستداراتي.

"عظيم جدًّا، سنحتاج منك بعض البيانات، السيدة ماجدالينا براون سوف تستكمل معك الإجراءات!"

قالها ڤايسمانّ وانصرف بأناقته المتكلّفة وكوفيته الحمراء المنتفخة فوق حنجرته. تركني في حيرتي وبَللي أمام عيْنَيْن واسعتيْن تنظران من خلف نظّارة السيدة براون الأنيقة؛ السيدة ذات الصوت الساحر والأوامر التي لا تُصَدّ ولا تُرَدّ!

لكن لوحاتي لم ترَ نورًا.

4

سمّاها أبوها "شُهْدَة"، حَسَـم الأمر بصرامة العادات والتقاليد؛ فالأم تلِد والأب يُسـمّي، وحين تملِك الأم إرادة التسـمية، تسـمّي "باسم اللـه"، لكنها لا تُسمّي مولودها!

جاهدتْ الأم ومهّدتْ منذ أعوام لأن تسمّي أول ابنة لها "زينات"، حتى أنها أطلقتْ على نفسـها قبلِ الأوان لقب "أمّ زينات"، وهو اختيار لم يكن عشـوائيًا؛ فاسم جدّة شُهْدَة هو زينات، وتحسُّبًا لو كان ولدًا فقد جهّزَتْ أيضًا اسم "أمّ باسم" احتياطًا، وأبقَتْ على الاسمين في ملفّات خيالها.

بعدٍ سبع سنوات من الانتظار جاءتْ للحياة بنت وسمّاها أبوها شُهْدَة، وظلّـت الأم تناديها باسـم زينات وتحاول أن تفرض الاسـم في كلّ الأوسـاط، دخل الأب معها في معارك معلنة وخفيّة بسبب الاسم. كان أمام الضيوف؛ بمناسـبة ودون مناسبة؛ يخلق جُمَلًا يحشر فيها اسم شُهْدَة:

"قبل مِيلاد شُــهْدَة بأسبوعِيْن عَمَلْتْ كذا../ دا صحيح، بعد شَهر مِن ميلاد شُهْدَة بالظَبْط/ لا لأ، شُهْدَة ما كانِتْش اتوَلَدِتْ لِسّه!"

هذا الإلحاح الدائم والتكرار جعل الاسم بالتدريج مألوفًا، وكانت فرحة الأب تصل لمنتهاهــا لو عقّب الضيف بجملة لها علاقة بابنته، فيعيد ذكر اسمها واضحًا: (شُهْدَة)، ويصل لذروة النشوة لو كَنّاه أحد بلقب "أبو شُهْدَة".

"زينات.. يا زينااات!"

هكـــذا كانت نوال تنادي على ابنتها في ردّ فعل مباغت دون مناســبة أو احتياج لحضور البنت، بل كلازمة أساســية لتغييب اســم شُهْدَة الممقــوت لديها، أو على الأقل لتغييب النطق به في وجودها. تحضر البنــت فتقول لها الأم أيّ جملة لا معنى لها، فقد نجحتْ في الوصول لغرضها، وهو مثول صاحبة الاسم أمام الناس؛ كأنها تقول: "ها هي زينات يا ناس!"

البعض كان يطلق عليها اسم "شَهْد"؛ فيتعصَّب الأب في غضب مدرِّسِ لغة متزمِّت، ويبدأ في درس تصحيح الخطأ بفصحى متأهّبة:

"شُهْدَة.. شُهْدَةٌ بضمّ الشين مع تاء مربوطةٍ في النهاية. شُهْدَة يعني القطعة من الشَهْد؛ عسل النحل الذي لم يُصَفَّ من شمعه بعد!"

حين ستصل لسنّ البلوغ ستختار دائمًا اسم شُهْدَة، مَحبّة لأبيها الذي ترفعــه لمكانة أعلى من الجميع. لا تنكر أنها في البداية تضايقتْ عند نداء اســمها وســط أقرانها في المدرسة وســخرية التلاميذ من هذا الاســمِ العجيب، حتى إن مُدرِّســة الرياضيات الأبْلَة "قوت القلوب" المتهكّمــة طوال الوقت، كانت من الوقاحة أنها صارت تنطق الاســم

بشكل كوميدي ساخر يُضحِك التلاميذ، وتضيف له أداة النداء بطريقة ردّاحة: (يا شــوهـ-ـدا!) مع المبالغة في مدِّ حروف غير موجودة في الاســم. صديقتها الحميمة رانيا هي الوحيدة التي كانت تناديها باسم التدليل (شوشو) مثل جدّتها. أشـــاعت هذا الاسم بقوّة وسط الجميع حتى ذاع اسم شوشو بين القرينات، وبقي شُهْدَة حصرًا على الأوراق الرســمية ونداءات الأب وأحاديثه، بينما بقي اســم زينات ثابتًا على لســان أمّها وصديقات أمّها وخالاتهــا وجدّتها لأمّها وبعض قريبات العائلة من جهة الأم.

أمّا بعض أقارب الأب ممّن لم يستوعبوا معنى الاسم بوضوح؛ فكانوا يخلعــون عليه صفات كيفما اتّفق؛ مجاملة للأب، يتطوّعون دفاعًا أو شَــرْحًا بلا مناسبة، يقولون مثلًا بأن الاسم يعني صاحبة الحُسْن؛ أو الذكية؛ أو الصادقة البهية؛ لمعة اللؤلؤ؛ رائحة الياسمين عند الفجر؛ نور الشــفق؛ حُمرة الغســق؛ الفارعة القصيرة؛ السمراء القمرية؛ البيضاء الشمسية.. وهكذا، ولم يعُد أحد يتوقّف عند المعنى الفصيح الذي يكرّره الأب في كل مجلس وحديث. كان الأب يوافق على كل هذه الأوصاف ويتغاضى تدريجيًا عن تزمّته، ما دامت هذه المعاني تضيف صفات جذابة للاسم ولو كانت ليست حقًا من معناه.

"كامل" أبو شُــهْدَة وقع في غرام نوال في شــبابها وفُتِن بها. كانت شابة فيها كل مواصفات الحسناء الناضجة المثيرة التي كان يتمنّاها. قصيرة نسبيًا كما يهوى القصيرات، ويشعر فيهنّ بأنوثة ورقّة، فهو يمقت كل امرأة طويلة أو ذات مقاس حذاء يتعدّى الثمانية والثلاثين؛ ثم إنها هامسة الصوت كما يميل.

نــوال كانت عازفة عن أيّ ارتباط بشــخص ليس فيه من مواصفات "عمر الشــريف". أرهقــتْ أهلها برفض كل متقــدِّم للزواج إلى أن وصلتْ لسنّ السابعة والعشــرين، حتى خافوا عليها من فوات قطار

الزواج. كان كامل الذي سيصبح أبا شُهْدَة أكثر المتقدمين المرفوضين صبرًا وانتظارًا وحبًّا لنوال. المتقدِّمون القدامى كانوا قد تزوَّجوا وأنجبوا، وبقي قلب كامل المحبِّ المُنْتَظِر حتى نهاية العمر والذي لم ييأس لثانية، وفي لحظة نادرة وفارقة في عمره تزوَّجا.

كان يصدّق وصف التراث العربي في الفِراسة والخبرة بالنساء؛ عن الفم الصغير والفم الواسع والشفاه الرقيقة والشفاه المكتنزة واللسان الحار والدافئ والبارد والأنف المستقيم والخدِّ الأسيل والرقبة الغليظة والرِّدْف العظيم والصَّدْر الأعظم. كانت نوال صغيرة الفم مستديرة الشفتين مع حُمْرة طبيعية فيهما، ذات خَصرٍ نحيف وأرداف ممتلئة مستديرة بلا سمنة، لها ضحكة ذات رنّة خلّابة. تحمل معظم صفات الكتب التراثية عن المرأة الفريدة. كلّ هذا بَشَّره بأنها مُنْيَة الخيال، وأنها من المؤكّد شديدة الغُلمة والشبَق ولا صَبْرَ لها عن النكاح. وكان هذا مُراده وولهه فيمَن سيقترن.

بعد زواجه لعن كتب السلف وتراثهم الجنسي المخادع. تيقَّن أن هذه الأوصاف كتبها أناس يتبارون بالكلام الساكت، يبالغون ويمزحون في الصفات ولا فِراسة عندهم ولا خبرة في أمور النساء، وأن ما ينسِجون وينسَخون محض أوهام.

أيام قليلة بعد الزواج ويكتشف أن نوال تنفر من المضاجعة، تجافي أعظم لذات الكون من وِجهة نظره، لا تُبْدِي شهوة ولا تبادر من تلقاءِ نفسها برغبة. لا تتدلّل أو تطلب القربى، ولا تشيع في الجوّ ذلك التوتُّرَ الغريزي المذهل، بل ما إن تَنْتَهِ من لقاء حسّي حتى تهرع للحمّام هاربة لا تريد أن تكرِّر ما كان، كأنها كانت تقوم بمهمة عنيفة وانتهت منها بإنهاك وعَرَق غزير. شكَّ في نفسه، مع أنه لطيف يُمازِح ويُدلِّل ويعطي وقتًا ويهيِّئ جوًّا قبل أن يهمَّ بها، هي التي كانت تقصِف أيّ تمهيد كمَن يريد أن ينتهي من واجب بغيض.

لم يمر نصف عام حتى صارت تَقصِر النوم معه على ليلة واحدة في

الأسبوع، ثم مدّتها فصارت كلّ عشرة أيام، ثم ثبّتتْها على مرّة واحدة يتيمة في الشهر. بعد عام كانت قد غيّرتْ السرير المزدوج في غرفة النوم إلى سريرين منفصلين. شكّ كامل أبو شُهْدَة في نفسه وتشوّش ذهنه. تألم لأشـــهُر وتعذب برغبته العارمة ومحاولاته اليائسة، ولم يعرف لمن يشـــكو حاله. بينما أسرّتْ نوال لأمها بفحولته المتعاظمة ونَهَمِه ونَهْشِـــه، فتضامنَتْ الأمُّ مع ابنتهـــا واتّهمته بأنّه ثور جامِح، سـيُهْلِك وحيدتها الغالية ويُمْرِضها، رفعتْ عليه راية العداء في أمر ما كان له أن يخرج عن جدران حجرة النوم.

المحـــبّ الحقيقـــي لا يلين ولا يكِلّ ولا يَمَلّ، وهـــذا كان نبراس كامل الأزلي. رغم عنَـــتِ نوال ومعاناته معها فإنَّ العشـــق الذي يُكِنّه لها لم يكن يوصف. ظلّ صابرًا عليها منتظرًا طفلة منها تشـــبهها مُعَزّيًا نفســـه بمَحبّةٍ لها بلا حدود. ظلّ منتظرًا لسنوات سَبْع لم يعتبرها أبدًا سنوات عجافًا.

ورثتْ شُهْدَة عن أبيها تلك الرغبةَ في لذّة الحياة. بلغَتْ مبكّرًا وتعذّبَتْ فـــي بلوغها مع أمّ تكتّمَتْ وظنّتْ أن اللامبالاة في الرد على الأســـئلة المؤرِّقـــة للبنت صَوْنٌ لها، وأن اختراع أســـاطير ترهيبية ســـيكون رادعًا. شدَّدتْ عليها الرقابة، ولم تكن شُهْدَة منفلتة، لكنها لم تعِ عِلّة تغيُّرات جسمها المبكرة ولا تلك الأحاسيس التي ترعشها كلّما لَمَسَتْ جزءًا حسّاسًا في جســـمها. أمُّها تراقبها عن بُعْد وتخشى عليها من ذاك الفوران المبكر. وفي لحظة شَـــطَط جَهَّزَتْ الأمُّ نفسَها للسَّفرِ إلى الأقارب في الريف عازمةً على فعل يَبْتُر الشـــيْطانَ عن جســـم شُهْدَة إلى الأبد.

ســـتتذكّر شُهْدَة قبيل سفرها للريف أنها ســـألتْ أمها قبل عامٍ مضى سؤالًا لم تجبها عليه:

"ليه البِنت لازِم تِسيب شَعرَها يِطْوَل والولَد لأ؟"

"عَلَشان البِنت بِنْتْ والوَلَد وَلَد!"

"يَعني إيه عَشاني بِنْت؟"

"بَطَّلي أسئلة فارْغَة ورُوحي اتْخِمدي!"

لم ينشَـغِل بال أمـِّها بِما اعتبرَته "كلام عِيال"، لكن شُـهْدَة ظلَّتْ قَلِقَة في ذاك اليوم، كانت تفكر في معنى وإجابة إلى أن نامت.

في تلك الليلة حلمتْ شُـهْدَة بأنّها وقفت أمام المرآة وقصّتْ شـعرها الطويـل، جعلته أقصـر ما يكون. أرادت في الحُلـم أن تتحوّل لولد، لكنّها في كل مرّة كانت تفعل ذلك، كان شعرها يعود طويلًا غزيرًا في لحظات. لم ترتعب ممّا يحدث، بل راق لها الحال، فصارت تكرّر الأمر بكلّ سرور وهي تضحك!

حين اسـتيقظَتْ لم تعـرف معنى هذا الحُلـم. أرادت أن تحكي لأمّها وتسألها عن معناه، لكنها تراجعتْ وفكّرتْ أن تسأل أخوالها.

"كرهتُ أمّي منذ ذاك اليوم -تقول شُـهْدَة- ذهبنا لأقاربنا لنحتفل بشَمّ النسيم، احتفال ككلّ عام مع البيض الملوّن والـمَـلانة والفسيخ والرِّنجة والسـردين وسط خضرة الطبيعة وجوّ الريف الذي أحبه. خالي أقنعني بأنني سـأذهب معه في اليـوم التالي للغيطان وأرى الحملان الوليدة والترعة والساقية والثور الذي يدور حولها. عشّمني بأشياء كثيرة مبهجة لكنه لَمَّح لضرورة طهارتي، وبأنني سأتحوّل بهذه الطهارة إلى "عروسـة" وأنتقل إلى صفّ الشابّات البالغات. تخيّلْتُه أمرًا طبيعيًّا خصوصًا أن خالاتي وبعض نسـاء العائلة كُنَّ

متشـــجِّعات للاحتفال بي. جلس أخوالي في الغرفة الواســـعة التي دخلتُها وكانوا قد ألبسوني جلابية بيضاء واسعة. بدا لي أنها طقوس مسرحية تهريجية سأمثِّل فيها دَور العروس.

أفهموني أن الطهارة لها شـــكل رمزي فقط ويقوم بها شـــخص متخصِّص، يُحدِث خدشًـــا صغيرًا عند أعلى الفخذ كعلامة للبلوغ وهو طقس يجلب الخير والأبناء بعد الزواج.

دخل الغرفة رجل غريب السِّـــحنة يحمل شـــنطة بُنِّيَة متهرِّئة، يلبس بالطو أبيضَ قذرًا من عند الأســـاور والياقة. له أســـنان بُنِّية كبيرة متَّسِـــخة وبارزة للخارج وبعيدة عن بعضها بشـــكل مقزِّز، صوته مبحوح غليظ يناســـب شكل قذارة أسنانه. توجَّسْتُ، لماذا لا تقوم سيِّدة بأمر الطهارة هذا! تشبَّثتُ بفستان خالتي إحسان وتوقَّعتُ وقوفها إلى جواري، وأن الأمر لن يتعدَّى حدودَ الفخذ -كما قالوا- لا أكثر.

في بداية الأمر طلبتُ منهم أن أصعد للسرير وحدي، باعتباري عروسًا ستجلس في "كوشـــة" عالية، وأن تكون خالاتي بجواري، كنـــتُ فرحانة وأعـــرف أن الأمر مجرد مُزْحَـــة لا علاقة لها بأيّ ألـــم. تـــوارت الوجوه الأنثوية تدريجيًّا، ولم أعُد أمســـك بفســـتان خالتي بل بملاءة الســـرير البيضاء. اقتـــرب خالي رحيم وأنزلني من الســـرير ووقف وراء ظهري، ثم أمسك ذراعيَّ بغتة من خلفي

بقبضة موجعة، ارتعبتُ. جلـس بي على الأرض وأنا في حِجرِه. وبحركة سـريعة شلح جلبابي لأعلى وسـحب ذراعي اليمنى من تحت فخذي اليمنى وشـدها لأعلى، وكذلك اليسـرى وشد رُسغيَّ بقوة. انشـلحت الجلابية أكثر وظهر "كيلوتّي" الأبيض أمام خالي الاخر طلال، وامـام هذا الرجل القميء صاحب الأسـنان البُنّيّة. شـعرتُ بمنتهى المهانة والذعر وأنا منفرجة أمام رجال عائلة أمّي وأمام هذا الغريب الذي يبحلق في اسـفلي وأنا أحاول إطباق فخذيَّ على بعضهما وخالي قد "قَشَـخني" بلا رحمة. كان القميء يبتسم فتظهر أسنانه القبيحة.

رشّـني بسائل مُثلّج، عرفتُ فيما بعد أنه مُخدِّر موضِعي، ومثل حاوٍ أخرَج نصلًا مُرْعِبًا، وبدأ يُقَطِّعُ من أكثر أجزاء لحمي حساسية، وأنا في منتهى الذعر. صرخاتي كانت تشرُخ الغرفة وتَصْدَع الدنيا بلا مُنجِد. ناديتُ أمّي أوّلًا ثم خالاتي باسمائِهِنَّ، ترجَّيْتُهُنَّ، بأنّي لا اريد ان اكبَر لا اريد ان اكون عروسة. ترجَّيْتُهُنَّ أن يتركوني.

كنتُ اسـتجدي أبي الغائب؛ أن ينجدني من العذاب. بينما أرى اظافر الرجل الدميم المتسخة بشكلها المعقوف المرعب تمتدُّ لفخذي المُشْرَعِ امام بَخلَقة عيْنيه. عيْنان اشد ثُلْمة من النَّصْلِ الذي يحمله. بهذا النصل قطع "الكيلوت" بالشـفرة ثم اكمـل تمزيعه باصابعه فصـرتُ مُباحة امام الجميع. لم يكن هناك عُريّ افدح من هذا. ولا

عــارٌ يمكن أن يكــونَ يومًا مثلما كان. أنا التي لــم تنظر يومًا إلى هذا الجزء الحميم عملًا بنصيحة أمــي، وبتخويفها بأن هذا النظر سيُخرج الشــيطان من عيْن التواليت ليلبسني مدى الحياة، وأصير مثل طنط شادية جارتنا المصابة بصَرَع فجائي ينتابها في أيّ وقت فاســمعها تصرخ صرخات وحشــية غريبة تُرَوِّعني. أتذكَّر البَنْجَ الموضعي الـمُثلّج الذي رشَّــني به والشــفرة الثلمة التي بدأ يقطع بها من أعضائي عدة مرات والدم المنبثق على "الكيلوت" الممزق وفخــذيَّ. ثم وضع لفّة كبيرة من القطن على الجرح الغائر وقِماطًا ربطه حول خَصري مثل رضيعة، ووقف ســعيدًا بإنجازه الجليل وهو ينظر لجرحي وأنا مُنْهَكة ومُنْتَهَكة، أجاهد في ضمِّ فخذيّ دون جدوى؛ فخالي ما زال قابضًا شــادًّا مسيطرًا متهلِّلًا مُستهينًا مُهينًا، وفاضحي أمام الدنيا بلا ذرّة شفقة.

منتهى الـمذلّة والامتهان. الألم البدني لم يكن موجِعًا مثل الخِزي والعار الذي لوَّثني أكثر من دمي النازف. لم يتغيَّر شــعوري بهذا الحــادث طوال العمر. بُحَّ صوتي بعدها في أنين مكتوم لا يُســمَع. كأن هــذا القَميء قد قطع أيضًا أحبالــي الصوتية بعمليته المزرية. بقيتُ أنزف لســاعتين ولم ينقذني من النزيف سوى طبيب الوحدة الصحية الذي أراد أن يســجِّل محضرًا بالحادث، فقد رأى أن هذا القَميء قــد بالغ في القطع والهتك، ربَّما مجاملة لأخوالي ولاســم العائلة. أيضًا لولا اســم العائلة الـمُبَجَّل لســجَّل محضرًا بالواقعة،

لكنهم أقنعوه أو هدَّدوه، فتخاذل ولم يفعل. بقيتُ أسبوعًا عازفة عن الكلام احتجاجًا على هذا الغدر.

كانت أمّي تبكي وأنا لا أستطيع النظر إليها ولا أتحمَّل رَبْتَ كفّها عليَّ. شعرتُ بالخيانة من أقرب الناس إليَّ. بعد ثلاثة أيام تمكّنتُ من الوقوف المهزوز. وقفتُ أولًا برِجْلَيْن مقوَّستيْن واهنتَيْن ومشيتُ مِشْيَةَ "بِطْريق". حاولوا الترويحَ عنّي واصطحابي معهم إلى الغيطان. لكني كنتُ قد كرهتُ الغيطان والريف وشمّ النسيم وأمّي وخالاتي وأخوالي والملابس البيضاء وحلّاق الصحة وكلّ هذا النزيف.

كرهتُ جسمي ولم أفهم معنى لهذا العقاب البدني والنفسي، وكرَدِّ فعل احتجاجي قرَّرتُ أن أقُصَّ شعري بنفسي بمنظر بشع وبلا تهذيب. ساعدني مِقَصّ ثَلِمٌ على إظهار شناعة الجَزِّ وبؤس التمرُّد. هذا الشَّعر الذي يغبطونني عليه ليلًا نهارًا؛ شعري الذي سأقصُّه مرّة أخرى ذات يوم في مكان بعيد لسبب لم يكن قطُّ في حُسْباني."

بعد سنوات ستحكي لي صديقتي كاميليا لماذا كرهَتْ كلّ الرجال؛ فتجربتُها مماثلة، زوج يفتضّ نتوء أنوثتها بختان سيغيِّر من حياتها، وستسرد لي كيف تواطأ زوجُها مع الطبيب أثناء ولادتها الأولى، فنصحه بعمل خِفاض -كما سمّاه دينيًا- فختَنها بعد الولادة مباشرة

بِبَنْج موضِعيّ دون أن تدري. ستكره كلّ ذكر يدنو منها. وسيصير مَيْلُها لحنان تجده في امرأة مثلها تُشبهها. سوف تسعى وراء علاقة حسِّية لن يكون الذكَر طرفًا فيها بعد ذاك اليوم.

تقول شُـــهْدَة لنفسها: "حين أتذكَّر هذا الآن، لا أدري كيف تكون طبيعة وإحساس الممارسة الجنسية بدون ختان!"

ستتعذَّب شُــهْدَة في حياتها من ارتباك ســيُزيحها لحافَة قلق نفسي متكرِّر؛ فهي تحبُّ الحياة، تعشــق بهجتها الحسِّية، تشعر أنها ورثت مخزونـــا أبويًا رائعًا، تفهم أباها ورغبتـــه العارمة في أمِّها، فهي لم تكن غائبة عن مشاهد كثيرة كان يحوِّم فيها والدُها كَذَكر حمام عاشق حول أمِّها التي كانت تصدُّه، ليس تمنُّعًا وحياء لوجود البنت؛ بل كان صدًا وزجْرًا صريحًا لفعل تكرهه. شُهْدَة حسّاسة ولمّاحة تُـقَـدِّر حسَّ الرجل الطبيعي وشـــغفه بامرأته. في قرارة نفسها تعشق الجنس مع رجــل لها يهواها ويُقدِّرها ويدلِّلها ويــروي الظمأ الكامن في أخاديدِ رغبتها. تتمنّاه رجلًا واحدًا فريــدًا مُثيرًا فاتنًا لها ولمفاتنِـها. تتعذّب شُهْدَة بإحساســـها بفتور يطرأ عليها من حيث لا تدري. فتور تأكّدت منه منذ يومِ بَتْرِ ألذ أحاسـيس أنوثتـها الصغيــرة؛ فتور أحالَها إلى النفور. تفكّر في حال أمِّها نوال التي لم تَحكِ لها شيئًا عمّا حدث معها هي في صباها، وهــل خُتِنَتْ بالطريقة الهمجية نفســها، هل تألَّمَتْ وعانت، وهل كان هجرها لأبيها ونأيُها لســرير منفرد بســبب ختان مُشابه أُجْرِيَ لها ذات يوم مشؤوم!

لا تعرف شُــهْدَة مَجَاهِلَ هذا الشعور المُرَكَّب الذي سمَّم حياتها لاحقًا. لا تدرك هذا التناقُض الذي يكدِّر خاطرها بين شغفها بالجنس ونفورها منه. حسّ مزدوج تشعر أنها ليست الوحيدة فيه.

5

لم أخلـع كلّ ملابسي. وقفتُ شبه عارٍ أمام مرآة بيضاوية أثرية مكتوب على إطارها كتابات بخطّ "كورِّينْت"(*) لاتيني صعُبَ عليَّ فكُّ حروفه، يشبه الخطّ الهَمايوني العُثماني الذي لا يعرفه إلّا كاتِبه حيث كان يُعدُّ من أســـرار القصر. المرآة آسِـــرة فيها فنّ وصنعة. تمنيتُ أن أعرف معنى الـجُمَل المكتوبة.

الحجرة مكدَّســـة بلوحات تبدو أصلية أو ربما أُعِيدَ نسخُها بيد رسّامين مَهَرَة. شـــدَّتني لوحاتُ "إيجون شـــيلي" العارية المميَّزة الموجودة أكثر من غيرها وســـط اللوحات. تأمَّلتُها وكأني أقف في معرض خاصّ بي وحدي. مفتون أنا منذ زمن بهذا الفنان العبقري، الذي مات قبل أن يُكمِل الثلاثين.

(*) كورينت Kurrent نوع من الخطّ الألماني القديم

جوار الإطار البيضاوي مباشرة لوحة "إدوار مانيه" المشهورة (أمام المِرآة)، لتلك المَرأة الواقفة تتأمَّل نفسها بفستانها الأزرق السماوي الذي انزلق من على كتفَيْها، ثم لوحة "رِمبْرانت" (ڤينوس أمام المرآة) ولوحات أخرى مُذْهِلة، أتُوهُ في سحرها وفيمن رسمها وأحلم أحلامًا أرى فيها شخصيات اللوحات تتحرّك وتتواصل معي. مرت بي لحظات كثيرة ظننتُ فيها أنّني أيضًا لوحة مُجسَّمة وسْط تلك اللوحات.

حين الْتَوَيْتُ لأنظر لكتفي في المرآة وقعت عيْناي على لوحة لم أرها من قبل، كانت لشخص يقف باعتداد، في وجهه تعبير متألِّم -رغم زهوه في وقفته- وصدره يلمع كأنه مبتلٌ أو مدهون بسائل شفّاف. تذكرتُ زمنًا ما من طفولتي. ذات يومٍ كنتُ أسعل فيه سعالًا شديدًا سَمَّوْه السعالَ الدِّيكي، كنتُ كمن ينفُخ في مزمار خربان، كلّ سَعْلة تنتهي بزعقة قصيرة تتبعها بُحّة ثم كتمة، أو ربما تشبه نهايات صياح ديك مُنْهَك بَالَغَ في الصِّياح. في ذاك اليوم خلعَتْ عني جدّتي نرجس كلّ ملابسي، كنتُ في الرابعة على ما أظنُّ. دهنَتْ صدري بزيت الخَرْوَع ثم لفّتني بجريدة الأهرام، لم أكن أعرف القراءة، كنتُ أعرف شكل الجريدة من مواظبة أبي على قراءتها، ومن الأهرامات الحمراء المرسومة أعلى صفحتها الأولى. كنتُ على يقين أن الأهرامات مُشَيَّدة من الطُّوب الأحمر كما بدا لي من علامة الجريدة، وكما أرى البيوت المبنية حولنا

حديثًا. كانــت الصفحة الأولى فوق صدري، والأهرامات الحمراء تحديــدًا عند سُـــرَّتي. لفَّتني جدّتي مثل موميـــاء فرعونية صغيرة بتلك الصفحات التي ظهرتْ حروفها الصغيرة مثل النمل. شــعرتُ بسخونتـها على جسمي بمجرد أن ألبستني تلك البيجامة "الكَسْتور" الشــتوية فوق الجريدة، وكَفَنَتني ببطانية صــوف كُحلية صغيرة. صـــرتُ بالفعل مومياء لها رائحة الصُّوف وورق الجرائد مخلوطة برائحـــة زيت الخِرْوَع. نِمْتُ في تلك الليلة غارقًا في أحلام عجيبة ملوَّنة ومهرجانات من الأضواء في السماء، حتى صاروا يتندَّرون علـــيَّ من حكاياتي عن أحلامي الملوَّنة، وتقول طنط كوثر جارتنا؛ التي تعاملـني كطفل لها:

"يـــا أبو حِلْم جنان.. إحكي لي كَمان وكَمان وكَماااان!" فأضحك معها وأحكي لها المزيد؛ فتســـألني بصدق عن ألوان كلّ ما كان في أحلامي.

الاعتقاد الراســخ عند الناس هو أن الانســـان يحلم أحلامه لكن بدرجـــات رمادية بين الأبيض والأســـود. فما ذنْبـــي أنا إن كانت أحلامهم باهتة أو إنْ كانوا غير متيقّنين من ألوانها؟ ولو سألتَ أحدًا منهم: "هل تتذكَّـــر ألوانًا في أحلامك؟" يفكِّر طويلًا ولا يقدر على إجابة. ظلُّوا على ســـخريتهم من أحلام ملوَّنـــة يحلمها يافع مثلي، يظنُّون أنه مصاب دائمًا بالحُمَّى والهذيان.

جدّتـــي؛ طبعًا وحتمًا؛ كان لها أيضًـــا موروثاتها الطبية التي لا تتنازل عنها. ولها خلطات أعشـــابها العجيبة التي كنّا نستهين بها، حين تقول -مثلًا- إنَّ مَزْجَ زيت السمسم بالزنجبيل مفيد للسُّعال، أو إنَّ خَلْطَ الليمون بعسل النحل بالنعناع الأخضر يعالج الهُمود، وتُعدِّد فوائد الطحينة وزيت الزيتون والحلاوة الطحينية للمعدة وللبشـــرة، وسَـــفّ الكَمّون لعلاج الانتفاخات في البطن، أما قِشر الرمان فهو في "تَذْكَرَة نرجس" السرّية الخاصة يُستعمل لعلاج متاعب القولون والروماتيزم وارتفاع ضغط الدم ومتاعب أخرى كثيرة. حين كبُرْنا واغتربنا صرنا نســـتعيد وصفات الجدّات ونطبِّقها؛ بل ننقلها لمن حولنا؛ ربما رغبة في اســـتجلاب الحنين الطيّب أكثر من استجلاب الشفاء.

في الصباح قمتُ ســـليمًا معافًى أجري كالفَرَس في البيت. أمّي أشفقتْ عليَّ خوفًا من انتِكاسة جديدة، بينما تربَّعَتْ جدّتي بابتسامتها العريقة الأصيلة مفتخِرة بطبِّها الشعبيِّ القاطع المانع الأصيل.

أوّلُ رجل عارٍ رأيتُه في طفولتي وأوائل وَعْـيي بجســـم الآخر، كان أثناء احتفالات مولد النبي وأنا بصُحبة جدّتي. ســـرتُ أســـيرًا مسحورًا بتلك اللمَبات الســـاطعة الملوَّنة على جُدران جامع سيدي

علي البيومي(*) الذي بناه عثمان أغا الوكيل منذ ما يزيد عن قرنين ونصف القـــرن بالضبط، والقريب منّا في منطقة الحُسَـــيْنِية، وبه مَســـحَجٌ قديم، كان يبهرني فيه المُسَـــحِّج وأنا أتأمَّله وهو يسحَج الخشـــب بـ "الفارة" فيظهر لونه الفاتح، وتتنزل النُّجارة تحت قدمَيْه مبرومـــة ولها رائحة طازجة نـيّـئـة لكـــن مريحة، يأخذها منه أبو المعاطي القهوجي وأبو عَبْلة بائع العصير ليرشّا بها الأرض المبتلّة لتمتصَّ الماء، ولـتبـدو في شكل نظيف مقبول.

كنتُ أتعلَّقُ بالشـــبابيك الأرابيســـك للجامع، أنظـر عـبرها إلى الســـجاجيد الخضراء، والمقام الأخضر فأشـــعر بخشية، وأحيانًا بخوف. أمّا مقامُ السِّـــتّ آمنة فكنتُ أنظر إليه من شُبّاكه الأرابيسك الضيّق العالي، أشِبُّ على قدميَّ فوق الحَجَر المركون تحته. تخيَّلْتُها امرأة طيِّبة تشبه جدّتي لها ضفيرتان سميكتان تختفيان تحت منديل أبيض ملفوف يحجبه آخر أســـود معصوب عليه. عرفتُ أن زاوية السِّتّ آمنة كانت مقام الشيخ البيومي وفيها دُفِنَتْ وكذلك ولده.

كلّما أرســـلتني خالتي لفُـــرْنِ عَزْنُوس لأشـــتري خبزًا، أو إلى عبد الباسط الطُّرشَجي لأشـــتري "طُرشي"؛ عبرتُ إلى الرصيف الآخر لمســـجد البيومي ناظرًا للطّاقات العلوية المستديرة ونوافذه المســـتطيلة العملاقة، وكلّ مرة أتلكّع في الذهاب والإياب بســـبب

(*) يُقال إنَّ اسم "بيومي" أصله فرعوني، ومعناه بحار ولكن يختلف نطقها قليلا

المســـجد، وأكذبِ عليها مُدَّعِيًا أنَّ طابور "العِيش" كان طويلًا، أو أن الزحام عند الطُّرشَجِي كان شديدًا.

بهرتنـــي المصابيحُ الكثيرة الملوَّنة للمســـجد في احتفالات مولد النبي. الأضواء في المولد خلبتني بسطوعها الذي قلَبَ الليل نهارًا. كانت تشـــكيلة اللمبـــات الملوَّنة مطلية بـ"البُويَـــة": أزرق وأحمر واخضر وأصفر، مصفوفة كالعِقْد في سلك طويل، و"البُويَة" تغلِّف اللمبات بطبقة سميكة كي تتحمَّل الخبطات.

أصوات الذِّكر عالية، تخرج من حناجر المنشـــدين الصوفيين مُنَغَّمة خاشـــعة وذات مهابة. لن أنسى جملة الذِّكر المتكرِّرة: "اللـه حَيّ.. اللـه حَيّ!" التي كنتُ أسمعها "حَيّ يالّا.. حَيّ يالّا!" ثم يخرج صـــوتُ أحدِ الذاكرين ممدودًا: "مَدااادا!" رافعًا كفَّيْه للسَّـــماء، كأنه يستجدي بهذه الأذكار مددًا من اللـه يتنزَّل عليه، ثم يردِّد المُنْشِدون بتَنغيم قويّ (مَدَدْ مَدَدْ يا رسولَ اللـه.. مَدَدْ مَدَدْ يا حبيبَ اللـه).

رقصة التَّنُّورة بهرتني. حملتْني جدّتي على كتفَيْها وكنتُ ضعيفًا نحيفًا خفيفًا، بدتْ لي عملاقة في ذاك اليوم وظلَّت في مخيِّلَتي لوقت طويل تلك القوية الفارعة. حين كنتُ أستعيد طولَها في شبابي -بعد أن فُقْتُها بثلاثين سنتيمترًا- كنتُ أتعجَّب من أحوال الزمن.

لمّا رفعتْني رأيت جَمالًا ما بعده جَمال، من أعلى اســـتطعتُ أن أرى ألوان التَّنُّورة وهو يدور حول نفســـه، لـــم أعرف كيف كان

يســحر ها فتتعدّد وتتوالد واحدة من أخــرى ويتلفّع بها فيختفي فيها وهي تدور. تخيَّلتُ في البداية أن راقص التَّنُّورة امرأة ذات شــعر طويل مالِس غزير، تهز رأســها في دوائر فيتماوج الشعر الأسود بانســياب مُذْهِل؛ المُذْهِل أكثر أنها كانت المرّة الأولى التي أرى فيها رجلًا له شعر بهذا الطول. سحرتني الحركة والضجّة والألوان، وكان المولد هو أول درس في فنّ الألوان لهذا الطفل الصغير، تلك الألوان التي رافقتْ أحلامي بلا انقطاع دون حُمَّى أو هذيان.

حين شــاهدتُ فيما بعد في إحدى ليالــي رمضان رقصة فرقة المولوية والابتهالات والإنشــاد الديني في بيت السِّــنّاري بالقاهرة بقيادة عامر التوني؛ رأيتُهم يخلعون ملابسهم الملوَّنة كأنهم يخلعون زينة الحياة لتتبدَّى تحتها ملابسُهم البيضاء التي ترمز للكَفَن. تنبَّهتُ في تلك الليلة إلى هذه الحركــة الدائرية للدراويش، تلك الالتفافات التي تدور عكس عقارب الســاعة والتي تشبه حركة الكواكب، أو اعتبار أن الكعبة بقلب الصوفي ويطوف حولها إلى اليسار! لاحظتُ أيضًا عدم استخدام الآلات الموسيقية باستثناء الدُّفوف والمَزَاهِر.

أثنــاء الاحتفالاتِ بمولد النبي توقَّفْتُ عنــد بائع حلاوة المولد، أردتُ أن أقتني عروســة حلاوة ملابسها مزركشة ملوَّنة ولها تاج مُغْرٍ. حارتْ جدّتي في إقناعي بأنّ العروسة للبنات وللولد الحصان.

بالطبع لم أقتنع بتلك النظرية الغريبة، وظننتُ أن ســعر العروسة أغلى، ولكونها صاحبة الأمر والشــراء، اشترَتْ لي حصانًا حلاوة بلون وردي يمتطيه فارس يحمل سيفًا في يده. لحَسْتُه حتى أتأكَّد من حلاوته، وهي تســحبني خلفها وعينيَّ على بهاء العروسة الحلاوة الورديــة. حَمَلَتْ جدّتــي عَنّي الحصان حتى لا ينكســر، وتابعنا المســير، ظللتُ أنظر إليه خوفًا عليه أكثرَ من خوف جدّتي عليَّ أو علينا نحن الاثنين!

ساكتشــفُ بعد ســنوات أنني ظللتُ محتفظًا بالحصان الحلاوة لبضعة أشــهر ولم آكله، وأن معظمــه قد أصبح من نصيب النمل، لكنَّ الذكرى بقيَتْ عندي كاملة لم تلمسها نملة، حتى استعدتُ صورة الفارس والحصان في المرة الأولى التي دخلتُ فيها كنيســة الشهيد "مــار جرجس" فــي الظاهر مع طنط جورجيــت، رأيتُ صورة ضخمة ملوَّنة لفارس يمسك رُمْحًا طويلًا ويغرسه في حلق حيوان مفترس، قيل لــي إن هذا الحيوان هو التنّين. كان البطل الشــامخ يمتطي حصانًا أبيض يقف علــى قائمتَيْه الخلفيَّتَيْن، وكنتُ صغيرًا بذِهن بِكْر؛ فارتبطتْ صــورة الفارس في اللوحة بصورة الفارس الوردي الذي اشْــتَرَتْه لي جدّتي أثناء احتفالات مولد النبي. سألتُ طنط جورجيت:

"مين البطل دا يا طَنْطْ؟"

"دا الشهيد مارِ جرجِسْ يا حبيبي!"

"شهيد يعني مات في الحربْ؟"

قبّلتْني على رأسي ونظرتُ إليه بوَرَع. أحنَتْ رأسها ثم صَلّبَتْ أمامَهُ بيدها، وهمستْ بكلمات لم أفهمها، ثم حكَتْ لي حكاية عجيبة. قالت لي إن اسم (جرجس) الذي هو أيضًا (جورج) يعني الفلّاح، وليس الفلّاح في الأرض العادية للبشر؛ بل هو الفلّاح في كروم الربّ، وأن الشهيد ليس فقط مَنْ يموت في الحرب؛ ولكن هناك معارك أخرى يستشهد فيها البشرُ من أجل رضا الرب وجَنّتِه.

أجمل ما قدّمَتْه لي طنط جورجيت -التي صادف أن اكتشفتُ بعد وقت طويل أن اسمها هو المؤنث لاسم جورج- كان صورة تخطيطية على ورق مُقوًّى للشهيد مار جرجس لتلوينها، ومعها كمّية من الألوان "الفلوماستر". كانت أعظم هدية من أجمل طنط جورجيت في العالم، وأوّل تلوين لي لتخطيط مرسوم مُسْبَقًا لشخص أصبحَتْ له عندي حكاية أولى، لوّنْتُها بنفسي، ولن أنساها.

بصُحبة جدّتي شاهدتُ احتفالات مولد النبي بضع مرات، هذا المولد الذي لا يفوتها مهما كانت الظروف، والذي كنتُ أنتظره

معها كلّ عام بشــغف عارِم لأستعيد كلّ هذه المباهج الملوّنة وافوز بحصـــان حلاوة وردي جديد، وآمل في كلّ مرة أن تشــفق جدّتي وتوافق على شــراء العروســة التي لا تفارقها عيْناي. بدا الرجل العاري -بالنسبة لِسِــنّي الصغير وقَزَمي- عملاقًا بعضلات بارزة بصورة لافتة. على زَنْدِه وَشْــم واضح لونه أخضر مُزْرَقّ يشــبه صــورة الفارس الذي كان ممتطيًا الحصان الحلاوة الذي اشــترته لي جدّتي أو ربما يُشــبه مار جرجس. طلب من الناس أن يربطوه بجنزيــر ضخم حول جســمه. كتَّفوه وهو يزعــق بصوت أجشّ مُخيف:

"كَتِّفُوني!"

قيّدَه النـــاس قَيْدًا تصوَّرْتُ أنه لن يُمْكِنَــهُ الفِكاكُ منه مهما كان جبروته ومهما فعل، لا ســيَّما هذا القفل الضخم الذي أحكَمَ إغلاقَ هذا الجنزير عند وَشْم ذراعه فأخفى البطل المرسوم عليه.

"صلُّوا عَ النَّبي!" نطقها بصوته المبحوح المشروخ؛ فردَّد الناسُ بصوت جماعيّ: "عليه الصلاةُ والســلامْ!" "زِيــدُوا النَّبي صَلَا!" زاد الناس بصوت هادر. بقي حوالي عشر دقائق كأنه محشور في بطن حيوان خرافي لا نراه. جسمه من أعلى متصلِّب بقَيْد الجنزير الذي يَحُزّ على لحمه العاري. رِجْلاه من أســفل ترفُســان بعصبية وهــو يتلوّى، يميل للأمام وللخلف ويتحشــرج صوته الوحشــي.

يرتمي ويتمـــرّغ على الأرض فيلتصق التراب بجســـمه العرقان، يتقلّب؛ ينتفض؛ يَحــرُنُ؛ يصرخ؛ يتقلّص؛ يدور ويكْحَت الأرض.
بعد دقائق مرت عليَّ كســـاعات، تخلّص من القيــود المُصَلصِلة. رماهـــا ثقيلة على الأرض بقُفْلِها المُغْلَق، صفّق الناس له كثيرًا وأنا أكثرَ. دارَ على الناس بصندوق يجمع قروشًـــا قليلة من المُحسِنين المُستحسِـــنين، ففَرّ أغلب المُلتَفّين والمُتحَلّقات. لمّا رأت جدّتي انبهاري به وتصفيقـــي الحادّ ووجهي المندهش الجَزلان، أخرجتْ كيس فُلوسِـــها من صدرها، وفكّت عنه المنديـــل الرجالي الطويل المُطبَـــق عليه بعناية في عِدّة لفّات، أخرجَتْ له نصيبَه ووضعته في صندوقه المعدني فأصدر سقوط العُملات صوتًا مريحًا لِكِلَيْهما.
كان هذا "الشّـــجِيع" هو أقوى رجل رأيته في العالم في سِنّي هذه، وبقي ماثلًا فـــي مخيِّلَتي لزمن طويل. ظللتُ أحلم بِبَأسِـــه وأتمنّى أن أصير مســـتقبلًا "شَجِيعًا" مثله؛ أبْـهَر الناس في احتفالات مولد النبي.

مناســـبات التَّعرّي التام في الحياة لمعظم الناس قليلة، ولا تســـتغرق وقتًـــا طويلًا. ولو نظر الواحد منّا لجســـمه العاري أمـــام مرآة عند الاستحمام فهي خَطفُ نَظَر، قد تطول قليلًا للتأكُّد من سلامة وطبيعة جزء من الجســـم، بينما نتأمّل الملابس التي نرتديها لوقت أطول، بل هناك من يستغرق في حياته وقتًا في تأمُّل حذائه يعادل أضعاف زمنِ تأمُّلِه لجســـمه العاري. حتى في اللحظات الحميمة حين تسكُن شهوة الوصال؛ يبقى الجســـم للحظات قليلة عاريًا ثم نشـــدّ أقربَ ملاءة أو أيّ غطاء حاجب مهما كانت حرارة الجو، هي عادة اكتســـبناها ربّما

من شعورنا بخطر ما حين نتعرَّى؛ خطر ما قديم نطيعُه بالوراثة ولا نعرف مصدره، اكتسبناه ولم يكن قابعًا في غريزتنا، أو قد نكون فقدنا فطرتنا الطبيعية في الاعتياد على التعامُل مع العُرْي الطبيعي!

لوحات العُرْي جعلتْني أتذكّر مَنامًا يرتبط به ولا أستطيع لَمْلَمَتَهُ، أخذتْني لحُلم بعيد أو لحَدَث غائر في القِدم، تتوافد فيه تهيؤات باهتة على مخيِّلتي، تجميعُها يعينني فقط في ربط خيط متكامل بتذكُر الأسماء والصفات، لكن كلّ الأفعال تغيب.

أيّ حُلم بدون أفعال لا معنى له، أتذكَّر: أبي. صحراء. عُزْلة. عطش. حفيف. بيت أصفر. شجرة تين. زيتونة. فتاة سمراء. غُلْمَة. رُضاب. عَوْرتي. ابنتي. لوحة. امرأة. أمّي عارية. ألَم. مكان شاهق مُعتم.

لكن ما معنى كلّ هذه الأسماء؟ وما الذي يجمعني بهذه الأشياء؟ ما هو مسار الحُلم؟ بل ما هو الحُلم أصلًا؟

6

لم أكن قد خلعتُ كلّ ملابســـي بَعْد، وأنا واقف مُرْتَبِك شبه عارٍ أمام هذه المـــرآة الأثرية البيضاوية. الضوء الشـــاحب النازل من النافذة الزجاجية العلوية أعاد لي زمنَ "اللمبة الجاز".

قبل دخول الكهرباء كانت جدَّتي تستعمل ثلاثة أنواع من لمبات الكيروسين: لمبة نمرة خمسة ولمبة نمرة عشرة واللمبة السَّهّاري، وحيــن أدركَتْنا الكهرباء، لم تكن اللمبات المســـتعْمَلة ذات "ڤولت" قوي، لكنها كانت أسْــطَعَ من "لمبات الجاز" بمراحل؛ فشعرنا بأننا انتقلنا لعصر حديث.

في شـــبه عُريي أمام المرآة العتيقة تحـــت هذا الضوء الخافت،

رأيتُ نفسي مثل لوحة شبحية، فأدركت المغزى وراء قرار الفنّان أن يُخلّد جسمه إلى جسد في لوحة أو في عمل نحتي من صنعه.

الآن ســأخرج مُتَلَفِّفًا بهذا الإزار الحريري الأزرق لأكون أمام رَتْلِ العيون المنتظِرة، متوتِّرًا مُرتبكًا مأخوذًا خجولًا غائبًا مُســيَّرًا مأسورًا مسحورًا عارِيًا؛ عارِيًا تمامًا!

خطواتُــه تباطأتْ وهو يســير نحو القاعة البــاردة ولفيف النظرات اللاسِــعة يتبعه بلا رحمة. تهامسَتْ اثنتان من خلفه، وشهقَتْ واحدة دون أن تدري. دخل وهو يتحاشــى مَساسَ النظر. اقترب من المكان المُعَدِّ له، مقعد قصير بلا مسند يُشبه كراسي البارات لكنه أقصر بكثير، لا يزيد ارتفاعُه عن أربعين سنتيمترًا، قاعدته من قماش أزرق وثير. سكون يسيطر على المكان، أربعة مصابيح ضوئية خافتة موضوعة على ارتفاعات مختلفة باحتراف فنّــي لإضاءة الأركان المُعتِمَة؛ بما يسمح لطبيعة النور المُنسَكِب من النوافذ العريضة العلوية المائلة أن يظل كما هو، وأن يحفظ الإضاءة على الجســم بشكل طبيعي. لكن كل ما يَمُور بداخله هو، لم يكن طبيعيًا. كل مرة يتعرَّى فيها، يتذكّر نِيالا، فيعتذر عن ذنب قديم يُدركه في تلك اللحظة.

تدخّلتْ الأستاذة ماجدالينا براون، اقتربتْ منه وطلبتْ إليه أن يَتَمَوْضَع على الكرســي القصير محنيًا مُرِيحًا باطن قدم على الأرض ولامسًــا الأرض بمشــط قدمه الأخرى، راكنًا إيّاها على الخشــب المستعرض أسفل الكرسي، وأن يسند كوعه على فخذه ويتّكئ برأسه على قبضة يده.

رفعتْ الأســتاذة ماجدالينا الإزار عنه ورَمَتْهُ على الأرض، فصدرتْ همهمات غير واضحة من خلفها. كانت تقترب منه وتدفع كتفه برفق وحَزم للأمام، وتُميل رأسه أكثر إلى أسفل. بينما قبضة يده مضمومة

تحت ذقنه. جَثَتْ أمامه فارتاح لمقابلة وجهها وانسدال بعض خُصْلات شَعرِها مثل غطاءٍ حَجَب جزءًا من عيْنيها. أثارت له اللحظة معنى فتنة الشَعر. تذكَّر شَهْدَةٍ واحتمى باستدعاء طيفها من وَخزِ النظرات. كانت ماجداليـنا تزيح بكفيْها الدافئتين قدمَه بضعة سنتيمترات للخلف قليلًا أو إلى الأمام. في كلِّ تغيير تبتعد واقفة لمسافة مناسبة، تتأمَّله ثم تعود وتجثو وتغيّر. تعتذر في كل مرة كلَّما لمسته بيدَيْها الساخنتين، بينما يشعر تحتهما بأنه كتلة طين تتشكَّل من جديد، لولا اعتذاراتها الخافتة المتكرِّرة وصوتها الحنون لامتعض من تشكيلها لطينته المستسلمة تحت كفيْها، ولولا عطرها الخفيف المُسَكِّن كلَّما دنتْ منه؛ لَمَا سَكَن. ارتاحت ماجدالينا أخيرًا على وضعية له رأتها الأمْثَل. وشَوْشَته في أذنه شاكرة صَبْرَه ثم ابتعدَتْ، ارتاح لِمَسَاس شَعرها الحنون بكتفه، واحتسى عطرِها غصبًا عنه. ابتسم ابتسامة مُشِعَة. كانت العيون كلُّها خلفها متطلِّعة.

ما إن ابتعدتْ وتركته، حتى شعر مجدَّدًا بأنه فريسة لعيون تلمع؛ عيون مبتسمة وعيون صارمة وأخرى تائهة أو حالمة. طوال عمره تعوَّد أن يكون هو الراصد بعيْنيه وهو الذي يتحرَّك ويتكلَّم، لكنه الآن أصبح "وجْبة النظر" في هذه الوليمة الفنية. لا يتحرَّك إلا بأمر؛ مجرد جسد يتشكَّل ويتغيّر بفعل شخص آخر. لغير المجرِّب يبدو الثبات علي وضع واحد لخمس عشرة دقيقة زمنًا قصيرًا؛ لا يدرك قسوة التَّصَنُّم لدقائق قليلة بلا حِراك إلَّا من جرَّب واكْتَوَى!

هل سيستطيع تحويل المحنة إلى امتحان يجتازه بنجاح؟ أن يواجه لا أن يتفادى أو يهرب؛ أن يقرِّر بتصميم واعٍ وألَّا ينتظر كيف سيتصرَّف القَدَر معه، فليكُنْ إذًا امتحانًا وليس بلاءً. إحساسه مُلْتَبِس بين مهانة وقبول، استسلام وتسامح. البَحلَقَة في الجسم المتحوِّل لجسد تثير مرارة لا يدركها أيضًا سوى المُجَرِّب. يدها الدافئة منحته سلوى وزاوية لَذَّة في التَّفكير واستعادة للذاكرة.

"تماثيل اسكندرية.. يا بنات استوديو مصر!"

برَغــتُ في هذه اللعبة. هذه الجملـــة يقولها واحد من مجموعة الصَّبايـــا والصِّبْية في لعبة "تماثيل اســـكندرية". تعتمد اللعبة على الحركـــة والرقص، وما إنْ ينطق واحـــد معيَّن من المجموعة بهذه الجملة، حتى يَثبُــتَ كلّ صبي أو صبية فورًا على وضعية حركته أو رقصــــه: واقفًا أو جالسًـــا، رافعًا يدًا أو يَدَيْـــن، واقفًا على قدم، مســـتلقيًا، مبتسـمًا عابسًـــا منحنيًا أو مائلًا. يأتي قائل الجملة وهو المفتِّش، يبحلِق في الوجوه يحاول أن يســـتفزَّها كي تضحك أو كي تفقد توازُنَها وتتحرَّك من تلقاء نفســـها، إذ لا يجوز له أن يلمسـها. مَنْ يضحَكْ يخسِـــرْ، ومَنْ لا يتمـكَّن من الحفاظ على هيئته وثبات حركته التي اختارها كتمثال ثابت يخسِرْ، ويصير هو قائل الجملة والمفتِّش.

كنتُ أثبُتُ بإصرار مهما طـــال الوقت، بل كنتُ أختار أصعب الوضعيـــات لتماثيلَ إمّا رأيتُها أو اخترعهـــا ذهني. لا أتحرَّك ولا أضحك مهما فعلوا حتى سَـمَّوْني: "الصَّنم".

هـــا أنا الآن قد تحوَّلتُ من صنم صغير مازِح يعبث مع الصبايا والصبيان إلى صنم حقيقي كبير عارٍ وسط الكبار، صنم لا يتبادل دَورَه معهـــم ولا يغيِّر وضعيته كلّ دقائق. لا يضحك ولا يعبِس، لا يتكلّـــم ولا يتحرَّك، ولا يتوقَّف عن لَعِب دَوْره حين يَمَلّ. يتوق لأن

يخسر في اللعبة ويصبح المفتش ولو مرة!

وقفتُ في منتصف حجرة باردة، جسمي عارٍ لاهِب، حِسُّه غريب عليَّ في وجود أغراب. شـــعور لا يندرج تحت مُسَمَّى الخجل، لا أدري مـــا هو. العَرَق يَنِزُّ منّي ببطء فيلمع صدري. كم أتوق الآن إلى تَكْفِين جَدَّتي لي بجريدة الأهرام! كم سيريحني هذا الشعور في الاختباء خلف الورق بدلًا من أن أنسَـــخ عليه! العيون أمامي تلمع مثل حبيباتِ عَـرَقي التي تنزّ من جسمي ببطء، أشعر برعشة أيضًا لا تندرج تحت إحســـاس البرودة ولا الخوف. رعشة تُعيدني لمكان بعيد ويوم غائر في الزمن، الآن أكره العالم كُلَّه، ولا حيلةَ لي سوى الجلوس هكذا باذِلًا جســـمي للعيون، مُتَحَوِّلًا ببطء من جســم حيّ يمتلك عنفوانه إلى جسدِ شبهِ مَشلولٍ مِلْكٍ للآخرين، غير راضٍ أبدًا عن موافقتي الحمقاء، لكن فات أوان التَّراجع. تشُـــكُّني العيون ولا أقدر على الشكوى. حسرة تَنْتَح من رُوحي.

أشـــعر أنّني أُشْبِهُ لوحة فنان؛ لوحة جديدة تتجسَّد في هذه القاعة الآن. أُصبِحُ تدريجيًّا مثل تمثال "المُفكِّر" للنَّحّات الفرنسي "أوجُست رودان" الذي ســـمّاه "الإنسان"؛ فهل سأجلس في هذه القاعة لِعَشرِ سنوات قادمة حتى أتجسَّد كتمثال لأحد الملهَمين؟

"رودان" أيضًا رفضته مدرســـة الفنـــون في باريـــس فامْتَهَن مِهَنًا مُنْهِكـــة، حتى انزوى في أحد الأديرَة، ولمّـــا لاحظ رئيسُ الدير مَيْلَهُ للنحت، شجَّعه: "اترك الاســـتغراقَ في الصلوات لنا. دَعْ يدك تصلي

بموهبة النحت التـي منحك إيّاها الربُّ. اذهب وصلِّ صلاتك الخاصّة كما أراد الربُّ لك. اذهبْ وابْدعْ!".

جلسـتي هي جلسة هذا الإنسـان أو هذا المفكّر بقصد أو دون قصد. كأنَّ قدمَيَّ تغوصان في الأرضية الخشـبية للقاعة مثل جذر عميق لشـجرة تين أو جُمّيْزة عتيقـة. تمتزج قدماي بـ"الپاركيه"، فأفكّر أنّني لو كنتُ شـجرة، بِمَ كنتُ ساشـعر؟ أتخيَّل نفسي شجرة تَبَلْـدي جذعُها العملاق عارٍ دائمًا، وقعَـتْ عنها أوراقها في زمن الوقوع. ها أنا قد وقعَتْ عني أوراقي مرّة واحدة عندما رفعتْ عني ماجدالينا إزاري ورَمَتْه ليقبع عند قدميَّ!

أغلقـتُ عينيَّ على عالمـي الداخلي واختبأتُ فيه. رأيـتُ نفسي أحمل عصًـا طويلة مَرِنـة مُعَلّقًا عليها كرتـان أرضيّتان منزلقتـان بلا تثبيت، واحدة سـوداء والأخرى بيضـاء. سِرْتُ بهما على حبـل مشدود بين جبلـيْن شاهقـيْن. ثم تيبّسـتُ كحَجر، انتابنـي شعور بأنّنـي لو وقعتُ سأتهدّم. في لحظة فقدتُ تـوازني وهَويتُ وبقيَتْ الكرتان تسبحان في الفراغ. جسمي كان ساخنًا وجسمها أشد سخونة منّي، من أين أتت لا أدري، ذراعاهـا التفّتا حولي بِحُنُوّ ونعومة، استطالتا كأنّهما من مطّاط، أراحتني بهـذا العناق، وبرائحـة شَعرها العاطر المخـدّر، نظري اهتزّ، ثـم تحوّلَتْ عيْناها لعيون كثيرة، تأمّلتني العيـون ووخزتني فغبتُ مُخدَّرًا كأنَّ عشرات اللدغات استباحتني، بينمـا كان العناق يشتدُّ ويَخْنقُني، وصوتي لطلب النجدة لا يَخرُج.

إشارة الأستاذة ماجدالينا أتَتْ من بعيد في شكل صَفْقَتَيْن، لم أفهم معناهما، فهَبَبْتُ واقِفًا رافعًا الإزارَ عند وسطي: "لا! عُدْ كما كنتَ، أرجوك!".

قالـت "أرجوك" ولم تَقُلْ "من فضلك"! وشَـتَّان الفرق عندي؛ فالأولى تَرَجٍّ واسـتعطاف منها والثانية تفضُّل منِّي. مجرَّد فلسفات لي لتطييب خاطري. قعدتُ مستعيدًا وَضْعي السابق وتركتُ الإزار ناعسًا على فخذي. اقتربَتْ وجثَتْ وابتسمَتْ وبثَّتْ عطرها الخفيف مرّةَ أخرى فخدَّرتني من جديد، وشـدَّتْ الإزارَ عنّي ورَمَتْه برفق على الأرض. تنهيدة أخرى أنثوية صدرَتْ من الخلف. كان واضحًا أن تغييرًا قد حصل في المشهد وأنا أحاول طوال الوقت أن أحتمي بالغَوْص إلى دواخلي. عُرْيِي يعاندني. أغلب الرسّامات أمامي من الجِنْـس اللطيف. لا أدري هل أراحني هذا أمْ زاد من إرباكي؟ هل عيْن المرأة على الرجُل العاري أرْحَمُ من عيْن الرجُل عليه؟

غُصتُ في ذاتي عاريًا، أتستَّر بأسئلة ربَّما تمنحني معنًى للملابس على الجسم ومعنًى للحَجْب؛ حتى امتحنني سؤال قديم:

هل فعلًا كان الحجيج -رجالًا ونساء- في زمن ما يطوفون حول الكعبة عرايا، ظَنًّا بأنّ الثياب التي ارتُكِبَتْ فيها الذنوب لا تليق بأن يُطاف بها حول الكعبة؟

"أن تكون 'موديل' يعني ألّا تسرف في الشراب ولا في الطعام قبل الوقوف، وأن تكون قد نِمتَ جيِّدًا، وألّا تَضجَرَ من أوامر الأوضاع المطلوبة. والأهمُّ أن تتَصنَّمَ لِمَا لا يَقِلُّ عن ثُلُثِ الساعة، في كلِّ مرة!"

لا أتذكَّر مَنْ قال هذا الكلام.

رعشة جسمي خفيفة تكاد تكون لا مرئية إلّا لعيْن "نادين". تراني جسمًا؛ بينما يراني الآخرون جسدًا. تراني رُوحًا حيًّا وقلبًا ينبض. تراني من طينة إنسان من لحم ودم. هم يرونني في أغلب الأحيان مادّة أو انعكاسًا لجماد يخطّونه مثل "اسكِتْشات" كرسي أو صخرة أو تفاحة. هي الوحيدة التي أرتاح إلى عيْنيها، فأطيل استراحتي فيهما كلّما شعرتُ بسأم أو خجل. في عيْنيها حِضن يُرمِّمني. تُنحّي فرشاتها على طاولتها وتترك لوحتها وتتَّجه نحوي. تسقيني جرعة من شراب عَرَق التوت البرِّي. أشعر بنار تَسْري في حلقي تُلهِب جسمي، لكنّي أرتاح. تبتسم وتغمز بعيْنها. أحاول فكَّ الفارق بين معنى الغمز بالعيْن اليسرى أو بالعيْن اليمنى، دون جدوى. أخترع اختلافًا فلسفيًا يقنعني بالفرق: فأظنُّ أن اليسرى تعني مَحبّة وإعجابًا، واليُمْنَى إشارة مُزاح أو تنبيه لراي. لكن بأيِّ عيْن غمَزَتْ؟ أتراني تحدّثتُ يومًا مع أحد في هذا الأمر: عن براءة

العيْن اليسرى ودهاء اليمنى؟ أكاد أُجْزِم لكني لا أستطيع أن أتذكّر الآن. تعود نادين لمكانها، تسري همهمة ضحك خافتة أسمعها من حشد صورته مُغَبَّشة.

هي تعرف أن هذا الفعل خَرْقٌ لدستور التعامُل الجماعي مع الموديل، وقد يؤدّي لحَجْبها عن المجموعة. عيْن الأستاذة ماجدالينا عليها حارقة وناقمة، لكن نادين لم تُبالِ. أستسلم للوهم الذكوريّ بأن هناك معركة صامتة من أجلي تدور.

يُخَدِّرُني عَرَقُ التّوت البرّي. دفء يسري في أوصالي ببطء مُبْهِج، واقف وكأنّي جالس مُسْتَرْخٍ، والضوء النازل على وجهي يُعشي بصري فلا أرى من كلّ الموجودات والموجودين سوى نادين. أستعيد لوحة "يوهانِّيس فيرمير" (الفتاة ذات القُرْط اللؤلؤي) حيّة في صورة نادين. بكامل ألَقِ اللوحة الموجودة في "متحف تاريخ الفنون" وبكامل بهاء نادين التي أراها متلألئة بغطاء رأس أزرق، وبقُرْط لؤلؤي. الدفء يسري في جسمي أكثر، والفتور اللذيذ يغمُرني وتجتاحني بسمتها من بعيد أو من قريب، لا أدري. كأني رأيتُها تَنْزِع غطاء رأسها الأزرق، فتتبدّى بلا شَعر. جمالها رغم غياب شعرها لا يغيب؛ بل يزيد، وقُرْطها اللؤلؤي يلمع مثل بسمتها الواسعة الممتدّة. أشعر أنها وحدها التي ترسمني وأنا مُدَثَّر بمَلبَس جذّاب.

في لحظة يشعر أنه في زينة مَلبَسه رغم غربه أمام الجميع. بعيونها تبعث فيه حِسَّ الاطمئنان والرداء، وفي لحظة أخرى يشعر أنها أيضًا عارية تشاركه عُرْيَه؛ بل تمازحه وتجعل له كل مَنْ في القاعة عرايا. مرّة بعينيها ومرّة بشراب التّوت. تعرف أن سؤاله الخفيّ الأوّل لها الزاعقَ في الصمت هو: "أنت كاسية وأنا عار، موقفٌ لا عَدْلَ فيه!" سينتظر ستة لقاءات يقف فيها كموديل. المرّة السابعة ستأتي وستكون المرة الأولى التي ينتظرها خارج القاعة وهما وحدهما تمامًا. ستتجرّا وتدعوه للذهاب معًا إلى كافيه صغير ضيّق عتيق فيه كلّ ملامح القرن الماضي، اسمه كافيه (هافيلكا) في قلب الحيّ الأول وستُعَرّفه على الرجل البَشوش الأنيق "ليوبولد" وزوجته "يوسيفينه هافيلكا" صاحِبَيْ هذا المقهى العتيد، بأضوائه الخافتة التي تنقلك لعصور عتيقة في لحظة، بمناضده الرخامية الثقيلة المستديرة وأرضيّته "الباركيه" الخشبية. هناك يُمكنكَ أن تتأمّل هذه اللوحات الفنية القديمة المُعَلّقة على الحوائط في ناحية، بينما يعيدك الجانب المقابل إلى حائط مكتظ ببوسترات لإعلانات عن أحدث ما في عصرك من نشاطات أدبية وفنية وحفلات وعروض موسيقية ومسرحية وأفلام، وكلّ تجربة فنّ حديث في المدينة.

سيروق له هذا الكافيه، ملتقى نُخبة المثقّفين والفنّانين والسياسيين والصحفيين، وسيتردّد عليه مرارًا مع ناديـن، أو وحده، أو مع أُخرَيات وآخرين، وسيعرف أن هناك لوحات على الحوائط لا تُقَدّر بثمن من فنانين عظماء، كانوا في ذاك الزمان مغمورين مُعوزِين يدفعون مقابل مشاريبهم لوحات من أعمالهم.

من عادة ليوبولد أن يُجلِس زبائنَه مع آخرين إنْ كان المكان يسمح بجلوس شخص أو أكثر، يستأذن بأدب من الجالس القديم ليُفسِح مكانًا لضيف جديد. يستأذن وهو يرتّب مكان الجلوس دون أن ينتظر الإذنَ حقًا. يكاد يكون الكافيه الوحيد في فيينّا الذي يقبل رُوّاده -العارفون بطقوس المقهى- هذا الأمر باعتياد دون تَذَمُّر.

بالفعل أجلسنا ليوپولد صاحب الكافيه مع رجل أنيق تصوّرته فنّانًا أو مُغنيًا من دول الكاريبي رحّب بنا لنجلس معه، وللصُدفة الغريبة كانت نادين تعرفه معرفة عميقة، قبّلته وأشرق وجهها بهجة لرؤيته؛ وهو أيضًا. تكلّم باللهجة الڤييناوية الدارجة بطلاقة ودون أيّ لكنة. كان يضع "بادچ" مستديرًا من المعدن مطبوعًا عليه وجه لشخص ملامحه إفريقية مُكمّم الفم بكمامة في لون عَلَم النّمسا (أحمر أبيض أحمر).

عرّفتْ نادين كُلًّا منّا على الآخر. اسمه "مانويل". من الجيل المُختلط الأوّل المولود بعد الحرب العالمية الثانية، أبوه أفروأميركي وأمُّه نمساوية، وُلِد في ڤيينّا. كان مُستاءً من الأوضاع المأسوية المتكرّرة لكراهية الأجانب، قلتُ له: "كنتُ أظنُّ أن هذه الأمور نادرة هنا، رُبّما لأنّي لم أعشْ طويلًا في هذا البلد."

هزّ رأسه وابتسم بوقار يناسب هدوءه ليسمعني للنهاية فتابعتُ:

"وربُما لأنّي موجود أغلب الوقت ضمن وسَط فني متسامح".

أشار بيده إلى "البادچ" المعلّق على سترته:

"هل تعرف 'ماركوس أوموفوما'؟"

هززتُ رأسي نافيًا، قال:

"آلاف النّمساويين لا يعرفونه، رغم أنهم يعرفون تفاصيل قصة

إنقاذ القطة "مينتشـــي" التي تعلّقتْ على صفصافة في ڤيينّا، وأنقذها فريق ضخم من رجال الإنقاذ والمتطوّعين وأصبحتْ في ذاك الوقت حديث الساعة في كلّ الصحف والبرامج المرئية المسموعة!".

أحسستُ بحرج أنني لم أسمع باسم ماركوس أوموفوما، لكنه لم يُشعِرْني بهذا الحرج، ولا نادين، قال:

"مـــا رأيـــك أن نلتقـــي غـــدًا فـــي ميـــدان حقوق الإنســـان (Platz der Menschenrechte)؟"

ظننته يمزح أو يقصد مجازًا ما.

"وأين هو بالضبط؟"

"في الحيّ السابع!" قالها بنبرة جادّة ثم تابع:

"سوف أُريكَ هناك نُصُبَ ماركوس أوموفوما التذكاري؟"

وصف لـــي المكان الذي كنتُ قد مَـــرَرْتُ عليه مرارًا في أول شـــارع "مارِيا هيلفَر شتْراسّه" ولم أنتبه لاسم المكان، ولا للنُّصُب التذكاري الذي يريدني أن أراه.

التقينـــا هناك في يوم جمعة. ذهبتُ قبله حتى أتطلّع للمكان الذي مَـــرَرْتُ عليه بلا انتباه له ولا للنُّصُـــب التذكاري، وربَّما لو رأيته لظننتُ أنه عمل فنّي يخصّ مجمع الفنون (موزِيوم كوڤارتير).

حجر جرانيتي أســود فــي ارتفاع ثلاثة أمتــار ونصف تقريبًا وبوزن خمســة أطنان، موضوع على قاعدة بيضاء. العمل للفنّانة النّمســاوية "أولريكا تروجَر" وعلى نفقتهــا الخاصّة. أوَّلْتُ العمل على أنه جسم مُكَبَّل بقيود.

لحظــات ووصل مانويل. أوّل ما قدَّمه لي كــان الزِّرّ المعدني المســتدير الذي عليه الوجه الـمُـكَمَّم فمه بالعَلَم النّمساوي. قال لي: "رغم وجه النّمسا الطيِّب الرؤوف المُرْهَف فهناك وجه آخر خفي عنصري مُمْعِن في القسوة!"

"لقد قتلوا هذا الشــابّ وعمره ستة وعشرون عامًا قبل سنوات قليلة، في العام 1999 تحديدًا وليس قبل قرون مَضَتْ." أضاف.

"كيف؟" سألته.

"مات في الطائرة وهم يرحِّلونه خارج النّمسا. هو من نيجيريا، وكان طالبَ لجوء. مات بســبب غباوة الوحشية العنصرية، وليس كما يخفّفون ويتنصَّلون باعتباره فقط 'خطأ جســيمًا' من قِبَل ثلاثة من رجال البوليس، كانوا مســؤولين عن ترحيله إلى خارج البلاد، إلى بلغاريا."

"كيف؟" يبدو أن استغرابي قد ثبَّتَ عندي سؤالًا واحدًا مثل طفل يكتشف جديدًا في العالم.

"قيل إنه رفض التَّرحيل وصرخ في الطائرة، فقيَّده الضبّاط في مقعده وكمَّموا فمـــه وأنفه بالطريقة التي جعلَتْه يَصْمِتُ للأبد. مات في الطائرة، وفي هذه الحالات يدَّعون أن الشـــخص قد مات بفعل إخفـــاق في القلب، ولو كان في مكان آخـــر بعيد عن الناس فالقَوْل الأسهل أنه قد انتحر!".

ســـوف يكمل مانويل حديثه المُحزن وينفجر بكـــلام كثير؛ كأنَّه كان ينتظرني ليشـــاركني انفجارَه الداخلي، ففـــي ذاك الوقت كتبتْ إحدى جراند النمســـا "العظيمات" مقالة تعني أن هذا الشخص "أوموفوما" كان متوحِّشـــا وعَضَاضًا، لدرجة أن السيطرة عليه لم تكن ممكنة إلا مـــن خلال رَبْطه وتكميمه بهذه الطريقـــة الفَظّة المُهينة! كانت هناك أربعـــة تقارير متضاربة بخصوص موته، الأوَّل من الطبّ الشـــرعي فـــي بلغاريا بأن الوفاة قد حدثت نتيجة اختناق بســـبب إحكام الوثاق علـــى قفصه الصدري وتكميـــم أنفه وفمه معًا؛ ممّـــا منع عنه إمداد الأوكسجين لمدة تتراوح بين 20-40 دقيقة.

بعد مرور عامين، ادَّعى الطبيب الشرعي النّمساوي أن الموت لم يكن عـــن طريق الاختناق؛ ممّا دفع بالطبيب البلغاري لأن يؤكِّد أنّ الموت حدث بســـبب تكميم فمه وربط صدره بغِلظة، والدليل هو وجود بقايا من أنسجة مادة التكميم داخل رئتيه.

فيما بعدُ أصبحتْ صورة خَنْق أوموفوما نموذجًا للشَّرح في محاضرات هذا الطبيب البلغاري.

جاءِ بعد ذلك طبيـــب أمراضٍ عصبية نمســـاوي ليُدْلي بتقريره فيما يتعلّـــق بمُخ أوموفوما؛ مؤكِّدًا أنّ ضـــررًا فادحًا قد حدث للمخ جرَّاء نقص الأوكسجين عنه؛ والذي أدّى حتمًا للموت، حتى الطبّ الشرعي في ألمانيا وثـــق تقرير الطبيب البلغاري. أمّـــا قضائيًّا فقد اعتُبِر أن

ضباطَ البوليسِ الثلاثة المرافقين لترحيله القَسْـرِي تسـبَّبوا في قَتْلٍ غَيْرِ مُتَعَمَّدٍ، وأعيدوا للخدمة بعد توقف قصير.

النُّصب التذكاري لماركـوس أوموفوما تعرَّض مرات عديدة لتلطيخ وتشـويه، حتى أن "يورج هايدر" زعيم حزب التحرُّر السابق وصف أوموفومـا بأنه تاجر مخـدِّرات، وكذلك كرَّرتْ الجريدة النمسـاوية الأوسع انتشارًا هذا الوصف عدّة مرات.

ينتقل مانويل بحديثه المُحزن عبر طرح أسئلة مجازية، سيجيب هو عنها بعد انتظار قصير؛ ممّا يتيح لي الصمْتَ واستعمال إيماءات الرأس فقط: "هل سمعتَ عن 'شيباني واجوي'، الإفريقي؟"

"... ..."

"شيباني واجوي دَرَسَ علم الفيزياء في موسكو، ودرس في ڤيينّا الفيزياء الهندسية، وعمل لدى راديو أورانچ النّمساوي."

"... ..."

"قُتِـلَ أيضًا فـــي 'حديقة المدينة' Stadtpark فـــي ڤيينّا من قِبَل ضُبّاط بوليس، وكان سـبب أو تقرير الوفاة كالعادة: فشل في القلب أدّى للوفاة!".

كأن مانويل كان ينتظرني ليصُبَّ في رأسي تلك القصص المُحزِنة المخفية شـبه المطرودة من تاريخ النّمسا. فرَّجَني على فيديو على هاتفه المحمول يظهر فيه "واجوي" مربوط القدمَيْن ويداه مقيَّدتَيْن

خلف ظهره، يقف على جسمه الهامد ضبّاط ومُسْعِفون ومُسْعِفات. تركوه ماكثًا على وضعه ووجهه مَدْفوسٌ في الأرض لثلاث دقائق، ورغم أنه كان هامدًا خامدًا فقد رفعوه ووضعوه على بطنه على مِحَفَّة الإسعاف الناقلة، بينما كان الطبيب المسؤول واقفًا إلى جوار جسمه غير المُسَجَّى بلا إسعاف!

"أسوأ ما في هذه البلاد، هو ذلك المؤيِّد الصامت الذي لا يُبْدي موقفًا واضحًا في تصرُّفات ظالمة؛ هذا المُحايد الخبيث عديم الرأي الذي لا يقف ضدّ الاستبداد ولا يقف مع الحقّ. يعرف أنَّ الخَرَس مَزِيّة له. أمّا القُوَى السياسية فهي تتكفّل بخَلْق أزمات اقتصادية في شكل ديني أو عنصري لخدمة هذا المؤيِّد الصامت المُحايد، وتلعب على اضطهاد الأقلية بتزكية العنصرية من خلال خَلْق أشرار في الدولة بتهميشهم، فيتذمّر المُهَمَّشون أو حتى بلا تذمُّر، فهناك ما يكفي من خزين الكراهية كي يتألّب المجتمع عليهم، خصوصًا هذا الجزء من المجتمع الذي يؤمن بالتراتبية وبالسلالات الأدنى والأعلى؛ لأنَّه تربَّى طوال عمره على هذا النهج حتى ولو في قرية نائية بعيدة لم يدخلها أيّ أجنبي.

الطبقة الوسطى التي كانت طبقة هائلة من العمّال والحرفيين والفلاحين -وهي طبقة تَوجُّهها الأصلي اجتماعي اشتراكي- تتحوَّل الآن تدريجيًا لنُخَب صغيرة مُشتَّتة، نقاباتُها ضعيفة هامدة، فيبدأ

العَبَث في ذهن هذه الطبقات على قضية خطورة الأجنبي الذي كان اســـمه القديم في الدول الناطقة بالألمانيـــة: (العامل الضيف). يتم تهييج وتحريض تلـــك النُّخَب الصغيرة للدِّفاع عن مصالحها، ليس في مواجهة الدولة؛ وإنما في مواجهة الآخر؛ العدو الجديد والخطر المُهدِّد للحياة والمؤسِّـــس للبطالة من وجهـــة نظرهم وتحليلهم: إنه "الأجنبي" ببســـاطة، أيّ أجنبي في البلاد بعد زوال صفة (عامل) ومن قبلها صفة (ضيف) بالطبع!

وبالاضطهاد والتضييق غير الواعي يُخلَقُ القلق والاضطراب بسبب إخفاق الدولة في توفير الأمن والأمان للأقلية، ويترتَّب على ذلك نزوحُ تلك الأقلِّيّات الكُفْئة أو فرارها وخسارة الدولة عبر هَدْر لا يمكن تعويضه!".

عرَّى مانويل جســـمي ورُوحي أكثر بهـــذهِ الحكايات المُوجِعة؛ الحكايات الـمُخِيفة الـمَخفِية. بدأتُ أتوجَّس وأنا أسير في مدارات هذا العالم المُتَحَضِّر الطائش، وسط هذه الكراهية الكامنة والمُعْلَنة، لا أعرف ماذا تخفي هذه الوجوهُ حقًّا خلف عُبوسها المُزمِن، وماذا تُظهِر أمام بشاشتها المؤقّتة!

7

في صباها كرَّروا أمامها الجملة نفسها عشرات المرات:

"إنتي شَبَه فاتن حمامة بالزَّبط!"

"مِش مُمكِن.. حتى صُوتِك زيَ صُوتها!"

"الخالق الناطق فاتن حمامة!"

"دا انتي أحلى من خمسين فاتن!"

بالإلحاح شبه الإعلاني صدَقَتْ نوال الجميع في هذا المديح الهَيْمان، خصوصًا أنه يخصّ شخصية "كارزميّة" يعشقها معظم الرجال وتكاد تقلّدها كل النساء، حتى وصلَتْ هي نفسها لمرحلة "الوسواس الجذاب" بأنّ كل من ينظر لها بعيْن حلوة، تعتبره قد اكتشف طبعة فاتن حمامة في وجهها، فتَتَلبَسها بسمة فاتن وخَفَرُها ومِشْيَتِها وصوتها المراهق الخجول الذي حفظَته من الأفلام. صارت أعزّ صديقة لها هي المرآة، تقضي أغلب الوقت إمّا في البحث عن تشابهات للتأكيد أو في التدريب على إتقان تقمُّص الشخصية. تابعَتْ في هذه الفترة كل ما يُذاع أو يُعرض لسيِّدة الشاشة العربية على الشاشة وفي الإذاعة،

وكلّ ما يُكتَب في المجلات والجرائد عنها.

لم تكن نوال قد أرهقَتْ أهلَها فقط برفض كلّ متقدِّم للزواج؛ بل أرهقتْ "كامل" إرهاقًا مُضْنِيًا قبل وبعد الزواج، ولم تســتطِع أن تتخلص من حُلمها بعمر الشــريف، ومع ذلك فقد كانت مخلصة لكامل؛ ربَّما بحكم التربِية أو العِشْــرة أو لأسباب خفية في صندوقها الأسوِد لا نعرفها. لكنّها نجحتْ في توريث هذا العشــق "العُمَريِ" لابنتها شَــهْدَة؛ ففي الســنّ التي ترتبط فيها الفتاة بأمّها كقدوة تمكّنت الأم من بث عشقها العُذريّ في شــرايين البنت. تأسَّــتْ البنتُ بأمّها، وتكرار الشبه بين شُــهْدَة ونوال وفاتن حمامة أصبح جليًّا ومكرَّرًا من الجميع. تسلّمت الابنــة الصّولجــان والعرش وأعادت ســيرة أمِّها فــي انتظار عمر الشريف.

حينِ يعرض التليفزيونِ فيلمًا لفاتنِ، أصبحت شُــهْدَة تشــعر بخليط مُركب من الزّهو والخَفَر وهي أرْبَكُ المشاعر لفتاة في الرابعة عشرة، عُمْر الحِسّ العاطفي الجارِف؛ فكأنّها تشــعر بتناسُخ رُوح فاتن فيها، وبأنّ مِن ينظر للشاشة إنّما ينظر إليها هي، وأن الإطراء يعود إليها، وأنّ شُــهْدَة فــي النهاية قد أزاحَتْ أمَّهــا وأصبحَتْ هي صورة فاتن حمامة الصغيرة.

فــي هذه الفترة أُغرِمَتْ بعمر الشــريف حتى النُّخاع. وظنَّتْ بما أنها شبيهة فاتن فلا بُدَّ أَن يكون فارسِ أحلامها من طراز عمر الشريف، تمامًا كما كانت أمّها بل أكثر، وحقّ عليها المثل الشعبي القائل (اقلِبْ البنت على فُمَّها.. تطلَع البنت لأُمها). صار أملها أن يحبّها شــاب له ملامح عمر، يناجيها بصوته الأشــيان؛ فشابّ مثله لا يمكن أن يُصَدّ أو يُرَدّ.

سوف يضرُّها هذا التقييم الشكلي في حياتِها لاحقًا، ولن تتخلّص منه بسهولة. وستتعالى على كلّ الشــباب ترقّبًا لظهور الشبيه المنتَظر. ســتخالف غريزة قلبها مرات وســتَصُدّ بجدية كاذبة كلّ شابّ يتقرّب

منها؛ فقد وعدتْ نفسها بفارس واحد فقط في الخيال، ملامحه جاهزة وصوته جاهز وطوله وعرضه، وسيخرج من قمقمه الخفي يومًا ما؛ مهما طال انتظاره.

وطال انتظارها.

لم يكن الحبّ الأول في حياتها، لكنّه كان الأعمق. كان أكبر منها بعام، لكنّ عيبها أزلي، ستخسر بسببه أنقى القلوب وأقربها إليها؛ عيبها هو تَرْك بابها مواربًا لكلّ المحبّين، تفرح بالثناء والغزل لأنها تعوّدتْ عليه طوال عمرها ولم ترَ غيره.

لن تنسى بهجة هذا اليوم التاريخي في عمرها.

"اسمي مينا."

"وأنا اسمي نِيالا."

الكذب في العادة يُفسِد المَحبّة، لكنه هذه المرّة لم يُفسِد ما سيكون. كذبة مزدوجة منهما معًا، خلقَتْ تعادُلًا ما واستمرارًا لم يكن له أن يستمرّ في ظروف أخرى.

انتظرت سنوات حتى يظهر "دوبلير" عمر الشريف في أيّ مكان، إلى أن ظهر ذات يوم مَن يشبهه بالفعل، حتى في صوته الأسيان ونظرته الولهانة، وربّما كان أيضًا مفتونًا بالفنان ويتشبَّه به. رجل اقترب من الخمسين، وللصدفة الغريبة؛ اسمه عمر. رجل جَيْش يجمع بين صرامة عميد ورقّة فنّان. صرامة مجبولٌ عليها تتحوّل إلى لطف مُغالى فيه في أيام الخطبة وسنة الزواج الأولى، بعد ذلك يتحوّل نظام البيت تدريجيًا لثكنة عسكرية وتتحول هي إلى "عسكري مُراسلة"، فتقوم بكل الأعمال المُضْنية لا تنتظر منه جزاءً ولا شُكورًا.

وأين مينا من هذا الذي حدث؟ هل استُبْعِد لتحقيق الحُلم القديم لها؟

ثلاث سنوات هي عمْر قصير لقلب يميل لقلب. الإخلاص، الوفاء، الولاء؛ كلمات ليس لها معنى واحد عند الجميع.

قبل الاسترسال في الحكاية؛ لا بُدّ من توضيح ضروري في لخبطة هذه الأسماء: مَن هو مينا ومن هي نِيالا؟ وما علاقة ذلك بشَهْدَة؟ وما اسم هذا الموديل الذي حكى لنا أدقّ الأشياء عن نفسه ولم يأتِ مرّة على ذِكْر اسمه؟ الموديل سَيُغمِض عيْنيه عن كثير من الأمور التي يظنّ أنها ليست مُهمّة، أو لا يريد أن يبوح بها عَمْدًا. يركنها في صندوقٍ أسود ويغلق عَليه. هي كذلك لا تريد الإفصاحِ عن كل شيء، فلها أيضًا صندوقها الأسود. لكن حان الوقت للتّدخل وذِكْر بعض التفاصيل المُهمّة للحكاية، على الأقل تفسير الأسماء.

يقولان دائمًا إنّهما التقيا صُدْفة، وهكذا بدأ اللقاء:

"اسمي مينا، مينا سليمان."

قالها لحظة ما انفتحت عُروَة بلوزتها وبان منها ما يُشبه صليبًا فضّيًا.

"وأنا اسمي نِيالا." ردّت عليه بصوت خافِت.

شيطانُه زيّن له أن يعبث بمُزْحَة معها، تلك المُزْحَة التي ستغيّر مصائر قادمة، يدرك أن اسم (نِيالا) هذا لا يقبل القسمة على كل المِلَل والأديان. لم يرغب في الاستفسار منها عن مِلّة الاسم؛ فسيبدو تصرُّفًا غير مُستَحَبّ:

"اسم جميل، وقعُه جميل!" قالها كهدية غلّفها ببسمة عذبة.

ردّت على بسمته بأعذب منها. هو قال مديحه المختصر كي يسمع منها أيّ معلومة عن الاسم أو معناه، وهي اكتفت باستحسانه وصمتَتْ. خمّن أنها مسيحية. وتأكّدَتْ هي أيضًا من دون حَصافة أو جهد بأنه قبطي، فهذا الاسم الواضح: (مينا سليمان)؛ قبطي، ألف

في المانة. تصوَّرَتْ أنَّ غرابة اسمها الأصلي سيفتح باب تحرّيات ثم تأويلات، لكنه اكتفى بالامتِدِاح، وهي اكتفت بالسكوت. بدتْ مُقدِّمة التعارُف بهذا الإيجاز والتَّرَقب مُلتَبِسة وناقصة، رَدَمَا بها معًا وبلا اتِّفاق على أيِّ سؤالٍ إضافي يُفسِد بذرة هذا اللقاء الوليد وهذا الودّ النامي. وَجَدا أنهما يتكلمان اللغة نفسها واللهجة نفسها، بل حتى الإيماءات تكاد تكون متطابِقة، وهذا كافٍ لبداية مُفرِحة.

طارت من السعادة في الأيام الأولى من زواجها من الضابط عمر، أو بالأصح "العميد عُمَر بَنهو" حسب رتبته العسكرية.

هنا فترة ضبابية لا نعرف عنها المُلابَسات النفسية لارتباطها به. هل كان الشكل أم المَنصِب أم الاثنان معًا؛ ما دفعها لقرارها؟ لا أحد يستطيع أن يَجزم. كلّ الأحداث كانت تؤكد أنها خُلِقَتْ لتكون لمينا، لكن الظاهر كان يوحي بانحراف هذا المَسار بسبب تاريخ ثقيل من الوَهم السينمائي.

في محل "اسكاف" Scaff للنظّارات بمصر الجديدة كان خطأ وضع نظارته على مظروف باسمها والعكس؛ سببًا في هذا اللقاء. أرسل مندوبًا عنه ليتسلمها، وحين عاد بها اكتشف أنها نظارة "حريمي". ذهب بنفسه للمحل، لا لتبديل النظارة؛ وإنَّما ليؤنِّب صاحبة المحل التي يعرفها منذ سنوات. صرامته كانت تجعله يتلذذ بخطأ أيّ شخصٍ ليقرِّع ويؤنِّب ويؤدِّب ويُعنِّف. كانت شُهدَة هناك بالصدفة لتتسلم نظارتها. اعتذروا لها عن الخطأ لاستبدال نظارتها مع عميل آخر. استأذنتْ كي تُغادر المحلّ !تعود في وقت لاحق.

في هذه اللحظة الدرامية الحاسمة، دخلَ سيادة العميد بملابسه المدنية التي لم تمنعْ عمّال وموظّفي المحل من إشهار رتبته بصوت مرتفع بحبِّه ويتلذذ به: "إهلًا أهلًا سيادة العميد.. نوَّرتِنا.. احنا آسفين جدًا عَ الخطا دا!" توقفتْ مندهشة خَجلانة من نظرتها التي التصقتْ بوجهه، وأذُنها التي سُحِرَتْ بصوته. نظرتها له أربكتْه أيضًا، كان

فيها ما لم يستطع تفسيره، لكنها نظرة روَّضتْ من وحشيَته التي أراد أن يبخَّها في المحل. وقف مبتسمًا وديعًا على غير عادة.

بدَّل موظَّفو المحلّ النظّارتَين واعتذرتْ صاحبة المحل اعتذارًا حارًا للاثنين، وقامت بنفسها بتلميع النظارتَين لهما من جديد. قبلا الاعتذار فورًا، بل ضَحِكا من الخطأ غير المقصود. تلكّأتْ عند الخروج متظاهرة بالنظر إلى موديلات النظارات، فأصبح خروجهما في لحظة واحدة. يبرع هو في ذوْق احترافي أصيل كـ"چنتلمان" بأنْ يفتح لها الباب ويدعَها تسبقه في الخروج. في الخارج قال لها بكل لطف إنه يرغب في دعوتها لقهوة في محل جروبّي القريب إنْ كانت لا تمانع.

تتهيَّب هي من مثل هذه الدعوات المتهوِّرة، وهو طوال عمره يترفَّع عن أن يقدِّم دعوة لامرأة بهذا النَّزَق. قَبِلَتْ الدعوة بالسكوت وهزَّتْ كتفيها بما يعني: لا مانع.

أخيرًا: عمر الشريف المُنتظَر!

هنا أيضًا صندوق أسود تُخفيه عنا شُهْدَة؛ فمن المفترَض أن يكون محل جروبّي مكانًا لا يمكن أن تتجاهله ذاكرتها. مكان للقاء أول لا يُنسى وللقاءات تعدَّدتْ فيه، ولِحُبّ هو الأعمق في تاريخها. لم تحافظ فيه على ذكرى الحُبّ الأمين وإنما اختارت الرجل الأمان.

عُمَر بَنْهو هو عمر الشريف المُنتظَر. وُلِد بالصعيد في قرية تابعة لمركز طهطا بمحافظة سوهاج. انتقل صغيرًا مع أبيه إلى مدينة الإسماعيلية ونشأ فيها، واشترى أبوه الحاجّ زهير مجموعة من الأراضي على الأطراف ناحية المنياوي وفايد، صَبَرَ عليها واستصلحها وصارت من أكبر عِزَب المانجو في القُطر، خصوصًا المانجو "العويسي" و"الفَصّ"، وهما أرقى وأفضل الأنواع التي تُزرع في أرض لها ملوحة نسبية تجعل طعم المانجو لا يضاهيه أيّ نوع آخر في العالم، كما أنه برع في تطعيم شجرات المانجو لديه لتُنتِج الواحدة ثلاثة

أنواع مختلفة من المانجو، وكان يتباهى كثيرًا بذلك.

أبو عمر لديه أصدقاء من المشاهير والأغنياء يزورونه ويصادقونه بسبب هواية جمعتهم وهي الصيد بكلِ أنواعه: الأسماك والحيوانات. لديــه العديد من بنادق الصيــد المُرَخصة لصيد الغــزلان والثعالب؛ خاصة الثعلب الأحمر والثعلب الأفغانــي وثعلب روبل؛ التي انقرضَ معظمُها.

أحضر الأب لعمر الصغير هَجْرسًــا وهو في الخامسة من عمره. ربّاه عمــر في فناء البيت في قفص، كان جروًا رشــيقًا ذا أذنين طويلتين وذيل طويل منفوش، لكن عمر كان يتمنى أن يأتي اليوم الذي يخرج فيه مع أبيه للصيد. عشِــقَ هذه المغامرات التــي يتنصّتُ عليها في الأماســي وهــم يتندَّرُون في حــوش البيت على مغامــرات صيدهم وطلقاتهم والفراء التي يبيعونها بأسعار خيالية.

ذاتَ صباح وعمر في سنّ الثامنة، يراقب المارّة من فوق سطحِ البيت الكبير. ذهبَ وســحبَ من فوق دولاب غرفة نوم والدَيه بندقيةَ صَيْدِ أبيه المُعَمَّرة، جرَّها بصعوبة وبدأ يُقلد ما يراه في الأفلامِ، ركَنَها على النافذة وصوّبها تجاه الخُضَري الواقف بعربته في الظِل يبيع للناس، كان يُصــدِر فرقعات بفمه كنايــة عن الطخ وخــروج الرَّصاصات: "بُم بُــم.. بُم بُم!" انطلقتْ رصاصة حقيقيــة كامنة حين ضغط بقوة على الزنــاد، لتصيب جبهةَ الخضري في مقتل، و"ابن الوِزّ عوّام"، الرَّصاصة أصابتْ وما خابتْ.

نُسِــجَتْ أقاويل كثيرة حول الحكاية، بأن الخضــري كان مفتونًا بأم عمر، وكان يتغــزّل في خضرواته بلُؤم كلّما مــرَّت من أمامه، وأنّ الرَّصاصة لم يُطلقها الطفل. لكن كلُّها إشــاعات مقاهٍ وثرثرات لحشو الوقــت. اضطرَ الطفل أن يذهب مرات مرعوبًا لأخذ أقواله في مركز البوليس، وبقي طوال فتراته المدرسية مُلَقَبًا بـ"القاتل" أو "المجرم" من قِبَلِ أقرانه. اعتــزل الأصدقاءَ والأقران والناس وانطوى وحيدًا.

رسـب مرَّتين في الثانوية العامة، ثم اجتازها بنسبة مُتَدَنِّية والتحق بالكليـة الحربية، كاد قبولُه أن يُرفَض في البداية، وكاد يرسـب في الامتحان النفسي بسبب تردُّده في الموافقة على رفع السلاح وإطلاق النار أثناء الإجابة على سـؤال نظري بهـذا الخصوص. لاحقًا نجح وترقى بعد أن كاد أيضًا أن يُفصَل بسبب تردُّده مرّة أخرى في البدايات في التصويب بالبندقية في التدريب العملي.
قَدَر سـيئ أن تُحِبّ أحدًا لا يحبُّك، أو أن يحبَّك أحد لا تُحبُّه، وأسـوأ الأقدار أن تتزوَّج من شـخص لا تحبُّـه ولا يحبُّك، فتنتظران معًا أن تُمهِّد العِشـرة لكما دربًا لاجتياز بقية الحياة بلا خسـائرَ في الرُّوح؛ فالقلب حين يخسـر قد يجرُّ الرُّوحَ ليعطبهـا على مَهلٍ لو لم ننتبه، وأتعسُ العاشقين هو العاشـق الذي يُجدول محبَّتَه وفقَ نظام جامد، هو عاشق لا يعرف معنى الدهشة، وأشقى العاشقين هو تلميذ الدرْس المُكَرَّر، التلميذ الحافظ المُرَدِّد!
حياتها مع عمر انطبق عليها هذا الوصف.

حين وصلت شُهْدَة للثالثة عشرة بَدَتْ أكبرَ من عمرها بثلاث سنوات على الأقل. فاتنة شابّة، تحس بالعيون تغزو حياءها فترتبك، هي في عُمْر لم يعرف التباهي بعد، إحسـاس مدغدغ يغمرها ويُحيِّرها. الأم كانـت مغتبطة بابنتها، فهي تُذكِّرها ببعض من صَبْـوَتِها وشـبابها. تشـعر بالعيون على ابنتها كما كانت عليها بل أكثر، الفارق أنها الآن تستعيذ بالله من حسـد الناس وعيْن الناس وكلام الناس. الأمّ نوال تتكوَّم الآن في الصالة أمام التليفزيون، ما إنْ تهربُ من قنوات عذاب القبر والنجاة من النار حتى تتورَّط في مشاهدة مسلسلات رديئة مُمِلّة وأفلام أكثر ركاكة وغثاثة. تحكـي لابنتها حكايات تبدو خيالية ومن زمن غير هذا الزمن، وكلّما رأت عمر الشـريف في التليفزيون تدمع عيْناها لذكرى بعيدة.
"إنتي أحلى مِ القمر!"

تحكي نوال أمّ شُهْدَة كيف التقاها عمر الشريف صدفة وهي في فندق فلسطين بالإسكندرية، كانت تفطر مع والديها ثم ارادت أن تصعد لغرفتها لتُحضر كتابًا. حين نزلتْ بالأسانسير نسيَتْ أن تضغط على زرّ الهبوط ووقفتْ تتأمّل شعرها في المرآة وتُسعِد كفّها وأصابعَها بالتمسيد في خُصلاته. استمعتْ إلى ضحكة تعرفها جيّدًا، كانت في السادسة عشرة قد اكتمَل حسنُها. التفتتْ ولم تصدّق نفسها، كان عمر الشريف واقفًا خلفها ومعه امرأة جذّابة. قال لها: "إنتي أحلَى م القمر!"، وجهُها احمَرّ واصفرّ. فتحَتْ فمها لتردّ فانحبَس صوتها.

كانت هذه نوال أمّ شُهْدَة في صباها.

كلّمها كلامًا كثيرًا حتى هبطوا للطابق الأرضي، ولمّا انتبهتْ مِن غفوتها، ذهب في اتجاه آخر مع المرأة، ركضتْ إليه وترجّته أن يوقّع لها على أيّ شيء، كان الكتاب في يدها، سألها عمّا تقرأ. مدّت يدها نحوه بالكتاب وتأمّلتْ وجهه عن قرب:

"في بيتنا رجُل.. الكتاب دا قُرَيّب جدًّا حَيكون فيلم!" قالها بتعجُّب، وتابَع:

"مَعقول؟! طيِّب إيه رأيك لو تِظهَري في مَشهَد مِن مشاهد الفيلم؟"

أمّنَتْ المرأةُ الجذّابة على كلامه وقالت:

"فعلًا، وِشِّك رَوْعة وقوامِك هايل!"

ظهر مساعد المخرج وكان يتابع الحوار من بعيد. سألها عمر عن اسمها فردّتْ بصوت فاتن جمامة:

"نوال"

(إلى أعذب نوال في مصر.. عمر الشريف.. إسكندرية ١٩٤٠)

وقّع عمر الشريف لها الكتاب بهذا الإهداء النادر. كلّ حين تستعيد

نوال الكتاب المحفوظ بين طيّات ملابسها في الدولاب، كأنه رسالة حبّ خالدة، يكاد الإهداء يختفي من كثرة ما حك إصبعها حبره.

وقفَتْ في ذاك اليوم مكانها كتمثال، مندهشة من قراءة الإهداء. سألها مساعدُ المخرج:

"عندِك كام سنة؟"

"ستاشر!"

"تحِبّي تقومي بدور صغيّر في فيلم (في بيتنا رجل)؟"

"آه.. لأ.. إزاي.. يا ريت؟!"

تلعثمَتْ وارتبكَتْ وفرحتْ. كان عمر الشريف قد ابتعد.

سار مساعد المُخرج معها بعد أن علم منها أن والديها في صالة الطعام، حيّا الوالديْن بلطف شديد وعرّفهما بنفسه، وقال مقصده بعد أن مدح جمال وحياء نوال باحترام كبير.

الأم زينات جدّة شهْدَة وافقتْ فورًا بدون تفكير، لم تُصدّق ما قاله مساعد المُخرج. الأبُ توجّس في الأمر وخاف على ابنته، أخذ البطاقة من يد المُساعد وهزّ رأسه بحركة مبهمة لم يُعرف منها إن كانت موافقة أم رفضًا. نوال الابنة غاصتْ في كرسيّها من الخجل والفرح والحرج وعدم التصديق. لم تتمكّن من استكمال فطورها. وجْه عمر الشريف ظهر في كل ما أمامها بصورة جعلتْ خُمرة وجهها مُلفتة، وهي تبدو في أوسم وجه حين يتلبّسها الحياء. أحضرتْ أمُها لها طعامًا لم تنتبه له ولم تأكله. شربَتْ فقط شايها ببطء. كانت أمُها ترمُقها بسعادة، وأبوها يُعاينها بعيْن فاحصة لابنة تُغادر الطفولة بسرعة شِهاب، وهي غائبة في شرود بالغ.

الأمُ والأبُ حَضَرا بروفات الفيلم والدّور البسيط جدًا الذي قامت به نوال.

رأت زبيدة ثروت عنٍ قُرب واستمعَتْ لصوتها الناعس الخلّاب. منذ هذا اليوم والكلّ يقول لها إنّ صوتها يُشبه صوت زبيدة ثروت تمامًا، فهل يا ترَى أثر فيها هذا الفيلم ليظلّ صوتها فيما بعد ممسوسًا بهمسات زبيدة ثروت، وهل اختفى منها صوت فاتن حمامة وتبدَّل بصوت زبيدة؟ الشواهد تقول إنه قد أصبح في جينات شُهْدَة شكل الأم وصوتها.

فهل أحبَّ العميد عُمَر بَنْهو شُهْدَة لأنَّها صورة من فاتن حمامة أمْ لنغمة صوتها التي صارت تُشبه صوت زبيدة ثروت؟

"إنتي لا بتِشْبِهي فاتن حمامة ولا صوتِك زيّ صوتْ زبيدة ثروت.. إنتي شُهْدَة.. شُهْدَة الأحلى من الاتنينْ.. صَدَّقيني؟"

قالها لها مينا بصدق.

لم تصدِّقه للأسف إلا بعد فوات الأوان.

8

ربَّما كنتُ في الســـابعة أو أكثر قليلًا. مـــا أذكره أنّني كنتُ قد وصلتُ للســـنّ التي كان بالإمكان أن أســـتحمّ فيها بمفردي، بدون مســـاعدة أمّ أو خالة أو جدّة أو حتى أخت كبرى. المـثير للغَرابة أن الذكور لا يقومون تقريبًا بهذه المســـاعدة إلا فيما ندر. كان شهر أغسطس وكنّا جميعًا -أفراد العائلة- نستمتع بأخذ "دُشّ" بارد منعش بعد قيلولة العصاري.

كـــان وقت قيلولة والكلّ في البيت نائم. هدوء لا يتخلّله ســـوى نُباح كلب طائش أو صياح بائع وَجَد ظلّا بالقرب ورَكَن ليســـتظِلّ ويســـتريح وينادي على بضاعته. غفوتُ قليلًا ثم قلقتُ بســـبب هذا الصهد البائخ والعَرَق اللزج. تخيَّلتُ نفســـي رغيفًا يتقبّب في فرن "حَنّا".

في فرن "حَنّا" كنتُ أستمتع بمراقبة عبده الفَرّان وهو يقبِضُ بيده قطعة في حجم كفّه من ماجور العجين ويضعها على الميزان ليتأكّد من وَزْنها الرسْمي، ثم يقطع مثلها مرات بسرعة عجيبة بحكم التعوُّد والخبرة -دون الحاجة لإعادة وَزْنها- ويرميها في طاولة الرصّ. بعد عشرين مرّة تقريبًا يعود لرَمْي قطعة جديدة على الميزان ليتأكّد أن تقدير يده لم يَخُنْه وأنه ما زال محتفظًا بحسِّه للوزن دون خَلَل. يرمي الكرات في طاولة الرصّ المنثور عليها نُخالةُ "الرَّدّة". حين تمتلئ الطاولة بكُرات العجين يلفّ للناحية الأخرى، ويضرب كرات العجين بكفّ يده ضربات ليُبَطِّطَها ثم يقلبها على الناحية الأخرى، ثم يطبطب عجينة الرغيف المغموس في الرَّدّة بين راحتيه ليفرده ويصُفّه في طاولة أخيرة. بعد ذلك ينتقل لقرب الفرن ويُرَحرِح رغيف الخبز بهزّات وخلخلة على مطْرحة حتى يتّسع، ثم يرصّ ثلاثة أو أربعة أرغفة على مَلْقَف من الخشب له ذراع طويلة ويدفعه لبطن الفرن.

بعد قليل تبدأ الأرغفة في الانتفاخ وتتلوّن ببُقَع بُنِّية أو سوداء، يقوم بسحبها بالمَلْقَفِ نفسه أو بواحد أعرضَ ويسحب الأرغفة ثلاثًا أو رُباعًا ليرميها في طاولة أخيرة.

تخيَّلتُ نفسي أتقبَّبُ من السخونة وتوهَّمتُ السرير هو بطن فرن "حَنّا"، وأنني هذا الرغيف الذي يَقِبّ. قمتُ من مكاني كالملسوع

وتوجَّهتُ للـــدُّش، خلعتُ الطقم الرياضي (أديـــداس) الذي أرتديه وفانلّتي الداخلية وســـروالي الداخلي. فتحـــتُ حنفية الدش ومددتُ يدي للماء المُنســـاب. كفّي تحت الماء تخبرني بحرارته أو برودته. ببطء مددتُ يدي حتى الكوع وأنا مُبتَهِج من سخونة المياه، جازَفتُ وأدخلتُ رأسي فصدر صوتي مُبتلًّا هزليًّا مُوَلْوِلًا، وأخيرًا غامرتُ بنَطّة قصيرة شـــجاعة تحـــت الدُّشّ ومعها علا صوت الشـــهقات المكتومة، لحظات واعتدتُ على حرارة الماء.

لا أدري ما الذي أنـــزَل عليَّ هذا الابتهاج الصاخِب. ربَّما كان السبب هو استمتاعي بالانفراد أو نَزْعة خَرْق قوانين هدوء القيلولة. وجدتُ نفسي أتقافز تحت الماء وأغنّي مَقطعًا من أغنية عبد الحليم حافظ (أهواكْ.. واتمنَّى لو أنســـاكْ.. وانســـى روحي ويّاكْ.. وانْ ضاعت يبقى فداكْ لو تنساني) كنتُ أطيل في كلمة (فداكْ) وأنطقها (فداااكْ) بتطويـــل ملحون مُمْتِع لي. أعجبنـــي التقافُز والغناء ثم اكتشفتُ أن قضيبي الصغير ينطّ معي ويتخبّط في أسفل بطني وبين وِركيّ ويُصْدِر صوت "تَكّات" مضحكة مثل جِلْد يضرِب في جِلْد. قضيبـــي الصغير انتصبَ قليلًا فأعجبتنـــي الحالة وبالأكثر صوت هذه "التَكّات". لم أتوقَّف عـــن الغناء والقفز والإنصات للأصوات والمعاينة والقهقهة.

فجـــأةً انفتَحَ باب الحمّام عليَّ ووجـــدتُ أختي الأكبر منّي تنظر

لـــي في اســـتغراب ولَوْم، لاقترافـــي جُرمَ الخـــروج عن الأحكام العرفية الصـارمـــة لوقت القيلولة، فتوقَّفتُ عن القفز، واســـتدرتُ مُحرَجًا بجنبي تلقائيًّا ولويتُ عنقي نحوها وأغلقت الدُّشّ، فَسَـــكَنَتْ كلّ الأصوات. ورغم أن فتحها للباب ونظرتها لي لم تســـتغرق إلّا ثوانيَ؛ لكن إحساســـي بعُريي مدَّد لي الزمن وغمرني بغيمةِ خجل طويلة بســـبب هذا المنتَصِب "الأبيح". كانـــت اللحظة الأولى في عمري التي أحسســـتُ فيها بخجل العُري. عضوي الضئيل الذي كانوا يمازحونني به ويســـمُّونه "حَمامة"، لـــم يعُد منذ تلك اللحظة هذه الحَمامة المستكينة، ربما صار غُرابًا أو صَقْرًا، لا أدري، لكنه بتغيُّره هذا لم يعد مُسَالِمًا على أيّ حال. توقَّفتُ وجفَّفتُ نفسي بعُجالة. أحسســـتُ بدفء الفوطة ودفء الجو. خرجتُ مغتمًّا بأفكار كثيرة ســـاذجة؛ أنّ أختي ســـوف تُبلغ العائلة بعُريي، والأنكَى بانتصابي المُشين، وسأكون بُهلولَ العائلة في الأيام القادمة أو أبَدَ الدهر.

أثناء العَشـــاءِ جلست مفعوصًا في نفسي كامِنًا كمَنْ عمل عَمْلة. لا أريـــد لعيْنيّ أن تقعا على عيْنيْ أحـــد. نظرتُ لأختي فقط نظرة اسْتِخْبَار واسْتِشْفَاف خَاطِفة، فابتسمَتْ ابتسامة عديمة اللون والطعم والرائحة، نظرتُ لأبي أسْتَشِفُّ أثرًا لوشاية بَلَغَته، لكنه كان مشغولًا بتذوُّق الطعام، وأمّي كانت تستقرئ استطعامَه ورضاه. انشغلوا في أحاديث المائدة اليومية: نميمة أمّي يُنصت لها أبي باستمتاع ماكر، ناظرًا للأكل مُظهِرًا خلاف ما يُبطن، وهو يتفوّه فقط بكلمات وجُمل

استنكاريةٍ كأنَّه يرفض الاسترسال في الحديث، بينما ردُّ فِعْلِه يَحُثّ أمّي على السرد التفصيلي لوقائع النميمة. شاركتُ بِصَمْتي وشبه ابتساماتي في مسرحية العَشَاء اليومية واسترحتُ بنجاتي، وبأنّ أختي لم تَشِ لهما بانتصاب الحَمامة.

منذ تلك الواقعة وقد ثبتتْ في ذهني فكرة مغلوطة، بأن المُتَلَبِّس عاريًا هو المُخطئ وليس من اقتحم خصوصيَّته. اعتبرتُ نفسي بعد حادثة "الدُّشّ" مُذْنِبًا بلا ذنب اقترفتُه، متصوِّرًا أنَّ المتلصِّص بيده قرينة فَضْح المُتَعَرِّي، وليس هو المفضوح بتلصُّصه.

أتذكَّر أحلامي بالتَّفْصيل. أحيانًا أتذكَّر الحُلم فور صحوي أو يطرأ حدَث عابر يُذكِّرني به، كأنه حصل فعلًا. بالأمس حلمتُ حُلما طويلًا؛

أنّ طنط جورجيت تزوَّجَتْ رجلًا عملاقًا ناصع البياض، كان اسمه صعبًا لا أتذكَّره ويتكلّم لغة لم أفهمها. قالت لي طنط جورجيت أنْ أذهب معه: "رُوح معاه يا ضَنايا.. ما تْخافشْ!" نطقتْ كلمة "ما تْخافشْ" بهذه اللهجة المحبَّبة لي. أطعتُها لأنّي أحبُّها وأعرف أنها لا تفعل شيئًا يؤذيني، ولأنها ألبَسَتْني ملابسَ أنيقة حاكَتها بنفسها. كنتُ صغيرًا في الحُلم ربّما في التاسعة. سِرْتُ مع الرجل الغريب العملاق الذي أقنعني بركوب مَرْكَب يُشبه المراكب المصرية القديمة على شكل

هـلال بمؤخّرة عاليـة. كان المَرْكَب يعلو ويهبـط في الماء بشكل مرعب والرجـل يتضاحـك، صرتُ أنـادي: "يا طنـط جورجيـت.. يا ماري جرجس.. يا عَـمّ يا شَجيع المُولِدْ!" رأيـتُ حصانًا في الفضاء ففرحتُ ظانًّا أن مار جرجس قد حضر، لكني وجدتُ أنّ الرجل الأبيض الطويل هو الـذي قفز على الحصان وامتطـاه، وتركني لأغـراب يُشْبِهونه في اللون الأبيض والطـول العملاق، كانت لغتهم غريبة مثل لغته. أخذوني إلى ما يُشبه القصر وألبَسوني ملابس عجيبة خضراء، وصار الناس يأتون ليتفرّجوا عليّ ويمسحون أكفَّهُم في يدي معتقدين أن لوني الخِنْطي يمكن أن يبهت في أيديهم.

بعد فترة في زمن الأحلام يصعُب عليّ تقديرها، أخذني رجل أكثر بياضًا وأطـول من سابِقه، أمسَك ذراعي وشدَّني معـه إلى ما يُشبه قصرًا بعيدًا في غابة. رائحة القصر كانت عتيقة خانقة. فرَّجَني عليه وعلى محتوياته، رأيـتُ مجموعة كبيرة مـن حيوانات محنَّطة شكلُهـا مُرْعِب. دخلتُ إلى غرفـة معتمة بها دواليب من الزجاج المُغْبَرّ. خلف هذه الدواليب رأيتُ ثلاثة أشخاص يُشبهونني في الملامح، نصفهم الأعلى عارٍ تمامًا. شعرتُ أنني هـذا الشخص في صور متعدِّدة. رجفة شديـدة هزَّتني لاعتقادي أنّ هـؤلاء الأشخاص أيضـا مُحَنَّطون مثل الطيـور والحيوانات المُحنَّطة الموجودة في بعض الدواليب الزجاجية التي مررتُ بها. من الانخضاض سقطـتُ على الأرض. تاهَـتْ مني تفاصيل كثـيرة ولم أتذكر من الحُلم سوى هذه النهاية. أظنّ أنّ شيئًا بَشِعًا مُريعًا قد حدث في الحُلم".

مرَّت سـنوات طويلة وخفَتَ من الذاكـرة بَريقُ مدن غارَتْ أو غابـتْ وحلَّ وهج مُدُن جديدة. سِـرتُ في الدنيا متحرِّرًا مكتشـفًا مغتبطًا بالاندهشات الجديدة، حتى تَسَمَّرتُ ذات يوم داخل متحف تاريخ الفنّ في ڤيينّا، حين ثبّتتني لوحة جَبّارة في حجم ضَخْم للرسّام الهولندي "رُوبِنْـز"؛ لوحة تحوي عُرْيًا مُفْرِطًا جعلني أشعر بضآلتي أمامها أو بالأصحّ تحتها، بل بسطوة ودهشة وعبقرية وفتنة وسحر وإغراء وإغواء الجسـد. وقفتُ أمامها طويلًا حتى شـعرتُ بألم ساخن في نهاية عمودي الفقري. رجعتُ بضع خطوات للوراء أمام اللوحة مباشرة لأسـتريح على كنبة جلدية وثيرة موضوعة لراحة الزُّوّار والمسنّين. بَحلَقَتي في هذا العُرْي العريض الطازج الفادح جعلتْنـي أنتبه لطول زمن تحديقي عن المعتـاد. خجلتُ وتحرَّكتُ مبتعدًا ببطء وفي عيْنيَّ عُـرْي عارم لم يغادرها.

للمرّة الأولى تداهمـني فكرة العَيْن والنظر وتطرح عليَّ سؤالًا: هل في العيْن شـهوة؟ أو بالأصحّ: هل في النظر شهوة؟ وهل هذا العُرْي الرهيب الماثِل في اللوحة بجلاء الجسد المنير يدفعني لشهوة أم لفِكْـر؟ وكيف ينظر هؤلاء الزوّار إلـى اللوحات، وكيف أنظر أنا؟

اكتشفتُ ذات يوم كَشْفًا طريفًا متكرِّرًا؛ ففي كلّ زيارة لمتحف أو معرض لوحات، وغالبًا ما كنتُ أزورها بصحبة نادين لمعلوماتها

الفنية الفَذّة، ما إنْ ندخُلْ إلى القاعة حتى أتَّجـه أنا للفُرجة من ناحيةِ اليمين وهي من جهة اليسار؛ فهل كان الأمر يتعلّق بتأثيرٍ ثقافي أو ديني تحديدًا؟ أهل اليمين وأهل الشِّـمال! وأن الشِّمال مَضَلّة، رغم كوني أشوَل.

يبدو أنّني تأثّرتُ بثقافتـي وتاريخي وعادات أهلي وتقاليدِهم، وحملتُها في جيناتي نظريًا وسـلوكيًا لتخرج منّي بعفوية لا مَهرَب منها. ظللتُ لوقـت طويل أنتبه إلى أنني أدخـل تلقائيًا لأيّ مكان من جهة اليمين وبقدمي اليُمْنَى، وأسـمح لمن على يميني بالدخول قبلي، وأسـلِّم على الناس من اليمين، راميًا بإتيكيت النّمساويين في الوحل، فلـم أنجح في تعلُّم البدء بمصافحة المـرأة قبل الرجل أو مصافحـة الأكبر سـنًّا أوّلًا، كما هو العُـرْفُ والذوق والأدب هنا في النّمسـا. كان اليمين دائمًا لي هو الحلّ الأكثر يُسْرًا والمَجْبُول في تصرُّفاتي العفوية، بل الأغرب من ذلك، اكتشـفتُ أنّني أتأمَّل كلّ اللوحـات الفنية أو المُلْصَقات الإعلانية -خصوصًا ذات الحجم الضخم- من اليمين إلى اليسـار، كأنّ اللوحـة لغة أقرأها بعربيّتي ولستُ أشاهدها.

أنا أعسَـرُ، وقد أصابني هذا الخَلْق الطبيعي، أو من المفترض أنه طبيعي، بتوبيخـات ومُضايَقات مُجْحِفة طوال حياتي. كان أبي مقتنعًـا قناعة صارمة صادمة أنّ هذا الخلل في اسـتعمالي لِيَدي

اليُسْرى سيجعلني في زُمْرة الشيطان وقد يدفعني لطريق الإجرام، وأنني في حاجة لإعادة تربية وتأهيل. استشــار طبيبًا متخصِّصًا، فذكــر له أنَّـها فِطــرة لا غُبارَ عليها، بل إن أغلــب أصحاب اليد اليســرى من النابغيــن، وذكَرَ لــه شـــخصيّات تاريخية وأخرى معاصِرة، تســتعمل يدها اليســرى؛ مثل عمر بن الخطاب وهتلر وغاندي ونابليون وموتسارت وبيكاسو ونيوتن وبيتهوفن وتشارلي تشابلن وحتى أســامة بن لادن. يوم أن سمع أبي بكلّ هذه الأسماء عاد منتشيًا وقد عرف أن كلّ هؤلاء العُسْران نوابغ، فتحوَّل الحال إلى أسوأ من ذي قبل؛ إلى أمنية لأبي: أن أكون نابغة، وأن أخوض كلّ دُروب النُّبَغاء، حتى تســتجيب موهبتي لواحدة منها؛ فأهلَكَني بقراءات صعبة وألْزَمَني بدروس إضافية في الرياضيات والفيزياء ثم في عزف موسيقى على كلّ الآلات الممكنة، وأخيرًا في ممارسة رياضات مُرهِقة أمقتُها، حتى أدركتُ عن حقّ لماذا يتلبَّس الشيطانُ أصحابَ اليد اليســرى. الغريب في الأمر أنه لم يفكِّر مرّة أن يعهَدَ بي لدروس في الرسم!

الآن؛ وهنا ومع تذكُّري لليد اليســرى؛ تستجلب مُخيِّلَتي ذكرى بعيدة، وأنا أرى لوحة ضخمة مكتوبًا عليها: (إغواءُ الشيطانِ لِحَوّاءَ)، وكأنَّ التداعي قد حضر مازجًا يدي اليسرى مع الشيطان:

"الشِّيطان بيِلْعَبْ مِعاهْ!"

قالهــا صديقي إيهاب، حين فَلَقَتْ نَحلَتي نَحلَتَه وشـــطرتْـها إلى نصفيْن. صدرَتْ من الأقران آهات الإعجاب لي والتهكُّم على نحلته المسكينة؛ فهذا الحدَثُ نراه مرّة واحدة في العمر أو لا نراه، ويظلُّ الواحدُ مِنّا مميَّزًا ببهجة هذا الانتصار مدى الحياة، مُرَسِّخًا لها بكلِّ فخر في أوّل ســطر من أوّل ســيرة ذاتية شفوية له: "فَلْقُ نَحلة" يا له من مَجْد! أغلب نحلاتنا عليها آثار نقرات من ســنوات الضرب، نَعُدُّها لنستكشــف الضربات التي حصلَتْ طوال اليوم أو الأسبوع ونستطيع أن نميِّز تاريخ كلِّ خدشة بل وصاحب النحلة. إيهاب من غَيْظِه منّي أثار بهذه الجملة بعضَ التوجُّس بين الأقران: "الشِّيطانْ بِيِلْعَبْ مِعاهْ!"

كنتُ الوحيدَ الذي يلفُّ خيط النحلة عكسهم جميعًا، بيدي اليسرى وعكس اتجاه الســاعة. وأزِنُــها في الأرض بعكس طريقتهم. تلفُّ نَحلَتي عكــس اتجاهات كلِّ نحلاتهم؛ عكس اتجاه الســاعة. جملة (الشِّــيطان بِيِلْعَبْ مِعاهْ) التي أطلقها إيهــاب أثارتْ البلبلة في تلك اللحظة وشــوَّهتْ فرحي، وربما نسي الجميع قوله هذا، أما أنا ففي سريري؛ ليلًا؛ وحيدًا، استعدتُ "مجد الفَلْق العظيم" مشوبًا بالحزن والاكتئاب، ولم يتمكّن ذهني الصغير من تفسيره أو مَحوِه.

دُرْتُ دورة في القاعة وعُدتُ لأجلس على الكنبة الجلدية الوثيرة

أمام لوحة "رُوبِنْـز"، أتأمَّـلها من اليمين لليسار، قلتُ لنفسي لأجرِّبْ تأمُّلها مرّة من اليسار إلى اليمين، ربَّما أكتشف جديدًا!

في اللوحة تظهر الفاتنة الشقراء العارية في امتلاء شهواني آسِر -من وجهة نظر عيْني الشـــرقية الأصيلة- ناظرة للفضاء، والرجل المُسِـــنّ مجنّح بجناح غامـــق مُرْعِب، يحملها طائـــرًا في الفضاء وناظرًا لـــلأرض. أربعة ملائكة صغار يلهون في أســـفل اللوحة سابحين أيضًا في الفضاء. بهرَتْني اللوحة بِعُرْي تلك الفاتنة وبِفَيْض الفـنّ المحترف. وددتُ لو أقرأ أفكـــار كلّ هؤلاء الزوّار المُتَأمِّلين والمُتَأمِّلات لِلَّوحة، وتمنَّيتُ لو أقرأ مَسار عيونهنّ وعيونهم وأُثبِتُ لنفسي نظرية جديدة في (اتّجاه التأمُّل) أو في (وِجْهة العيْن).

قمتُ لأقرأ عنوان اللوحة: (بورياس ريح الشمال يخطف أوريثيا ابنة الملك إرخثيوس الأثيني). اللوحة مرســـومة قبل قرنين تقريبًا للرسّام الهولندي الشهير "پاول پيتَر رُوبِنْـز".

اكتفيتُ بالمعلومة وكتبتُها في دفتري الصغير ناويًا أن أُفتِّش عن حكاية الصورة لاحقًا وبهدوء.

عدتُ جالسًا على الطرف الأيسر من الكنبة نفسها أتأمّل اللوحة حتى غِبْتُ فيها وأنا أراجع فلسفة العيْن والشهوة والتَّفكير. تُرى هل

يـــرى الناس هنا غير ما أرى؟ ما أراه أترجمه عبر قاموس حياتي وخبراتي السابقة. فهل أستطيع عبْر الفنّ أن أحصل على لغة أخرى في قاموسي أو على معانٍ جديدة؟ هل من الحكمة أن أُعيد الترجمة، أو على الأقلّ أنْ أتشـــكّك فيها؟ أتيتُ من بـــلاد مُحَمَّلة بألف عيب للعُرْي، مَوْشُـــومة بحتْمية الخِباء والحجاب والغطاء لكلّ أنثى. لكنَّ هذا الفنَّ لا يُقدِّم صورة الشـــهوانية الماجِنة الهابطة على إطلاقـها؛ إنَّما ينزع حقيقة البصر نحو البصيرة. لا يقف على الخارج والهامش والسطحي ولا على الإباحية والبذاءة، وأنا بالتأكيد في حاجة لثورة عيْن مُجَدِّدة. من يدري، فربّما العيْن الغربية قد قطعَتْ طريقًا طويلًا حتى تخلّصتْ هي أيضًا من موروثـها القديم، الذي ربّما كان يشبه طريق نظرتـنا في زمننا الحالي. أظنُّني في أوّل الدرس، ومســـتعدّ للغَوْص في البحث حتى نهايته، بل أنا نفسي قد أصبحتُ جزءًا من هذا البحث، جزءًا من تلك الحقيقة العارية.

تحت حُـمَّـــى المعرفة صمَّمْتُ على الذهاب للمكتبة الوطنية في اليوم التالـــي. بحثْتُ عن معلومات عن هذه الميثولوجيا مســـتعينًا بإنسكلوبيديا الميثولوجيات الإغريقية، وبقاموس "جوتْس شريجله" لترجمة الكلمات من الألمانية للعربية، وجدتُ الأســـطورة اليونانية التي تحكـــي عن أنّ "بورياس" إلَه الريح الشـــمالية قد قام بخطف الحوريّة "أوريثيا" ابنة "إرختيوس" ملك "أتيكا" وهي ترقص على ضفاف نـهر "اليســـوس". لفّها في سحابة وعلا بها حتى وصل إلى

موطنه "تراقيا" حيث أنجبَتْ له ولدَيْن؛ هما "كالاييس" و"زيتيس"، وبنتَيْن؛ هما "كليوباترا" و"خيونه" كما أنجبَتْ له حصانًا أنجب اثني عشر مُهْرًا.

وفي كتاب مُصَوَّر حمل عنوان (رُوبِنْز ونساؤه) للوحات رُوبِنْز، كُتِب أن اللوحة التي رأيتُها في المتحف تحكي عن أسطورة حُبِّ بورياس إلَه الريح الشمالية الجليدية لأوريثيا ابنة الملك إرخثيوس الأثيني، ولأن حُبَّه لهذه الشابّة الفاتنة كان ميؤوسًا منه؛ فقد انتزعها بالقوّة وفاز بقلبها في النهاية، فأنجبَتْ له أربعةَ أطفال مختلفين مثل تبايُنِ الطبيعة وفصول العام، ويظهر بورياس في اللوحة كَرَجُل مُسِنّ مُجَنَّح، بشَعر أبيض، وتظهر هي في جسد فاتن لشابّة، بكلّ انحناءاته الأنثوية المُغْوِيَة، ويتناقض إشراقها وشُقْرَتُها مع حلول الظلام الدامس فوق رأسها. اللوحة تمثِّل قِمّة الإثارة في لحظة الخَطْف، وديناميكية الصورة وصلتْ لأقصى مداها في هذا الثنائي السّابح في الفضاء.

الأسماء والأماكن كانت كثيرة وغريبة عليَّ؛ قرَّرتُ التروّي والبحث وألّا أقفز على الأسماء والأماكن أو آخذ سطح المعلومة فقط.

رُوبِنْز قدَّم لي الحلَّ الأوَّل ببساطة عن (نِعْمَةِ العُرْي) وأضاف لي مجموعة من الأسئلة الأعمق وساظلُّ مَدِينًا له بذلك. أدخلني

من بوّابة واسعة لأرى أكثر، ثم اشْـرَعَ لي كلّ الأبواب في الداخل، وكأنـــه قال: "أمامك الدنيا على مداها؛ فســـافِرْ في جَمالها قدْرَ ما تستطيع، وغُصْ في عُرْيِكَ أنتَ حتى تعرف نفسك!".

هل قدَري أن أتحرَّر أيضًا من خِباءات العقل؟ هل هناك كشـفٌ قادم؟ أم أنني أفقد شيئًا ما بالتدريج ولا أنتبه له؟

وقعتُ تحت سحر رُوبِنْـز، صرتُ أبحث عن بقية لوحاته وعن كلّ لوحات العُرْي الفني البديـــع لآخرين. كانت اللوحة الثانية هي لوحة "خطف بنـــات لويكيبوس"؛ "هيلايـــرا" و"فوبي"، من قِبَل الأخوين "كاستور" و"بولوكس". الفتاتان أيضًا مخطوفتان وعاريتان تستغيثان. ظللتُ أفكِّر في فلسفة خَطْف الجمال واغتصابه وإجباره. وهـــل على الجمال أن يكون عاريًا كي يُخطَفَ، أو أنّ العُرْي ربّما هو سبب الخَطْفِ؟ وهل الإخفاء الذي في تراثي وعاداتي وتقاليدي يمنع خطف الجمال؟ هل الخَطْف هنا هو فكرة ميتافيزيقية لا تعني الخطف المادي، بل الفوز بالجمال؛ لما له من سطوة أعلى؟

صـــرتُ أحلم كلّ ليلة ولأيـــام طويلة أنني أخْطِف حســـناوات نمســـاويات عاريات من على ضفاف الدانـــوب، أهرب بهنّ دائمًا نحو الجنوب. مرّة أخطأتُ واعتقدتُ أن نهر الدانوب هو نهر النيل، فَطِرْتُ بفاتنة تشـــبه نادين، كانت عارِية وأنا ملفوف بإزار كما في

اللوحــات، ولي جناحان عملاقان في لـــون الحِنّاء، لكنّني لم أصِلْ لسان رأس البَرّ عند البحر الأبيض؛ بل وصلتُ حتى "سولينا" على البحر الأســود عند مصبّ نهر الدانوب. لم أجد هناك أيّ بَشَر، بل وجدتُ مقبرة ضخمة تحتلّ معظم الشــاطئ، عليها صُلبان حجرية ضخمة ولغة لاتينية على شـــواهد القبور، أردتُ من مخطوفَتي أن تترجمها لي، لكنني كنتُ قد عَصَبتُ عيْنيها حتى لا تجفُل من العُلُوّ والمسافة. حين رفعتُ عنها العِصاب، لم يكن لها عيْنان.

بحثتُ لزمن عن لوحة "ڤينوس وأدونيس" التي أعرف حكايتها نظريًّا، لكن الصور المتاحة لهما كانت في طبعات رديئة ومحوَّرة، وفي أحجام صغيرة ومعظمها تخطيطات ركيكة بالأبيض والأسود، إلـــى أن وقعتْ عيْناي ذات يوم على صاحِبَيْ الأســطورة. صورة أدونيس الأسطوري كأوْسَم رجُل في العالم والمُغْرَم بالصيد والذي وقعتْ في غرامه ڤينوس إلَهة الحبِّ والجمال، والتي صارت مُتيَّمة به بعد أن أطلــق ابنُها (كيوپيد Cupido) ســهمَه نحوها. فارتدَتْ ڤينوس ملابس "ديانا" إلَـهة الصيــد وأصبحَتْ ترافقه، حذَّرتْهُ من الوحوش الضارية لكنه كان شــجاعًا أو متهــوِّرًا؛ فغامَر، إلى أن نهشــه خنزير بَرِّي وقتله، فحوّلَتْ ڤينوس دَمَــهُ إلى وردة حمراء بلون هذا الدم.

ڤينــوس وأدونيس في اللوحتيْن عاريان، في واحدة تتشــبَّث به وهو ممسك بِرُمْحِه مســتعدًّا للذهاب إلى الصيد والطفل يتابعهما، وفي الأخرى يمســكه الطفل كيوپيد من فخذه وهــي متعلِّقة بكتفه تحاول منعَه من الذهاب. يا لـه من إبداع مُبْهِر ســاحر في تفاصيل الجسد وقوته وعنفوانه!

أحلامي تتكرّر مرّات مع شخصيات اللوحات: ڤينوس وأدونيس وبوريــاس وأوريثيا وكليوباترا وخيونــه وهيلايرا وفوبي، تنضمُّ إليهم شُهْدَة وأحيانًا مَليحة، نجلس معًا عرايا دون أدنى خجل. كانت هذه الأحلام بمثابة علاج لي غيــر مقصود لتحمُّل العُرْي الحقيقي داخل قاعات الرسم في النهارات التالية.

وقَعــتُ على لوحات كثيرة بأحجام ضخمة، جعلتني في كلّ مرّة أتوقَّف وأتأمَّل هذه الأجســام الباذخة بالعنفوان والحيوية وكلّ هذه الشــفافية الملهِمة التي أبدعتها أنامل هؤلاء الفنانين؛ إلى أن وقفتُ ذات يوم عند لوحة مُلغَّزَة ومُلفِتة، وربَّما صادمة، فاللوحة الغامضة لنســاء كثيرات يرفعن تنانيرَهُــنَّ وجلابيبَهُــنَّ لأعلى حتى تظهر فروجهنَّ وسُــرَرُهُنَّ وبطونُــهنَّ عارية، أمامهنَّ جيش من الفرسان مُرتَبِــك، يغطي البعض منهم عيونهم حتى لا يَــرَوْا عُرْيَ النســاء المُبْتَذَل. تأمَّلتُ اللوحة لِأزْيَدَ من نصف ساعة. عُدتُ إليها مقتربًا مبتعدًا مرتبكًا مجذوبًا مأسورًا حائِرًا.

لـــم انم في تلـــك الليلة وأنا أحاول أن أعثر على أيّ تفســـير أو تأويـــل لفكرة اللوحة أو حكايتها المبهَمة. ظننتُ في البداية أن هناك مغزًى ما في هذا التصرُّف، وبأن تفريج النســـاء فروجَهُنَّ للفرسان فيه شـــيءٌ من نَحس، أو تَنَبُّؤ بهزيمة. ظلّت هـــذه الصورة تتقلَّبُ فـــي مُخَيِّلتي باحثـــة عن تأويل، وغدْتُ أفكّر في أن تكون النســـاء هُنَّ زوجات هؤلاء الرجال الذاهبيـــن للحرب، وأنَّهنَّ يحتَجِجنَ أو يَرْفُضْنَ ابتعادهم عَنْهُنَّ، ويطْلُبْنَ منهم البقاء بطريقة مُغْوِيَة، وأنَّهُنَّ مُسْتَعِدّات لأن يُقَدِّمْن لهم لذّة الحياة واستمرارها. فَسَّرْتُ على هواي تفســـيرات عديدة لم تُوصِلْني واحدة منها لِبَرٍّ هادِئ، وكان عليَّ أن أبحث عن أيّ معلومة عن هذه اللوحة. أخذتني الأيام والوقت وحتى يومنـــا هذا لم أحـــلّ هذا اللغز، ولم أجد له تفســـيرًا مُقْنِعًا، ثَبَتُّ في ذاكرتي تأويلًا غريبًا احتفظتُ به شـــاكًّا في صحَّته، فربما يفتح لي دَرْبًا لأسئلة مُلْهِمة مع الزمن. مَنْ يدري!

على غير عادة تركتُ فضيلةَ البحث في مراجع إلى فضيلة إعمال الذهن والتَّساؤل. لم أبحث عن تفاصيل (العاريات والفرسان)، هكذا سَـــمَّيتُ اللوحة الغامضة. قد أكون أنا نفسي مستعدًّا للتجريب ذات يوم وأضع جســـمي عاريًا بكامل إرادتي وسط جيش من العراة، أو قـــد أكون قد أُجْبِرْتُ عُنْوة فـــي اليقظة أن أكون عاريًا حتى أعرف مَنْ أنا، أو أنْ أعرف مَنْ هُمْ!

9

في كلّ مرّة أدخل فيها قاعة الرسْم أشعر بتلك الرِّعشة الكامنة في أعماقي تنضح من مسامي، إن غاب الخجل لحظة حضر الارتباك لحظات. أُبطِئ وأنا أسير نحو القاعة كثور مُساقٍ لسلخانة، إلى أن أشعر برَتْل العيون يلسعني؛ فأُسرِع.

نفّــذتُ كلّ الأوضاع المطلوبة وكرَّرتها بحِرفِيّة وصبر، بعد أن بدأتُ أستعين بحيلة تخفِّف وَطْءَ عيونــهم وتصلُّب جسمي: أستجلبُ الذاكرة وأستحلبُ أحلام اليقظة.

وقّعتُ عقــدًا مؤقّتًا مع أكاديمية الفنون، لــم أقرأ بنوده الكثيرة والمطبوعـــة بخطّ مُنَمْنَم ككلّ العقود، وبلغة ألمانية قانونية مُتقعِّرة.

وقَعتُ وانتهيتُ من الأمر. كانوا يدفعون لي أعلى ســعر باعتباري موديلًا نادرًا؛ لونًا وجســمًا، لكنّي لم أقدر علــى التصَنُّم أزْيَدَ من ثلاث ســاعات في اليوم بإجمالي ســتّ وحدات، كلّ وحدة مدَّتـها نصف ساعة، أعود ليلًا مُتَهالِكًا كأنني كنتُ أركضُ في ماراثون.

أصبحــتُ أيضًا موديلًا فنيًا لبعــضِ المدارس الأهلية العليا إلى جانب أكاديمية الفنون. نادرًا ما وقفتُ كموديل بملابسـي وهذا يمنح أقلّ عائد. عُرِضَتْ عليَّ عروض إضافية كثيرة كتلوين الجســم أو كأداء تمثيلــي في عرض غير فنّي أو تقديــم رقصات غرائبية أو عروض للوقوف في معارض تجارية شــبهَ عــارٍ أو في حفلات خاصــة، إلى آخر هذه التنويعات التــي انحرفَتْ من وجهة نظري عمّا أراه فنًا. رفضــتُ كلّ ما ليس له علاقة بوجودي كموديل في معاهد فنّية متخصّصة. كانت نادين هي الرُّوح الحساســة التي تجد لي دائمًا فرص عمل إضافية في أمكنة قريبة داخل ڤيينا، أو تطلب منهم تحمُّل تكلفــة المواصلات وتعويض الوقت إن كان العمل في الضواحي.

عمل الموديل شــاقّ وجادّ؛ خاصة لنا نحن الذكور. مطلوب منّا القدرة التامّة على التحكُّم في ســلوكنا الجنســي؛ بمعنى أن يكون لدينا القدرة على التخلُّص من أيّ نوع من الأفكار الجنســية سواءً إيماءات أو إشــارات أو تلميحات أو أيّ انفعالات جسمانية، وفوق

ذلـك؛ علينا الالتزام بالمواظبة والانضباط. كلّ هذا كان مكتوبًا في العقد المُنَمْنَم الذي وقّعتُ عليه، لكني نفَّذتُ تلك الشـــروط بالسليقة، فالغريب أن الأفكار الجنســية والانفعالات الجسمانية تنتاب الرجل وهو متخفٍّ في ملابســه أكثر من كـونه عاريًا. تَـناسُـــب عكسـي فريد يحتاج لدراسة وتأمُّل.

كنــتُ قد عملتُ لأيام متواصلة وجســمي منهوكٌ يحتاج لراحة التَّدثُّر، فراحته تأتي من حَجْب عُرْيِه؛ عندما تقف عيون الناس عند حدود الملابس ولا تتجاوزها إلى أبعد من ذلك. كنتُ أشعر بتلاشي الإجهاد بمجرد ارتداء ملابسي. أحسستُ برُوحي تحلِّق وأنا جالس في كافتيريا المعهد أشرب قهوتي في هدوء. عشرات العيون المارّة بي بابتسام؛ بألَق؛ بمكر؛ برغبة؛ بلا مبالاة، بلا معنى، أتلقّاها دون أن أشعر مرّة باجتياحهم لخصوصيَّتي أو الشروع في الجلوس على طاولتي دون إذن.

الليلة هي الجمعة وقد بدأتْ نهايةُ الأســبوع، وعندي لقاء أحبُّه: "كاتيا".

كاتيا صديقتي مجنونة جنونًا أعشقه. أراها أكثر صِدْقًا من معظم العاقلات المتأنِّقات. قبل أســبوع دعتني لنشاهد مساء الجمعة فيلم (الخطيئة الأصلية) في ســينما أبوللو في الحيّ السادس. هذا الفيلم الذي أثار ضجّة بســبب تعدُّد مشــاهده العارية بين أنجلينا جولي

وانطونيو بانديراس، وهو فيلم من طراز الأفلام الدرامية للجريمة والإثارة.

خرجنا من السـينما في يوم جمعة يحلو فيه السهر في المدينة، وخاصّـة في المقاهي والبارات السـاهرة حتـى الفجر في الحيَّيْن السـادس والسابع. كنتُ قد شـاهدتُ في النّمسـا أفلامًا كثيرة في التليفزيـون كالتي نطلق عليها في بلادنا أفلام الكبار، دون أيّ قيود سـوى جملة التّنبيه المكتوبة قبل عرض الفيلم بحَظْر عرضِه على القاصرين حسـب معايير الفيلم: دون سـنّ الثانية عشرة أو دون السادسة عشرة أو دون الثامنة عشـرة، باعتبارها أفلامًا تحتوي على مشاهد أو ألفاظ غير مناسبة، ولا تتعلّق فقط بالمشاهد الجنسية، بل يندرج تحت ذلك المشـاهد المحرّضة علـى العنف أو القتل أو تعاطـي المخدّرات، أو مناظر الحـروب الدموية، وأحيانًا الرعب المُبالَغ فيه، إضافة للأفكار الشـاذّة نفسـيًا وعصبيًا، ومن الطبيعي أن يتحايـل كثير من المراهقين والمراهقات لرؤية كلّ شـيء، بل وتجريب الكثير من هذا الممنوع؛ لكن سرًّا.

"أول فيلم ممنوع شـاهدتُه مع أصدقائي أيـام شبابـنا المبكّر في مصـر كان للكبار فوق سنّ 18 سنة. كنتُ في السابعة عشرة. جملة (للكبار فقط) كانت مكتوبة بخطّ واضح على "الأفيش" الضخم الذي

يستعرض جبهة السينما. وحدها هذه الجملة كانت جاذبة للكبار قبل الصغار!"

بادرت بسَـــرْد هذه الحكاية القديمة لكاتيا، ولمّا كنتُ اتوقّع كلّ الأسئلة التي ستطرحها، فقد تابعتُ من تلقاء نفسي:

"كنّـــا مجموعة من أربعة أصدقاء في العمر نفســـه، تفرِق بيننا بضعة أشـــهر. قـرَّرنا أن ندخل هذا الفيلم مهما كلّفنا الأمر. خطّطنا بخباثة وقرَّرنا الاستعانة بصديق كان قد بلغ قبلنا "وخَنْشَر" وتضخَّم جسمه وتشَعَّر واخشَوْشَن صوتُه. من يراه يعتقد أنه فوق العشرين. بقينا أسبوعَيْن نربّي لِحانا وشواربِنـا الجرداء، ونتدرّب أمام المرايا علـــى وجوه متجهِّمة وعلى أصوات جشّـــة؛ كلّ هـــذا من أجل أن نفوز بأربع تذاكر سينما في فيلم للكبار كان اسمه (غريزة أساسية Basic Instinct).

قهقهَتْ كاتيا وامتدَّتْ بســمتُها وزاد وســع عيْنيها الواســعتَيْن بطبيعتهما، فأكملتُ:

"قاطِـــعُ التذاكر حَدَجَنا بنظرات فاحصة ونحن نرســم وجوهًا عابســـة بأقصى ما في وُسْعِنا. يتقدَّمنا صديقُنا الضخم البالغ، بينما وقفنا وراءه ندَّعي اللامبالاة ونتجادل بأصوات جشّة ونسُبُّ بعضنا سبابًا خارجًا من عيار شتائم "الصِّيَّع" والأوباش إلكبار لنغلِق على الرجـل باب الارتياب. وأخيرًا اســتطعنا الفــوز بتذاكر (الغريزة الأساسية)".

وصلنا إلى مطعم ومقهى هادئ نسبيًّا في الحيّ السابع، مطبخه مفتوح حتى منتصف الليل، ويستمرّ في تقديم المشروبات لِما بعد الثانية صباحًا. كان وسع عيْنيها يطالبني باستكمال الغريزة الأساسية:

"دخلنا الفيلم الذي كانت مدّته حوالي ساعة ونصف، لنشاهد فيلمًا مَقصوصًا من الرقابة لم يستغرق أكثر من ثلث الساعة، لم نفهم أيّ شيء من الفيلم، ولم يكن هناك أيّ مشهد خارج أو (للكبار). ربما بضع ثوانٍ لامرأة تستحمّ تحت دُشّ خلف زجاج مُغَبَّش بالبخار، فلا ترين يا كاتيا سوى ظلال شبحية عليكِ أن تستكمليها بنفسكِ حسب براعة خيالك!"

"لكن هذا خداع! وأنتم دفعتم ثمن تذكرة الفيلم!" قالت باستنكار.

"هم يعرضون غالبًا فيلمًا آخر معه، فيلمًا غير ممنوع، ويكون العرض مستمرًّا!"

طال حديثنا وامتدّ إلى الفيلم الذي شاهدناه، ثم عن السّينما والفنّ والإباحية والعُرْي وانضمّ إلينا "يوناس" و"لارا" و"فلوريان" و"لويزا" وتسرُّب الحديث إلى عملي كموديل، سألتني كاتيا بجنونها العفوي المعتاد عن إحساس العُرْي أمام الناس. قلتُ لها: "أعتقد

أنّ إحساســي مرتبك لأنّني وسط كاسيات وكاسِـــين وأنا العاري الوحيد." وتابعت في ضحك: "ربما لو كان من يرســـمونني عرايا مثلي لشـــعرتُ بألفة واعتياد في الأمر! وأظنُّ أن الإحساس بالعُرْي مثلًا ينتفي حين يتشـــابه الكلّ في الرداء أو اللّا رداء؛ ففي شواطئ العُـــراة أتخيّل أنّ الأمر عادي على المُرْتادين، ثم لا أتصوّر أيضًا أن أحدًا هناك سَيَبُحلِقُ في جسم عارٍ أمامه؛ وإلا فسيعتبره الآخرون شاذًا."

وجدتُ نفسي مُسترسِلًا في استفسار عفوي عن شواطئ الجسم المُتَحَـــرِّر التي يُطلَق عليها اســـم FKK (*)، التي يرتادها الراغبون والراغبـــات في التخفُّف من وَطْأة التَّدَثُّـــر: "هل جرَّب أحدُكم مرّة الذهابَ إلى شـــواطئ الجســـم المُتَحَرِّر؟". "ذهبنا مرّة منذ عامين تقريبًا على ســـبيل التجربة، وكان شعورًا غريبًا، لكنه شيِّق!" قالت لويزا وهي تنظر لفلوريان الذي وافقها ببســـاطة بـهزِّ رأسـه وهو يهرِس كعادته عُقْبَ ســـيجارته في الطفّاية كمن ينتقم من حشـــرة مزعجة.

"ألم تُجَرِّب يومًا أن تكون على أحد شواطئ الجسم المُتَحَرِّر؟"، سألتني كاتيا فقلتُ:

"لا، أبدًا!"

(*) شواطئ الجسم المُتَحَرِّر، ويُطْلَقُ عليها اسمُ FKK (Freie Körper Kultur)

"ولا في ساونا مشتركة؟"

"ولا حتى في ساونا منفصلة!"

تغيَّر الحديث لندخل في قضايا سياسـية واجتماعية، ففي ذاك الوقت اشتعلتْ قضية الطائرات الأوروبية المقاتلة (أويرو فايتَر)، والرشاوى التي وصلتْ إلى مائة مليون يورو، لشراء بضع طائرات من هذا النوع المحدود المعروف باسـم (تايفـون) للقوّات الجوية النّمسـاوية بقيمـة اقتربت من مليارَيْ يورو، ثـم انتقل الكلام إلى موضوع الأب النّمساوي الذي اغتصب ابنته لمدّة أربعة وعشرين عامًا، وحبَسها في قَبْو تحت البيت، وجعل جدرانه عازلة للصَّوت، ثم قام بمعاشـرتها وأنجب منها سـبعة أطفال، منهم توأم تُوُفِّيا بعد ثلاثة أيام من ولادتهما، وقد تخلَّص الأب من جُثَّتَيْ الطفلَيْن بإلقائهما في محرقة للقمامة، واعترف بأنَّه سـاعد ابنتـه في توليدها جميع الأطفال.

تحوَّل الكلام إلى "ناتاشا كامبوش"؛ تلك الصَّبيّة النّمساوية التي خُطِفَتْ وهي في العاشرة وحُبِسَتْ لثماني سنوات في قبوٍ مُحَصَّن أسفل بيت مجهول أيضًا إلى أن تمكَّنتْ من الهرب.

كان الضيق قد بلغ من كاتيا نهايته بسـبب الإعلام واسـتخدامه حكاية ناتاشـا بشكل تجاري دون مراعاة لنفسية الفتاة، إضافة لكل

هــذا الرياء الذي تناول الموضوع وجعَلَه في ذاك الوقت موضوع الساعة في النّمسا، بل والعالَم.

"ما رأيُكم في شواطئ العُراة؟ هل هي ضرورية؟"

فجاةً قطعتْ كاتيا الحديث حتى نتوقّف عن استجلاب هذه المآسي تباعًا، وكأنّها كانت ملازمة عند شـاطئ العراة: تحمَّسَـتْ لويزا وانطلقتْ فـي الحديث بداية من آدم وحـوّاء حتى وصلت لحقوق الإنسان، وباعتبارها خرّيجة كلية القانون، كان لها سبق الكلام فيما يتعلّق بحقوق الإنسان، لكنها دخلتْ في مرافعة طويلة بدأتْها بحقوق المرأة والطفل والمُسنّين والجنين وحقوق السجناء والأقلّيات، حتى وصلتْ لحقوق مُزدَوَجي الميولِ الجنسـية والمثليّين، ولما تفرَّعت لحقوق حماية المسـتهلك وحقّ النبات والحيوان؛ أوقَفَتْها لارا من الاسترسـال التفصيلي مُمتعِضة، بينما بقينا نحن الذكور؛ يوناس وفلوريان وأنا؛ صامتين نسـتمع. فلوريان بـادر بأن الأمر عادي وهـو مجرّد حرية شـخصية لا أكثر، ما دام أنهـا لا تَضُرُّ أحدًا، ولمّا واجَهَتْ كاتيا يوناس لتسمع رأيه عن شواطئ العُراة، فوجئتُ برفضه واستنكاره للأمر. تعجَّبتُ جدًّا؛ فأنا أعرف أن يوناس ملك التهوُّر فينا، ويرتكـب حماقات ومصائبَ أعظم من مجرَّد التَّواجد على شاطئٍ للعُراة.

"لا أدري، لــم أجرِّب من قبل!" قلتُ ردًّا على تَحديجِ كاتيا فيَّ، وطلبتُ منها سيجارة، وددتُ أن أتَلَكّــأ وأتَخَفَّى خلف دخانها لبعض الوقــت؛ لأني أعلــم أن دَوري آتٍ لإبداء وجهة نظر أوســع، ولم تمرّ ســوى وهلة حتى صفعَتْ سؤالها: "طَيِّب، لو عُرِض عليك أن تُجَرِّب؛ فهل سترفض؟"

"مع أنَّك تفاجئينني، لكنَّني بدافع الفضول ســأجرِّب!". ابتسمَتْ كاتيا ابتســامتَها العذبة، ولمع في عيْنيهــا دهاؤها المعروف: "هل أنتم شــاهدون؟ سوف نرى إن لم تكن جبانًا؛ ما رأيُك أن نذهب يوم السبت القادم لأحد شواطئ الجسم المُتَحَرِّر؟" وجَّهتْ السؤالَ الأوَّل للجميع وخصَّتني بما تبقَّى!

"بكلّ سرور!" قلتُها بجدّيَة واضحة ودون تردُّد. صفَّقوا جميعًا كأنَّهم فازوا في مسابقة. علا صخبُنا واستدعى الفُضولَ روّاد المقهى. وافقنــا جميعًا ما عدا يوناس: "أنتم مخابيــل، لن أذهب بالطبع!"، قالها وهو يضحك هازئًا، وطلــب من النادل القريب زجاجة بيرة "جُوسَّر" ثالثة.

رغم كلّ هذه الشــهور الطويلة، لــم أكن قد تعوَّدتُ بعدُ أن أقف عاريًا أمام الطالبات والطلّاب في قاعة الرسم، دون وازِع صامت يخربشــني بهدوء في مكمن ما بداخلي. ما زلتُ أحاول إقناع نفسي

بـــأنّ العيون عليّ لا تتعدّى الفـــنّ. أدركُ أنه مجرَّد وَهْم أُحَصِّن به ذاتي، أو ربما نســـجتُ هـــذا التصوُّر في ذهني حتـــى أتفادى أيّ تجاوزات. صرتُ أســـأل نفســـي: لماذا أصبحتُ عاريًا في أوروبا باسم الفنّ؟ لماذا كنتُ أقبَلُ هذا لشُهْدَة بكلّ بساطة؟ لماذا أتناقض بين ما أقْبَله لنفســـي وما أقبله للآخرين؟ ولماذا لم أرفض من البداية لو كان الأمر يسبِّب لي ألـمًـا نفسيًا أو حتى ذهنيًا؟ فلم أكُن مُجبَرًا، ولم أستنكر علانية طلبَ ڤايسْمانّ وماجداليِنا حين عَرَضا عليّ الأمر.

من الواضح أن ردّي: "بكلّ سرور!" لم يكُنْ تهوُّرًا، بِقَدْرِ ما كان رغبة دفينة في تأصيل التجربـــة بالاختبار البدني الفعلي، وبجرأة تلقائية. أريد عن حقّ أن أعرف بنفسي كيف ستكون التجربة وكيف سيكون حالي أنا. سوف أدخل إلى مَعْقِل العُراة عاريًا لا غازيا.

تجمَّعنا ظُهرَ الســـبت في جزيرة الدانوب على كافيه الشـــمس "كافيه دِيل سُـــول" كما كاتبتْنا زعيمتُنا كاتيا عن مكان التجمُّع، ثم انطلقنا من هناك نحو هدفنا. حين اقتربتُ من الشـــاطئ واجهتْني أول لافتة مكتوب عليها (**بداية شـــاطئ الجسم المُتَحَرِّر: فقط للعُراة**) ثم لافتة أخرى (**نرحب بكم على شـــاطئ الجســـم المُتَحَرِّر: السباحة فقط في المكان المُخصَّص وفي الوقت الرسمي**).

توالت التعليمات واللافتات وأنا أقرأها بعناية شـــديدة، بينما هم

منشــغلون في متابعــة أحاديثهم بكلّ جدّية وعــدم اكتراث، كأنّهم يزورون المكانَ كلّ يوم. (رجاء احترام شــاطئ الجســم المُتَحَرِّر ولكم جزيل الشكر) كانت اللافتة الأخيرة التي رأيتُها.

وصلنا: كاتيا ولارا ولويزا وفلوريان وأنا، تخلَّف يوناس بالطبع. كان علينا إمّا أن نخلع ملابســنا قبل الدخول للشاطئ ونضعها في خزانات ملابس، أو أن نحملها معنــا لمكاننــا إن أردنا، فمِن غير المستحَبّ أن يسير الكُساة وسط العراة. وجدتُ نفسي دون أن أدري أســرعَهُم في خلع ملابســي. هل جعلتني مهنتي كموديل أتخفّف ببساطة؟ أمْ أنّ فضولي العارم عجَّل من خطواتي نحو التجربة؟

سرنا نحن الخمســة جوار بعضنا؛ إلّا لارا، التي تخفَّت خلفي، وغلب عليها الحياء. استأجرنا كراسي استرخاء، لكنَّ لارا فضَّلَتْ أن تكون بين كاتيا ولويزا دون كرسي، فرشَتْ منشفتها الكبيرة على الأرض وجلســتْ عليها ضامّة يديها ورجليها إلى صدرها. أعطتْ كاتيــا كُلًّا منّا ورقة عليها عدّة تعليمات تخــصُّ المكان. عابَثْتُها: "هــل هذه هي ورقة التوت يا كاتيــا؟"، وضعتُها في محفظتي ولم اقراها إلّا ليلًا في شقّتي. فضّلتُ أن أتأمّل هذا العالَم الـمـدهش. كلّ الأجسام التي أمامي كانت تتمتَّع بحرية أضْفَت جمالًا على المشهد. مشــهد إنســاني لا يمكن وصفه بالعُرْيِ. كنــتُ أرى الناس أقرب لطبيعتهم وأقرب للطَّبيعة.

مشيتُ بضع خطوات إلى نهر الدانوب لأسبح. كانت المرّة الأولى في عمري التي سبحتُ فيها عاريًا تمامًا. إحساس طفولي حرّ جريء هَزْلي عابث ناعم ليِّن كحُلم آسِر. حين خرجتُ لم أرَ في عيون العاريات والعُراة سوى ابتسامات المجاملات الطبيعية عند تلاقي الأنظار، لم تصدمني عيْن واحدة مُبحلِقَة، لا عيْن هنا ترغب في رسمي طبعًا. استلقيتُ حُرًّا خفيفًا وسْط المجموعة ناظرًا للسماء الزرقاء، مفكِّرًا في كوننا خُلِقنا عُراة، وأزعم أن نظرتنا في أول الخَلْق لعُرْينا كانت غير نظرتنا الحالية له؛ فهل تطوَّرت نظرتُنا لأنفسنا أم تخلَّفَت؟ قالت لويزا:

"أقسم إنك كنتَ هنا من قَبْلُ!" علا صوتي بضحكة مُجَلْجِلة لأنّي تخيَّلتُها تنطقها بلهجة مصرية أصيلة: "أقْطَع دِراعي لَو ماكُنْتِش بتِيجي هِنا كُلّ يوم!"

"بالتأكيد كنتُ هنا في زمن آخر أتمنَّى أن أعود إليه!"

رددتُ، فهزَّتْ رأسَها تعبيرًا عن غموض كلامي.

عند الخروج رأيتُ لافتة عجيبة. كانت هناك لوحة تعليمية غير مألوفة، مكتوب عليها "نهاية شاطئ الجسم المُتَحَرِّر" بجوارها رسم لأب وأمّ وطفل عرايا، كُتِبَ تحتها: (خطأ)، والثانية، رسم آخر لأب وأمّ بينهما طفل وفي أيديهم ملابسهم وتحتها كُتِبَ: (تقريبًا صواب)، أما الرسم الأخير فكُتِبَ تحته: (هذا هو الصحيح)، كان الطفل فيه

مرتديًا كامل ملابســه، والأمّ والأبُ مرتديَيْن ملابس السباحة. هذا الرسم الأخير كان الأهمّ عند مغادرة شاطئ العراة.

في شــقّتي اســتلقيتُ هذه الليلة على ســريري عاريًا لأستكمل واســتعيد هذا النهار النادر؛ أن أثبّته في الذاكرة أكثر؛ أن امســح بِرَوْنَقِه -إن استطعتُ- أفكارًا أخرى عالقة تخربش مُخّي وتؤلمه بــلا داع. كانت محفظتي بجانبي. أخرجتُ منها "ورقة التوت" من شاطئ العُراة التي سلَّمَتْها لنا كاتيا، قرأتُ:

قواعد وشروط التّواجُد على شواطئ الجسم المُتَحَرِّر:

1. تأكّدْ أنك علـى شاطئ الجسم المُتَحـرِّر، ولستَ في مكان يسمح بتعريـة الجزء العلـوي فقط، أو لا يسمح علـى الإطلاق بالتواجد دون ملابس السباحة.
2. ممنوعٌ لروّاد المكان التصوير أو استعمال الفيديو.
3. لا يجوز التّحديق في الروّاد؛ سواءً أكانوا رجالًا أو نساءً.
4. انظُرْ لعَيْنَيْ مَنْ يتحدّث إليكَ، وليس لجسمه أو جسمها.
5. ممنوعٌ الإتيانُ بأفعال جنسية أو ممارسات إباحية في المكان.
6. رجـاءً عدم ارتداء الملابس والبقاء بها في المكان، يُستثنى الأطفال والمراهقون.

7. رجاءً استعمال المناشف أثناء الجلوس على الكراسي، فهذا أكثر صحّية.
8. حافظ على مسافة بينك وبين جارك أو جارتك، مراعاةً للخصوصية.
9. لا يجوز التّعليق على أجساد الآخرين، سواءً نحفاء أو بدناء، أو حتّى من يتمتّعون بأجسام رياضية أو رشيقة.
10. يجب الالتزام بتعاليم المكان واحترام القواعد المنظّمة له.

ضحكتُ بصوت عالٍ وفهمتْ استنكار لويزا: "أقسم أنّك كنت هنا من قبل!" فكلّ هذه القواعد والشروط نفّذتها من اللحظة الأولى بطريقة طبيعية غريزية لم تتطلّب منّي أيّ جهد أو انتباه. هي تعليمات ذوقية أكثر من كونها تعهّدًا والتزامًا.

كنتُ أتصوّر أنّ حرجًا ما سيصيبني وأنا عارٍ على الشاطئ، لكنّني رأيتُ أن فرَضيّتي على صواب، تلك التي صرّحتُ بها في لقائنا الأخير، حين قلتُ إنني ساشعر بألفة واعتياد لو كان من يرسمونني عرايا؛ لأننا سنتشابه كلّنا في الرداء، أو في اللّا رداء!

لم أشعر بأيّ خجل وأنا سائر أو مضطجع على الشاطئ وسط العاريات والعارين. امتحنتُ شعوري بصدق وجدّية، لم أحسّ

بأدنـــى قدر من الحرج، وســأكرِّر الأمر إن أُتيحَــتْ لي الفرصة مســتقبلًا. حين أتخيَّل كيف يـرى عالَـمي البعيد الذي جئتُ منه هذا الحال؛ أرى أن عيْنـنا ســتنحرف لاستنكار الأمـر أوّلًا، ولو أتيحت الفرصـــة لأحد من عالمي البعيد بالتَّواجُد بينهم وبينهن، فســتخرج عيْن التلصُّص فورًا على العاريات والعارين وســتمارس التَّحديقَ السّافِر، وسيكون خَـرْقُ الدسْتور الصامت لأمانة العَيْن والحِسِّ هو السائد!

هل كــان علاجًا أن أكون هنــاك أو أن أتأمَّل ما لــم أعِـهِ من قَبْلُ؟ لم أشــعر بأيّ مهانة، لكنّي رأيتُ المهانة في تقرير عُرِضَ بالصدفة مســاء اليوم نفسه على قناة ألمانية عن سجن "أبو غريب" في العراق. التقرير كان مُطَوَّلًا وتفصيليًّا، وفي ثلاثة أجزاء: واحد يتعرَّض للتعذيب الجِسمي عبر التاريخ، وواحد لِمَا حدث في سجن "أبو غريب" مع الضحايا بصوتهم مع ترجمة مكتوبة على الشاشة، وواحد في أميركا مع الجنود الأمريكان المُصابين بأمراض نفســية نتيجة الحرب البشعة، أو نتيجة تجاوُزاتهم.

بعد انتهاء التقرير التليفزيوني كنتُ وحدي عاريًا عن الأصدقاء؛ عن المكان، عن الزمن؛ عاريًا عن الحقيقة وعن الوهم؛ كنتُ عاريًا عن النوم وعن الصحو، مُشَوَّشًــا في معنى جملة اســتغلقَتْ عليَّ؛

مرَّت في الحُلم أو في الصحو أو في التقرير - لا أتذكَّر، كانت: "الاتجاهات السماوية". صرتُ أتقلَّب في سريري كما كنتُ ذات يوم بعيد في وقت قيلولة، تخيَّلتُ نفسي مُجدَّدًا رغيفًا يتقبَّب في فُرْن خَبْز.

رُحتُ في غيبوبة تُشبه الأحلام، أو هي للكوابيس والتهيؤات أقرب. كنتُ عاريًا، أشعر بوجع في كلِّ خلية في جسمي، وأسمع صليل سلاسل وأقفال. نباح فظيع لكلاب مسعورة قريبة منِّي تفزعني، يلازمها صراخ وعويلٍ وشتائم بذيئة وأوامر بِلُغات وبلهجات أجنبية. رأسي كان مُغَطًّى بكيس بلاستيك للنفايات رائحته نَتِنة. سمعتُ قهقهة، وحين رفعوا الكيس لم أرَ بسبب العِصاب الذي على عَيْنَيَّ، ولَمّا فكُّوه لم أرَ أيضًا بسبب سطوع مصباح بالقرب من وجهي يحوِّم حوله هوام. بالتدريج بدأتُ أرى المشهد حين ظهرتْ حركةٌ أمام المصباح. رأيتُ امرأة أجنبية في ملابس عسكرية تحمل كاميرا ڤيديو وتصوِّرني. أمامي خريطة مكتوب عليها بالعربية بحروف ركيكة تبدو لشخص لا يُحسِن كتابة العربية: "الاتجاهات السماوية" عليها أربعة حروف [ش/ق/ج/ب] وكأنِّي قرأتها "شَقّ جُبّ" لكنها كانت تعني الاتجاهات الأربعة: شمال، شرق، جنوب، غرب. وهي اختصارات قديمة اختصرت الشمال بحرف (شين)، والجنوب بحرف (جيم)، والشرق بحرف (قاف)، وليس شينًا كحرف أخير؛ حتى لا يتكرَّر مع الشمال،

واخيرًا الغرب بحرف (باء) الأخير منها. كُتِبَ فوق الشين بحرف صغير: (شَوْشَبُ الصحراء)، وفوق القاف: (القاطِعُ)، وفوق الجيم: (الجَبَروت الحديديُّ)، وفوق الباء: (البَأسُ اليَقِظُ).

كنتُ احاول إيجاد تفسير سريع لمعاني هذه الكلمات، لكنْ عُرْيي امام امرأة مستَرجِلة اجنبية ترتدي ملابس عسكرية، وتتصرّف معي بطريقة فظّة، بَثّ في نفسي إحساسًا أشدّ إهانة من الذلّ، اجلسَتْني امامها او امامهنَّ، أسمع أوامرها ولا أراها. كنتُ أُخفي عورتي بكَفَّيَّ فتنهمر عليهما بضربات مؤلمة، فأبعدهما، لتتوالى لسعات أخرى على فخذيَّ حتى ينفتحا فيتوقّف الضرب، فأجلس مباحًا لا أرى. أسمع صوت "تكّات" كاميرا تلتقط صورا وسط ضحكات مستهتِرة خليعة، وشتائم عربية بلهجة ركيكة خاطئة. كنتُ عاريًا أمام نَفَر من المُجَنَّدات المُقَهْقِهات، أسمع شبَق ريقُهنّ أثناء غمغماتهنّ المُلتَذّة تصلني بطريقة داعرة مُقرِفة.

أعادت الجُندية التي تسحبني العِصابَ ثم الغطاء البلاستيكي النَّتِن إلى رأسي. وكنتُ أترنَّح من الإعياء والرغبة في النوم، ثم شغَّلَتْ موسيقى ذات صوت معدني قبيح عالٍ ومزعج لأقصى درجة.

غرزُوا أعلى ذراعي بحقنة سَمَّوْها "حقنة الحقيقة"، التهب كلّ جسمي فجأة. تذكَّرتُ إحساس غَرْز حقنة البنسلين ذات زمان بعيد. اغتصبتني حُمّى مفاجئة وانهمر عرقي حتى تخيَّلتُ أنني تبوَّلتُ

على نفســـي، أو ربَّما أكون قد تبوَّلتُ فعلًا. فقَدتُ قدراتي العصبية والذهنية ثم ســـمعتُ صوت ضرب على جســـم ربَّما كان جسمي. كنتُ أسمع من يتحدَّث عن انتزاع أعضاء بشرية من جسدي.

رأيتُ شُهْدَة، كانت زوجتي في الحُلم. أوقفوها أمامي وهدَّدوني باســتباحتها، لم ينتظروا طويلًا ونفَّذوا التَّهديد. نزع عنها الضابط الأجنبـــي ملابســـها واغتصبها أمامي عدّة مـــرات. كان صراخُها يذبحني، وهو ينطق بكلمات عربية فاحشة، بلهجة مُكَسَّرة لا أدري أين تعلّمها. في كلّ مرّة كـــان يغتصبها كنتُ أرى بطنها ينتفخ من الحَبَل.

اســتغاثت بي: "أتوسَّـــل إليك يا مينا اقتلني! اذبحني بعاري يا مينـــا!" قالتها بعربية فصيحة اخترقتني ونَحَرَتْني. أعطوني ســـيفًا لأقتلها بنفســـي. رأيتُها تُنجِب طفـــلًا خرج يبُصُّ بأربع عيون؛ كلّ واحدة بلون مختلف، عيون واســـعة مُبَحلِقَة، يتكلّم ويسبُّ بالكلمات نفسها التي سمعتُها من الضابط الأجنبي. تحت الهَذَيان والذلّ والعار كان من المُفْتَرَض أن أجُزَّ رأســـها ورأس الطفل، لكنَّ الماء البارد الذي صبُّوه على رأسي الملفوف في خِرْقة قديمة والصعق الكهربي واللّســـع بالنار؛ جعلني أشهق مرّة، وأصرخ مرات، وأتوجَّع طوال الوقـــت. في كلّ صرخة كان صوتُ شُـــهْدَة هو الذي يصدر منّي. جرّونـــي عاريًا سَـــحلًا لغُرفة أخرى وأنا بالعصابة البلاســـتيكية

القذرة، لأســمع صريخًا مُفْجِعًا لنساء يتوسَّلْنَ: "يا اللـه يا اللـه! يا رحمان ارحمنا! يا ربّ ارفع مقتَكَ وغضبك عنّا!".

غضبي العارم أســالَ جســمي وحوَّله لمعدن أبيضَ في شــكل مســتدير منتفخ ضخم، وكلّما ســمعتُ توسُّلًا كان الشكل المعدني يَكْبُر، وكلّما زاد الصُّراخ والعويل كان الشكل يزداد حجمًا. أصبحتُ منتفخًــا مثل مُنْطاد هائل، أو ربَّما على هيئة حوت ضَخْم، ثم بدأتُ أتدحرج بسرعة من الشــرق نحو الغرب، بينما مُلامسَتي للأرض تطبع على جسمي المعدني العملاق حروفًا هائلة الحجم للاتّجاهات الأربعة: [ش/ق/ج/ب] وتظهر كلمات مثل: شَــقٌّ/ شَــجٌّ/ جُبٌّ، ثم تتكوَّن كلمات واضحة على القنبلة المستديرة: (شَوْشَبُ الصَّحْرَاءِ) (القَاطِعُ) (الجَبَرُوتُ الحَدِيدِيُّ) (البَأْسُ اليَقِظُ)، وتنطبع على الأرض عشرات بل آلاف من هذه الجُمَل الأربع. صرتُ أرتفع وأتَّخذ شكل قنبلة ذرِّيّة ضخمة تتساقط منها هذه الكلمات؛ قنبلة ترتفع رويدًا نحو السماء متَّجِهة بإصرار نحو الغرب.

10

صار مانويل صديقًا عزيزًا ألتقي به بشــبه انتظام، أعرف منه الجانب المظلم والظـالـم في هذه المدينة العريقة وما خفِيَ منها وكان أعظم. حكى لي عن أبيه الأفروأميركي الذي أحبّ أمّهُ النّمســاوية وتزوّجها بعد الحرب العالمية الثانية وعاشــا في مدينة "كريـمس" بضع سنوات، ثم انتقلا ليستقرّا في ڤيينّا. كان هو وأختُه ثمرتَيْ هذا الزواج النادر في تلك الأيام. ســرد لـــي كيف كانت الحياة مضنية لابن هجين من شــقراء وأســود، وكيف كان زملاؤه في المدرسة يُعايرونه بلونه طوال الوقت؛ لونه الحنطي الفاتح الذي يُشبه بشرة أهل مصر.

أوهموه أن رائحته كريهة بســبب لونه، وحين كان يمرّ بهم يُطبِقُون على أنوفهم بأصابعهم. في عمر السّادســة اكتشـفتْ أمُه

ذات يوم تسلُّخات شديدة على كلّ جِلْده. احتضَنَتْه بذُعر ورائحة الصابون تغمُر أنفها، ثمّ بَكَتْ حينما أدركتْ السّبب. سرد عليها حكايته في المدرسة؛ أنّ أقرانه ضلّلوه حين أكّدوا له أن لون جِلْده الأبيض يختفي تحت وَسَخ؛ لأنه لا يستحِمّ بشكل جيِّد، فقام بِحَتِّ جِلْده بليفة خشنة هرّأت جِلْده الغَضّ.

أما شَعره فكانت له حكاية موجِعة، وحكاية أخته مع شَعرها كانت أكثر وجعًا!

قال إن أقرانه كان لديهم كتاب قصص للأطفال اسمه (الزنوج العشرة الصغار)(*). كانوا يغنُّون منه بشكل يوميّ مُزعج طوال أعوام طويلة نكاية فيه، بل إن المعلم نفسه كان يقرأ الكتاب ويفسِّر لهم مُقَهقِهًا مستهزئًا، وكلّ الأطفال يتهكّمون على مانويل.

نصوص الكتاب تحكي عن عشرة زُنوج صغار في قصيدة طويلة مسجوعة، هؤلاء الصغار يتمّ التخلُّص منهم الواحد تِلْوَ الآخر عن طريق إماتتهم، ربّما كان القصد هو تعليمهم الحساب، لكن هل هناك عار أكبر من هذه الطريقة العنصرية المُزرية في التعليم.

الزنوج العشرة الصغار مات أوَّلُهم بالرَّصاص فصاروا تسعة؛

(*) كتاب Zehn kleine Negerlein؛ كتاب للأطفال باللغة الألمانية، صدر منه طبعات كثيرة باختلافات في النصّ، لكن كلّها تؤدّي إلى هلاك الزنوج العشرة الصغار

أكلتْ الساحرة واحدًا فصاروا ثمانية؛ مات سابع من البرد؛ سادس مات من البكاء؛ خامس صَرَعَتْه ضربة شـــمس؛ رابع بَلَعَتْه سمكة قِرش؛ ثالث أُغلِقَ عليه تابوت؛ ثانٍ هَرَسَـــه الدُّبُ حتى الموت، ثم أخيرٌ مات غرقًا.

يقول لي مانويل: "تبايَنَتْ النصوص في طبعات جديدة تعدّد فيها الموت بابتكارات جديدة وسَجْع مُسْتَحْدَث على مدار سنوات طويلة، فـــي كلّ طبعة يُبـــاد فيها هؤلاء الزنوج الصغـــار كلّ يوم، بل كلّ ســـاعة، وكنتُ أنا واحدًا منهم بالطبع. كنتُ أموت حيًّا مع كلّ واحد من العشـــرة لآلافِ المرّات، وطوال سنوات عمري في المدرسة. هل بإمكانكَ أن تتخيّل شـــعور تلميذ غَضٍّ صغير مُحاطًا بكلّ هذه القسوة البذيئة السّفيهة الجاهلة؟"

مانويل صديقي الجميل ســـيظلُّ هذا الحرف الواضح الجليل في هـــذه الصفحة الناصعـــة مثل حبّةِ بَرَكةٍ ســـوداءَ في صحنٍ أبيضَ فَسيحٍ!

هـــل أصبحت لقاءات مينا مع نادين بديـــلًا عن تواصله مع أيّة امرأة أخـــرى؟ مينا لن يُتيـــح لنا إطالة النظر عميقًا فـــي قاع بئره. يواري الكثير، كأنَّ هناك ألمًا ما يكمُن مســـتترًا في قلبه. في وجودها يتغيّر ويكتظ بالأســـئلة؛ تغسله الأســـئلة وتُصفّيه، تعرّي القبح الذي يغطي الحقيقـــة، وهو مُصِرّ على الإيغال فـــي البحث عن مغازٍ كثيرة لم يعُد

لديه ترفُ تأجيلها. مع نادين تحديدًا يقول رأيه عفويًا بلا تجميل وبلا مراجعة.

ستقول له نادين: "على الحُبِّ أن يتّسم بمسحة جنون؛ ليكون له معنى؛ له طعم وتاريخ يُذكر، فالحُبُّ العاقل جدًا الرصين جدًا الوقور جدًا؛ في النهاية مُمِل جدًا، ولا يبقى منه سوى صورة نمطية فاشلة."

"والزواج؟" يسألها.

"الزواج طقس أو شعائر أو ممارسة عادات وتقاليد. طُقوس الزّواج تظلّ هي الإطار واللوحة والحكاية معًا. هي صاحبة السّبق والتّكرار في الحديث: فستان الفرح، الورود، طقوس تبادُل الخاتمين، موعظة القسِّ أو الشيخ أو أيًا كان، الزغاريد وموسيقى الأفراح والتّهاني والقُبُلات ووليمة الطعام والشراب ونمائم المدعوّين."

"ورحلة شهر العسل أيضًا!" يقولها ساخرًا.

"ربما تتبدّى رحلة شهر العسل كشيء ثانويّ تافِه، رغم أنها من الممكن أن تكون الأجدر بالحديث وبالقيمة عن كلّ تلك التّرّهات المظهرية، لكن في سوق الزّواج تظلّ العملة السائدة هي المظهر والشكليّات والصور المُلتَقَطة لفستان وبذلَة الفرح والورود والخلفية الخرافية وطبقات الضيوف الاجتماعية. رحلة شهر العسل التي سيتمّ استحضارها بعد سنوات كتاريخ مبهر لزمن ساحر مضى هي الأحَق بالاحتفاء!"

"أوافقكِ يا نادين؛ أعتقد أنّني لن أتزوّج، سوف أكتفي بالحبّ مدى الحياة. الحبُّ أبقى من الزواج!"

"وأنا أكاد أوافقكَ. الحبُّ الذي يمسُّه الجنون هو الأبقى والأقدر على الاشتعال كلّ لحظة، بلا مبالاة لأيّ طقوس."

"لكنّ الزواج هو شاغل المرأة أكثر من الرجل!" يقولها وهو يبتسم

بمكر، لكنّها تُلقي الطُّعم له: "أتعتقد ذلك؟"

"أظنُّ ذلك، لأنّ المرأة تختلف عن الرجل."

"أتعتقد بهذا؟"

"أظنُّ ذلك."

"... ..." تصمتُ لتنتظر تحليله:

"لديّ وجهة نظر أزلية ومختلفة: الرجل ظاهر والمرأة باطن. الرجل يمنح بذرة حياة غالبًا بلا وعي. المرأة تحفظ الحياة دائمًا بدِراية. التركيب التّشريحي للمرأة والرجل يؤكِّد وجهة نظري!"

يبدو كأنّه يمزح، لكنّه يقول كلامه عن اقتناع، ويُخفي شيئًا ما لا يُسرُّ به بسهولة.

أمّا نادين فهي من النوع الذي يجيب على أيّ سؤال باستفاضة ذكية، تجعلك إمّا أن تبادر بطرح سؤال جديد أو أن تنتظر استرسالها التلقائيّ بشغف، لتستكمل حكاياتها بطريقة شيِّقة ولمّاحة، طريقة تكبِّلك، هي ليست ثرثارة، فالثرثارة لا تختصر الموضوعات وإنّما تحكيها بتوسُّع غير ضروري، وقد تنحرف لموضوعات لا علاقة لها بسياق الكلام، إلّا رغبة في حشو الكلام بالكلام.

يرى مينا نفسه محظوظًا بالمرأة في تلك المدينة. حين يراجع في ذهنه معظم من تعرّف عليهنّ أو صادقهنّ، يكاد يوقِن بأنّ كل واحدة قد أضافت له إضافة لا تُنسى -حتى السّلبيّ منها- بل بأنّ حكاية كل امرأة هي حكاية كلّ الحياة. له أصدقاء ذكور كثيرون يُجِلّهم، لكنه يتحيّز لصوت المرأة وحكايتها.

"نحن متشابهان!"
ستقول له الأستاذة ماجدالينا بعد أن دعته للعشاء في بيتِها الريفيِّ الأنيق المرتفع على هضبة عند أطراف جنوب غرب فيينا في الحيِّ الثالث عشر؛ بيت مكتظّ بلوحات أصلية لأوسكار كوكوشكا ('زارني'، في عزِّ الصيف) وإيجون شيلي (امرأة ورجل) ويورج إمّيندورف (صولو) ولوحتيْن لفريدا كالو (بورتريه شخصي) وأخرى لجوستاف كليمت (أمّ مع ابنيها). كانت كلّها قَيْدَ الترميم في ذاك الوقت. لم يصدِّق أنّ هذه الثروة من اللوحات يمكن أن تنتقل للبيوت الخاصّة بهذه السهولة. ستُفاجأ ماجدالينا أنه يعلم الكثير عن هذه اللوحات ويعرف أسماء رسّاميها، وأنه يتمكّن في وقت سريع من تخمين صاحبها بجزئيّة عالية، حتى ولو لم تكن معروضة من قبل في أيِّ مكان أو في أيّ كتاب فنّي أو وسيط آخر. معلوماته عن فنّاني أوروبا على وجه الخصوص تكاد تكون موسوعية، بل له نظرة نقدية مختلفة لفنّ وسط أوروبا بشكل خاص.

"كثير من التشابه قد يؤدّي للنفور." هذا قوله بينما يطالع لوحة لامرأة بنظارة سميكة تتأمّل صورتها في مرآة، ويتابع: "أظنُّ أن هذه خطوط 'فريدا كالو'، خطوط صارمة متمرِّدة وسحر مختلف."

تسير ماجدالينا خلفه، تَسُرُّها تعقيباته فترى اللوحات من جديد من خلال عينيه. من يدري؛ ربّما هناك نعمة لا يدركها في تأمُّل اللوحة من اليمين لليسار، أصبحتْ تستخدم كثيرًا من أقواله وآرائه في محاضراتها. سيقول أخيرًا حين يجلس وهو سرحان ناظرًا عبر الشرفة الواسعة على الغابات الخضراء الكثيفة التي تحيط بالمكان: "فنُّ وَسَطِ أوروبًا هو فَنُّ الجَمَالِ المُفجِعِ!" سيبهرها هذا التعقيب وستظلّ تُردِّده لنفسها مرّات باحثةً عن معناه داخلها.

ماجدالينا كانت متزوِّجة من دبلوماسي راحل معروف، أكبر منها بأربعين عامًا. كانت وهجًا مثيرًا وهي في العشرين، أينما سارت

تُغلِّفُهـا هالة من الافتتـان تدور لها الأعناق. مـا زالت تحتفظ بهذا الوَهَج الذي يُظهِرُها دومًا في سنّ أصغر من سنها.

"كنتُ ذات يوم (موديل) أيضًا!"

تقـول لمينا هذا الاعتـراف بلا مناسـبة، لكنها تقصِـده. في بيتها مجموعـة مُقتنيات نادرة لا تُقدّر بثمن، جمّعها زوجها الدبلوماسـي من حول العالم من خلال سُـلطته وعلاقاته الغامضة؛ خاصّة بتراث تلك البلاد البعيدة ذات الحضارات التي غابت، أطلعته على أسرار هذه المقتنيات بعد أن سـحرها بكلامه عن الفنّ، وبالأكثر بآرائه العجيبة التي تستدعي دائمًا تأمُّلها. فتحتْ خزانة زجاجها يميل للزُرقة، ليحفظ المقتنيات من الأضواء المباشرة، وأخرجتْ تمثالًا أصليًا لا يعرفه أحد فـي العالم؛ تمثالًا فرعونيًا نادرًا. يقف فيه الإله إخناتون في مواجهة الملكـة نفرتيتي، قبضتْ ماجدالينا على التمثـال الثقيل بيدها اليمنى وأراحته على كفها اليسرى.

"تمثال عجيب لم أر في عمري ما يشـبِهه!" يقولها في اسـتغراب ودهشة.

"نعم، ونادر لا يُعرَف مثيل له." تردُّ عليه، فيقول:

"من المعروف أن تماثيل الآلِهة المصرية القديمة كانت إمّا أن يجلس الإله وزوجته جنبًا إلـى جنب، أو يقفا معًا جنبًا إلى جنب، أو يجلس الإله وتقف زوجته؛ كما تُظهِرُ رسومات المعابد وأوراق البردي؛ لكنّ هـذا التمثال النادر يواجه فيه الإله إخناتـون الملكة نفرتيتي، أليس كذلك؟"

"نعم، يضع كفّه اليمنى على كتفها اليسرى، بينما تلُفُّ ذراعها اليمنى الطويلـة أكثر من المعتاد -وهي فكـرة أراها في قمّة الفنّ- تخاصره حتى تظهر أصابع كفها من الأمام بالقرب من سُـرّته. يدها اليسرى علـى صدره ويده اليسـرى عند خصرها. يقفان في جلال وعشـق

واضح." تدير ماجدالينا له التمثال الثّقيل على كفِّها فيفزع مادًّا يده تحت يديها يساعدها خوفًا من سقوطه. لم يسألها من أين حصلت عليه ولا متى، بل بادرها:

"هل سمعتَ عن النحّات الشهير 'بَنا سِتْ'؟"

"بَنا سِتْ! بَنا سِتْ! لا، أبدًا."

"في فترة حكم إخناتون تغيّر أسلوب النحت لشكل سيريالي واضح، وهو أسلوب العمارنة المُبكر لنشر تعاليم إخناتون عبر الفنون التشكيلية؛ خاصّة في المعبد الموجود شرق الكرنك، ونبغ هذا النحّات الشهير 'بَنا سِتْ'، فعيّنه إخناتون رئيسًا للفنّانين، وطلب منه أن يلجأ للواقعية، وأن تكون حرفته مقاربةً للحياة مثلما هي مقاربةٌ للموت، كما شجّع كاهنًا شابًّا اسمه 'سَزِمَتْ' ذا قدرات فنّية خارقة. اصطفاه لينفذ مع بَنا سِتْ أعمالًا تمثّل مجموعة نادرة من الطقوس الاجتماعية الطبيعية للآلهة وللناس، فظهرت للمرّة الأولى تماثيل توضح طقوس الطهارة والزّواج والولادة والأعياد والاستحمام وطُرق الطهي والحصاد والصيد وصُنع البيرة (البوزا) والنبيذ (الجرب)، وحتى اللحظات الحميمة -عند الفراعنة- صوّروها بتفاصيل مبهرة. خُصِّص لهذه الأعمال معبد وتُركَت طاقات عُلوية تنفذ منها أشعّة الشمس على التماثيل، التي لم تُوضع اعتباطًا؛ بل وُضعت أفقيًّا جوار بعضها في شكل رُبع دائري، وفي يوم محدّد في العام يدخل الشعاع لتمثال منها معلوم، فيبدأ طقس الطهور الملكي في النيل مثلًا، فالمعروف أن إخناتون هو أول طفل استطاع السباحة في النيل؛ ممّا أثار تقديس اسمه وأرجع هو السّبب -فيما بعد- لعيْن الشمس الحارسة (حورس). والحكاية طويلة! بعد نهاية حكم إخناتون دُمِّرت معظم هذه التماثيل وتمّ تشويه أغلب المنحوتات ودُفِنت أوراق البردي، فالفراعنة لم يُغرقوا التماثيل ولا أوراق البردي في النيل؛ لقداسة النهر لديهم، ولم يلجئوا لحرق أيّ شيء؛ لأنّ النار رمز النور وقَبَس من الشمس والحياة، وليست للإماتة."

تركته يسترسل وهي مستمتعة بالحديث والتاريخ والمعلومات. جهّزتُ قهوة لهما، ثم أحضرتُ ورقة وقلمًا وجلستُ تستعيد كلامه وتساله وتسجِّل بعض الملاحظات. كانت الغابات الخضراء تتحوّل تدريجيًا للون أغمق، بينما أصوات الطيور تزقزق كأنها تنادي على أسرِها للسكون.

استطاع زوج ماجدالينا الدبلوماسي أن يحصل على بعض القطع الأثرية النادرة جدًا؛ التي أهداها ذوو النفوذ من المصريين برعونة وجهل للقناصل والدبلوماسيين الأجانب؛ باعتبار أن هناك فائضًا منها بلا ثمن. تقريبًا تمّ استنزاف معظم ما وُجِدَ في عهد إخناتون على البَعثات الأجنبية وكبار الضيوف الذين مرُّوا بالبلاد، هل عن جهل ذريع بقيمتها التاريخية؟ أو من أجل مجاملات حمقاء من البعض، أو عن وازع دينيّ لدى قلّة جاهدتْ -ولا تزال- من أجل هدم كل حَجر من التراث المصري القديم؛ باعتباره أصنامًا؟ لا نعرف! لكنهم سَرَّبوا تاريخًا ماديًّا ومعنويًّا كان وحده كفيلًا بجعل مصر من أغنى وأرقى شعوب العالم!

وصل هذا التمثال النادر إلى بيت ماجدالينا في فيينّا ليتبوّأ مكانًا بعيدًا غريبًا عن موطنه، داخل دولاب زجاجي عتيق مُزوّد بجهاز إنذار مباشر متّصل بمركز الشرطة التابع للحيّ. هذا التمثال يتجوّل سرًّا في متاحف العالم، ويُكتَب عنه بحرص شديد وبقلّة في دوريّات أثرية متخصِّصة، بتعريف مختصر: (مُقتنياتٌ خاصّة).

نقف وجهًا لوجه، يداها تطوّقان عنُقي ثم تنزل يدها اليسرى حتى خصري تمتدُّ حتى ظهري؛ فأنشدُّ إليها، وأُحسُّ بطراوة صدرها على صدري؛ بنعومة الاحتكاك وانزلاق الجسم السّاخن الحيّ على الجسم الحيّ. لا أعلم أين أنا؛ في قاعة رسم، أم مع نيالا، أم في بيت ماجدالينا، أم على عُشب مع كاتارينا، أم عند نادين؟ لا أعلم في أيّ زمن أو أيّ

مكان من العالم أكون. تلتفُّ الذراعان حتى تُخفيانا معًا، ليس عندي
أيّ حَيْل. أشمُّ عطرها وأنا محموم أهذي وأسألها:
"هل التّوبة أن أنسى بعدها ذنبي أم ألّا أنساه؟"

الحُلم الآن يُبْعِده عن فكرة الانتقام من المسيطرين على أقدار الفنّ ومن لصوص الفنّ ومن مزيِّفي الفنّ. تختلط عليه الأزمنة والأمكنة. غُريُه الآن جعل ذاكرته حادّة تتذكّر التواريخ والأسماء، غُريُه شَفَّ الذاكرة. مشروب التوت البرّي الذي قدّمته له نادين ساعده على إيقاد ذاكرة الأسئلة، لكنّه بدأ يخلِط في أحلامه بين شُهْدَة ونادين وماجدالينا. في ثباته وتصنّمه كموديل قرّر أن ينتقم ذهنيًّا من راسماتِه وراسميه، لكنه انزلق في حُلم:

يسير وسط لون أخضر ناضر هو لون ملابس نادين، أو في لون وَشْم شجيع المولد. تختفي الأصوات من القاعة تدريجيًّا إلا من حفيف وخَشْخَشة تُربكه قليلًا. فتاة سمراء فاتنة بثوب حريري شفّاف تصُبُّ له كأسًا من نبيذ أحمر، فيدنو ويمُدُّ يده لجيدها، لصدرها، لبطنها، ينزع عنها غلالة حريرية فضّية مُطعَّمة بخطوط زرقاء. على جيدها قِلادة محفور عليها اسم غير مألوف بحروف عربية: "كانداسه"، يكاد يفهم معنى الاسم، لكن مشهد الحُلم يتسارع. كفُّها الملساء الدافئة الصغيرة تسري من صدره إلى أسفل. يقترب من التعرُّف عليها. تُشبهه تمامًا حتى في بسمتِها البطيئة الرّخيّة. تكلّمه بلسان مغاير لتوقُّعه، فلا يفهمها تمامًا، ويفضّ حريرًا آخر يرى لونًا أحمر قانيًا. تظهر شجرة تين عتيقة وامرأة تنتحب وأخرى عارية تستحمُّ. يحاول أن يستجمع وعيه وأن يستجمع تشظّي الصور، لكنه ينعَس ولا يعرف أين هو ولا يدرك مكانَ الحُلم، ولا ما كانَ في الحُلم.

كنّا في منتصف شهر ديسمبر والأعياد على الأبواب. الشوارع مزدانـــة بفوانيس ذات أضواء مُبهجة والمحالُّ في أُبَّـهةٍ وديكورات عيد الميلاد. شـــارع "يوسِف شـــتيتر شتْراسّه" كان أبهى الشوارع المزيّنة في ذاك العام. هي تسكن في الطابق الأوّل الذي تنبعث عبر نوافـــذه تلك الأضواء الزرقاء الملائكية مـــن كُرات ضوئية كبيرة على ارتفاع أحد عشر مترًا تقريبًا. تتسلّل إليه مثل سنا بدر في هذا الظلام الخافت فيروح في إغفاءة زرقاء ملائكية، يقوم منها مفزوعًا على صوت طرقعة ســـنابك خيول لعربة حنطور يسوقُها صاحبها الذي يبدو أنّ بوق ســـيارة قد أجفل فرسَـــيْه، فصهَلَتْ وأصدرتْ حَمْحَمة، كبَحَتْ ســـنابكها على الإســـفلت، بينما صاحب الحنطور يُصدر صوتًا عاليًا: "هيه هيه هيييه!".

انتفض مينا شـــاعرًا بأنّ بُـوق السيارة هو بُـوق حرب، والصهيل هو صوت حشد هادر لـبشر على هيئة زرافات ذاتِ صوت راعد مـروِّع؛ وأنّ زعيق الرجل هو صوت جنرال صارم يخطُب بعصبية. للـحظـات لم يســـتطِع تمييز الزّمن ولا التوقيـــت ولا المكان، ولم يجرؤ على النظر من خلف النافذة. ترك الخيال الأزرق يفسِّر له الواقع!

في تلك اللحظة يتذكّر أباه ويتمنّى أن يـرث ذاكرة أبيه المُشوَّشة؛ أنِ يستعيرها ولو لساعة، فالذاكرة اليقِظة دائمًا مؤلمة؛ عكس ما يظنّ البعض. النســـيان نعمة غير منذورة للجميع. هو من قِلّة نادرة حين تُمل تتذكّر أكثر ممّا تنســـى. دائمًـــا يعود من ثُمالته مُحمَّلًا بهواجس بُرهقه تفسيرها.

يتمنّى في هذه اللحظة الضبابية أن يكون مثل أبيه. يقولها كمن يقرأ نصًا مقدسًا: "ليتني الآن مثل أبي!". كان أبوه يناديه: "يا رمسيس.. يا مَهْدي، يا إيزيس!"

يساعده بذِكر الاسم: "مينا معاك!"

يردُّ الأب بضيق: "عارِف.. عارِف إنّكْ مينا يا سي مينا!"

مينا بدوره يصمُت ولا يجادل؛ فالصمت في هذه الحالات أحسن تبجيلًا. مع العِلم بأنّه لم يكُن هناك أحد اسمه مَهْدي في الأبناء أو العائلة أو حتّى في الأقارب أو المعارف!

يخلطُ الأبُ كلّ الأسماء، خصوصًا أسماء نساء العائلة والقريبات والمعارف والجارات، يقصد زوجةَ الابن أو الحفيدة؛ لكنه ينطق بالاسمِ الخطأ. تعوّد الجميع تدريجيًا -حين يستفسر الأب عن شخصٍ ما- أنّه لم يعُد المهم التأكد من هُويّة هذا الشخص المقصود، فردُّ التطمين هنا هو الأسلم: "بخير.. بخير!"؛ فأيٌّ مَنْ كان يسأل عنهنَّ أو عنهم، هم عادةً بخير أكثر منه. هو الذي ليس بخير.

يعود ليتذكّر ويقارن بين أبيه القديم العفيِّ -صاحب الذاكرة الماسية التي تفل الحديد- وأبيه المتحدّث على التليفون الذي يكرِّر له الحكاية نفسها عشرات المرّات، حتى تعوّد معه تدريجيًا على الكذب. يستمع لحكاية المرة المائة على أنها المرّة الأولى، يبدي دهشته أو امتعاضه حسبما تقتضي الحكاية المكرورة. يزرع أسئلته للأب بمُخاتلة بين ثنايا استرسالاته دون إنصات تامّ لردود الأب. هكذا كان يرى أن لخبطة أحداث الحياة من الطاعنين في السِّنّ ينبغي أن تُقابَل باضطِراب وحِلم وقليل من الخداع والمراوغة.

تؤرِّقه الآن أسئلة ما بعد غيابهم: لماذا كنّا نمقُت هذه الأوقات وهذه التكرارات في حياتهم ووجودهم ونتملمَل منها؟ ولماذا نستعيدها بعد غيابهم بحنين وأسى؟ ألم يستمعوا هم لاستفسارات طفولتنا الساذجة

مئات المرات وردُّوا على سذاجاتنا الغريرة بلا أدنى ضيق أو تبرُّم، بل كرّروا بطولات أسئلتنا وعذوبة ونباهة أجوبتنا بكل فخر أمام الملأ في كل لقاء؟

لماذا نكره هذه التكرارات التي تشكِّل ذاكرتنا وتعضِّدها دون أن ندري؟ الذاكرة تراوغني وأنا أُنصِتُ لصوت الماء النازل من الدُّشّ البعيد. نادين تستحمّ الآن وعلى عادتها تنطلق أغنياتها المفضّلة بهَمْهَمات أُمومية تُهَدهِدُني بالنُّعاس. الآن الدفء في العُزْي اطمئنان. الآن لا أحد يسْتَلِب رُوحي في خطوط. أغطّي جسمي باللِّحاف الوثير المرسوم بنباتات الخَشْخاش بلونها المغرور بحُمْرته القانية الرائقة ونسمة خفيفة باردة تغزو ظهري. ألوذ بأحلام يَقَظَتي وهلاوِسي عاريًا في سرير نادين الدافئ.

11

"خلقتني له يا رب؛ فكيف تبعدني عنه؟ أستغفرُك وأتوب إليك، قلبي واهِن ورُوحي تذوي. قد أكون عاصية أستحقُّ الرَّجْم ونار جَهَنَّم، لكنّي أطمع في عفوك ومغفرتك. أنت يا ربُّ مَن غرسْتَ حُبَه في قلبي؛ فخفِّف عنّي وأعِنّي، أنت المُيسِّرُ المُعين!"

كانت تقرأ من الورقة التي كتبتها هكذا بلغة فصيحة. تدرّبتْ لأيام على الدعاء بها، وفي كل مرّة تحاول أن تتذكّر الكلمات غيبًا لكنّها تنساها؛ فتدع الورقة جانبًا وتدعو في سرّها بلهجتها العامية الأسهل لها.

يطوف الناس حول الكعبة لغسل ذنوبهم وتطهير أنفسهم، ويتبرّكون أحيانًا بأولياء الله الصالحين ومن يُعتَقد في كراماتهم، رغبة في طمأنينة القلب، وطلبًا لسكينة النفس. هي ذهبتْ بنِيَّة الاستغفار المُقَدَّم عن ذنب سيأتي؛ ذنب تعرف أنّها سترتكبه، وتَعلم أنّها ستأثم غَضبًا عنها. تبكي أثناء زيارتها لمسجد البيّومي وللسِّت آمنة، اعتبرتهما

مقامَيْــن، حكى لها مينا عنهما وعن طفولته الرائعة، أرادت أن تعود بالزمن مَجازًا وتلتقي بهذا الطفل الصغير وتبثّه محبتها منذ البدء.

تشــعر أنّها وحيدة، لا قلب قريبًا منهــا يجبُرُ خاطرها. الصداقات في السّنوات الأخيرة تتلاشى عند الناس بحُجّة الانشغال والأولاد والأحفاد. "الدنيــا مشــاغِل" يقولها الجميع كتبرير مريــح للتهرُّب من واجب الصداقة الأصيل. تحت سَــطوَة وسائط التواصل الاجتماعي المتعدِّدة يتزايد عدد الأصدقاء والصديقات في صداقات افتراضية يهيمن عليها السطحي والهامشي والصورة. عند الحاجة الجادّة لصديقة تشاركها الهمّ؛ لا تجد، وتصبح الوحدة وَسْــط هذا العالم الصاخب الواسع كمَن يبحث عن نقطة مياه عذبة في بحر مالِح مَهيب.

ذكرتُ لكم في البداية أنّني ســوف أحدِّثكم عن حُبّ شُهْدَة الذي وصل لسبع مرّات، حين ذكرتُ هي ثلاث مَحبّات فقط دون أن تسرد إلا النّزر اليَسير، ولم تكذِب علينا، لكنّها تغاضتْ عن ذِكر تفصيلاتٍ مهمّة عن شخص كانٍ وما زال الأقرب لها. كلّ حركات التمرّد العاطفي الخجول التي ارتكبَتْها، من افتِتان بآخر أو غرامٍ بلحظة، كان بريئًا لم يتجاوز حدودِ النّدَم. لكن هناك دائمًا في حياة كل امرأة شــخصًا وحيدًا يلمس شِــغافَ قلبها، صحيح هناك حبّ أوّل، لكنه ليس بالضرورةِ الأعمق، هو الأقدم تاريخًا فقط، والأســرع في الاســتعادة، لكنّ الشّغَفَ الأوّل الأصيل، والوَلَهَ الصافــي يحدث مرة واحدة في العمر، ولا علاقة له بالترتيب.

كنّا أربعة ركّاب داخل التاكســي. هي جالسة في المقدّمة جوار الســائق وأنا خلفها تمامًا منشغل بمكالمة تليفونية، كنتُ فخورًا بهذا

"الموبايـــل" رغم أنه كلّفني في ذاك الزمـــن كثيرًا، وكان من أوّل شـركة رائدة دخلتْ هذا المجال في مصر. بجـــواري جَدّ وحفيده الصغير الذي أجْلَسَـــهُ بالقرب من النافذة ليتفرّج على زحام العالم. الجدّ يشرح له الدنيا ويقارن كلّ شارع ومبنًى ورصيف نمُرّ به بما كان عليه الحال قبل خمســين عامًا؛ أيام الملك فاروق، وكيف كان شكل القصور والجنائن في هذه الأمكنة التي نعبُر بها، أو ينبِّهه لما تبقّى من عِزّ غابر، ثــم ينتقل لأيام عبد الناصر بعد تحوُّل المملكة إلــى جمهورية. صوت الجدّ كان أعلى مـــن المعتاد، وكأنّ حديث المقارنات هذا لم يكُن موجَّهًا للطفل الصغير بل لنا نحن: للسّـــائق وللجالسة أمامي ولي. وكنوع من أدب التواصل الاجتماعي المباشر أثنـــاء التواجد في هذا النوع من المواصلات الخاصّة، صرتُ أهُزّ رأسي موافقًا كلما تلاقتْ عيوننا، بينما كنتُ أُتابع محادثتي الهاتفية بصوت خافت.

عطر مُلفِت غمرني وخفّف عنّي خنْقة هذا التاكســي، عطر له رائحة السّــكّر الممزوج بِماء الـــورد، تذكّرت عروس المولِد التي أردت أن أقتنيهـــا ذات يوم بعيد لمّا كنتُ مـــع جدّتي في احتفالات مولد النبي.

تلك الجالسة أمامي شَـــعرها طويل كثيف منساب بتموُّج مُلفِت يغطّي جانبيْ الوجه، لم أنتبه أثنـــاء ركوبي لملامح وجهها. كانت

أمامي ومَسـنـد رأسـهـا مرتفع يمعن في إخفائها. كنتُ منشغلًا في المحادثة التليفونية مع صديقي إلهامي الذي جهز لشِـلـة الأصدقاء سهرة من سهراته العامرة التي لا نفوّتها مهما كان.

"الحمد لله على كلّ شـيء!" قالها السّائق فجأة بصوت أسيان، بعد أن أعلن موتور التاكسـي عن صمت مفاجئ، فلم يتبيّن ماذا رأى أو ماذا حدث. تعطل التاكسـي وسـط الطريق والحرّ والزحام وضجيج عشـرات من أبواق السّيارات الغاضبة التي اضطرّت للتوقف خلفهم. أنهى المكالمة ونزل يدفع معه السّيارة إلى جانب الرصيف.

سـيحدث هنا ما سـيغيّر دنيا اثنين من البشر، قبل أن يدفع كلّ راكب مبلغا للسّـائق الذي كان هادئا، لم يسـبّ أو يلعن العطل الذي حدث كما هو معتاد. كان راضيًا بقدره، بل شـكرهم على ما دفعوه واعتذر لعدم إمكانه توصيلهم. وقف يحاول بنفسـه إيقاف تاكسـي آخر لهم، لكن مينا شـكره وأكد له أن لا داعٍ لذلك وسوف يجدون بالتأكيد حلا، وعليه أن يهتمّ بسيّارته.

تمنّيتُ ألّا يجِد سائق التاكسي مكانًا للآنسة التي معنا في تاكسي مارّ؛ لأنّه سـيكون لها ذوقيًّا الأولوية. لِحُسْـنِ الحظّ انْصَاعَ لرأيي بالاهتمام بسـيّارته وانشـغَل في فتح غطاء محرك التاكسي، وبدأ يبحث عن سبب العُطل.

أثناء نزول الآنسـة الجالسـة في الأمام، وقـع كتاب غُلافه ذو دوائر حمـراء متداخلة عنوانه (الهَذَيانُ والأَحْـلامُ في الفَنِّ). في اللحظة التي مِلتُ معها لالتقاطه انْفَتَحَتْ عُروة بُلوزتها وبان منها ما يُشـبه صليبًا فِضّيًا. رفعتُ الكتاب سريعًا واعتدلتُ، قرأتُ العنوان

بصوت عالٍ، وهو تصرُّف غريب لا أفعله بهذه الجلافة، لكنّ العنوان شدّني. تابعتُ فورًا بأنّني أظنُّ أنّني قرأتُ هذا الكتاب من قبلُ، أو ربما كان عنوانًا آخر أتذكّره جيِّدًا هو (الحُلْمُ وتَأْويلُه).

"(الحُلْمُ وتَأْويلُه) فعلًا عنوان كتاب آخر لسيجموند فرويد، وللمُترجِم نفسه جورج طرابيشي!". ردَّتْ عليَّ بصوت أكثر فِتْنة من توقُّعي.

الجدُّ قرّر أن يكمل مشواره مع حفيده على قدميْه، فهما قد اقتربا على حَدِّ قوله من البيت. ودّعنا كأنّه يعرفنا منذ زمن؛ فتأكّدتُ من انّ حديثه "النُّوستالجيّ" في التاكسي عن جَمال أيام زمان، كان يخُصُّنا به بشكل غير مباشر كما خمّنتُ.

شيء ما بهرَني في صاحبة ما يشبه الصليب الفضي، لا أدري ما هو، ربما رائحتها الخفنفة الوردية المسكّرة، أو شَعرها المائج الطويل الغزير أو نظرتها، أظنُّ أنّ صوتها كان فيه ما سحرني، أو ربّما اعتدادها بنفسها، لا أدري، ربّما كلّ هذا.

"اسمي مينا.. مينا سليمان."

"وأنا اسمي نِيالا."

"اسم جميل.. وَقْعه جميل!"

لم يسبق لها أن غيّرت اسمها في أيّ يوم. لكنّها لا تدري ما الذي دفعها لتغييره فجأة في تلك اللحظة. ربّما تلك الأسطورة التي قرأتها منذ فترة وتأثرتْ بها وظلّت عالقة بذهنها عن شابّة أفريقية. ففي مكان بعيد وزمان أبعد جرَتْ العادة أن يقدّم كل شخص أغلى ما عنده للآلِهة إن كانت له أمنية عزيزة المنال، وإن قبلَتْ هديّته التي تُعتبر قُربانًا، فعليه أن يعود بعد أيام سبعة ليطلب تحقيق أمنيته الغالية. كان أجملِ ما يميّز هذه الفتاة هو شعرها الغزير الفاتن. قدّمتْه قُربانًا للآلهة لأمنية في نفسها. قبِلَته الآلِهة. عادتِ بعد أسبوع لتطلب طلبًا غريبًا؛ أن يمنحها الآلِهة شعرًا طبيعيًّا طويلًا ينمو على رأسها كلّ يوم، فإن قصّته ينمو في اليوم التالي لشِبْرَيْن. منحتها الآلِهة ما تمنّتْ.

وتحكي الأسطورة أنّ نساء القرية أُصِبْنَ بمرض غريب تساقَطَتْ شعورَهُنَّ على إثره، في الوقت الذي حقّقتْ فيه الآلِهة أمنية الفتاة، فصارت تقصُّ شعرَها كل يوم وتقدِّمه لواحدة من النساء اللاتي فقَدْنَ شَعرهنَّ. فعلتْ هذا لسنوات طويلة حتى ابيَضَّ شَعرها، والنساء يَقبَلْنه ويتَبَرَّكْنَ به، وصارت فتاة يُضرَبُ بها المَثَل. كان اسمها نِيالا!

كان العُطل قد حدث على الجانب المقابل من محلّ جروبي، سألها:

"ما رأيُكِ لو نشرب عصير ليمون في جروبي؟". اختبرته بنظرة سريعة وترددتْ قليلًا، ففي قرارة نفسها رَغِبَتْ، لكنّها اعتادت أن ترفض مثل هذه الدعوات الرعناء خارج أسوار الجامعة. حسّ بعيد يراودها كان له التطمين والفوز:

"لا مانع!"

تَعَجَّبَتْ من سرعة موافقتها وفوجئ هو بالقَبول السّريع. كان سيكتفي بطرح بعض الأسئلة من أجل تعطيلها بضع دقائق. طمأنتْ نفسها بأنّ هناك على الأقلّ "دوائر" لحديث مشترك يمكن أن يدور حول

سيجموند فرويد، وهو ارتاح لأنّه شعر فعلًا بأنّ هناك كلامًا كثيرًا يمكن أن يُقال.

كان عامًا صعبًا ومُربكًا لعائلة إيزيس، أبوها لم يتمكّن من الاحتفال بـ"السُّبوع" الذي جهّزوا له منذ أسابيع طويلة احتفالًا بأوّل ولد في العائلة. إيزيس هي الأختُ الكبرى لمِينا ثمّ تلاه رمسيس أو الحاجّ رمسيس بعد عشر سنوات.

الأب سليمان محمود عبد الماجد مدرّس التّاريخ العاشق له، سمّى ولدَيه وبنته الوحيدة بأسماء مصريّة قديمة يبجّلها ويحفظ أدقّ تفاصيل تاريخها غيبًا. قارئ نهِم ومُحاور ذكيّ ساخر. كان يشارك بلَدَغات مشهورة في بريد القرّاء بجريدة يوميّة شهيرة، يتهكّم فيها بشكل مُبطّن على الأحوال السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة المائلة تحت اسم "أبو إيزيس المصري" من قبل أن تولد إيزيس.

قُبِضَ عليه واحتجزوه صباح اليوم الذي وافق الاحتفال بـ"سُبوع" مينا الابن الأوّل له. تركوه لوقت طويل يكتب تهكّماته ونقده بما يوحي بديموقراطية النظام وهم يترصّدونه دون أن يدري. لفّقوا له تهمة جاهزة مع لفيف من المعارضين الذين لا علاقة له بهم، ردّدها الإعلام آنذاك تحت عنوان باذخ صارخ يهزّ الدنيا: "مخطّط شيوعيّ لإحداث بلبلة واضطرابات لقلب نظام الحُكم!"، اعتبروا سليمان أبو إيزيس المصري ناشطًا سياسيًا يساريًا. ألم يكن هو الذي يُنهي كل رسالة له في بريد القُرّاء بالجُمل التهكّمية المسجوعة التي تتردّد في وَقفات الاحتجاجات الغاضبة على غِرار: (هُوَّ بيلبس آخِرْ مُوضه.. وِإحْنَا بِنُسْكُنْ عَشَرَه فْ أُوضَه) أو (سَيِّدْ مَرْعِي يَا سَيِّدْ بيه.. كِيلو اللَّحْمَه بَقَى بِجْنِيه) وغيرها من سخرياته اللاذعة؟

كانت انتفاضة الخبز قد اشعلت النار في البلاد، فخرجت مظاهرات

جانشـــة هانجة ضدّ مشروع الميزانية الجديد الذي سيرفع من أسعار المواد الأساسية، حتى استجابت الحكومة لصوت الجماهير السّاخطة وتراجعتْ عن تلك الزّيادة المُخطط لها في الأســعار، وخرج الرئيس السّــادات آنذاك حانقًا متَوَعّدًا، واصفًا هذه الانتفاضة الجماهيرية بـ (انتِفَاضَة الحَرَامِيَّة).

أمّ إيزيس ارْتَدَتْ الأسود في شهر مارس من العام نفسه بعد صدمتها في وفاة الفنّان عبد الحليم حافظ، الذي مثّل لها تاريخًا وجدانيًا أبهَجَ حياتها وجَمَّل ذكرياتها، كان سليمان يلومها بمحبة لِلبْسِها الأسود:

"كُنت فاكرك حتقولي لي: إنتا وبس اللي حبيبي.. ولا فيش غيرك ع البال!" فتَرُدّ عليه:

"حليم هو السّبب إني حبّيتك يا سليمان! إنتا نْسيتْ؟ مين اللي أهداني أجْمَل شرايطه أيّام الخطوبة وبعد الجواز كمان؟"

كـــان يضحك ويحتضنها ويُقبّلها في جبهتهـــا، ثم يُقبّل الرضيع الذي ينظر إليه بعيون زائغة وتنضمّ إليهم إيزيس.

كان سليمان يرى أنّ الناس تفهم معنى الفلسفة بشكل مخالف لمعناها، فهم يقولون مثلًا: (الفلســـفة الدينيـــة) ولا يُمكِن من وجهة نظره أن تخلط هذه الخلطة في وعاء واحد إلّا إذا آمَن الناس بمعنى تغيير فهم الدين؛ لأنّ الفلسفة تعتمد الشكّ في أصول الأفكار والمذاهب؛ الفلسفة تُنكِر الثبات، والأديان ثابتة.

اعتبروه إلى جانب يساريّته مُلحِدًا. سألهم:

"وما هو الإلحاد؟" أجابوا:

"هو إنكارُ وجود اللـه!"

"وكيف تُثبِتون انّني أُنكِرُ وجود اللـه؟"

"لأنّك تُؤمِنُ بالفلسفة!".

"أنا أؤمِنُ بالتغيير!"

اقتــرب الطفل مينــا من عامه الأوّل، وكان قد بــدأ يجلس ويتدحرج ويزحف ويحبو ويُثير مَســرّة وحُبورًا لإيزيس بصفة خاصة قبل أيّ شــخص آخر، لكنّ سليمان وصل إلى أسوأ حال -نفسيًا ومعنويًا- لِما يراه على شاشــة التليفزيون: (الرئيس أنور السادات يزور إسرائيل ويُلقي كلمة في الكِنيسِت!).

يكتب ســليمان ويتهكّم ويسخَر ويستهزئ، ليعود مجدَّدًا إلى السجن ضمن اعتقال جديد.

أمّا كامل إمــام المحلبي فكان يعمل بالسّــفارة الإيرانية في القاهرة. قبل مولِد ابنته شــهْدَة بأيام، وصل شــاهُ إيــران محمد رضا بهلوي مع عائلته إلى مصــر، بعد إرغامه على مغادرة إيران للمرّة الثانية، وبعدها بأســابيع قليلة أعلِنَتْ إيران كجمهورية إسلامية، وأصبح آية اللــه رُوح اللــه الخُميني قائدًا للثورة الإســلامية، وتغيّرت الأمور والأحداث والسياسة، وفقَد أبو شُهْدَة عمله في السّفارة.

كان عام مولد شُــهْدَة حافلًا بأحداث عالمية مؤثــرة، تغيّرتْ أحوال كثيــرة في مصر وفي العالم، ومن ضمن هــذا التغيير المصيريّ هو لقاء هذيْن الجالسيْن الآن في محل جروبّي في مصر الجديدة، اللذيْن لا يدركــان المصير الذي جمعهما معًا ومــاذا رتّب لهما ولا إلى أين ســيأخذهما. ربّما كان هذا العُطل الذي حدث للتّاكســي بمثابة إشارة إلَهية لقَدَر ينتظرهما.

مينــا أكبر منها بعاميْن إلّا يومَيْــن فقط، هو من مواليد بُرج الحوت، وهــي من بُرج الدلــو. كانت تأخذ موضوع الأبــراج بلا هَزل، ومن يدخل معها في جدال لا بُدّ أن يخرج خاســرًا، فحديث الأبراج معها لا

لا يَخضَــع لمَنْطِق يُمكِن دَحْضُه، أو ربّما هو حيلة ماكرة لفتح أبواب الأحاديث في كلام عامّ يثير البهجة والحماس عند أغلب الناس.

في محلّ جروبّي بعد حوار طويل سـلِس رزين بلا اندفاع ولا تهوُّر، كان هناك ما يربِطهما: الديانة الخطأ لكليهما.

لم تكن السَلسـلة التي اعتَنَقَتها نِيالا صليبًا كما شُـبِّه لمِينا، بل كانت مِفتاح الحياة، الذي بدا له للوهلة الأولى على شـكلِ صليب لاختفاء دائرته العُلوية في بُلوزتها، ولم يكُن اسمها نِيالا بل شُهْدَة كامل إمام المحلبي.

اسـمه الكامل: مينا سليمان محمود عبد الماجد. ستعشق بسببه اسم نِيالا، وهو سيُتَيَّم بهذا الاسم إلى الأبد.

12

أسكن في الطابق الأخير من هذا المبنى العتيق، والطابق الأخير هنا في ڤيينّا كان طابق فقراء المدينة ومهمَّشِيها حتى نهاية الألفية الثانية، فمعظم البنايات التي أُنشِئَت بعد الحرب العالمية الثانية، شُيِّدت باستعجال لا فنَّ فيه، نوافذها مربَّعات أو مستطيلات مُتقزِّمة بطوابق قَصيرة القامة، كأنّ الناس يعيشون في قُمْرات سفينة. سُقوفها من الداخل واطِئة كسقف أتوبيس وجدرانها الخارجية مُسَطَّحة عارية بلا أيّ تشكيل فنّي. فضلًا عن ذلك فإنَّ معظم البنايات ليس بها مصاعد، ودورات مياه الشقق توجد خارجها، وأحيانًا مِرحاض واحد مشترك لعدد من الشقق. لم تكن أُبَّهة الطوابق العليا الحديثة قد ظهرتْ بعد، وهي تلك الطوابق المُضافة المُشيَّدة على أسطُح البنايات، عن طريق إدخال تعديلات على الطابق الأخير من

خلال تصميمات غاية في الفَخامة والشـــكل الفاخر والتي يستطيع فقط المُوسِرون السُّكنى فيها، وأحيانًا يزرعون فوق سطحها حديقة صغيرة بوُرود ونَجيل وبعض النباتات والشُّـــجَيرات، وربَّمـا يوجد حمّام سباحة صغير وبار في أحد الأركان وصالون في شكل شُرفة مفتوحـــة عاليًا في الهواء الطلْق تُطِلّ باســـتعلاء واختيال على بقية بيوت وأسطح المدينة الواطئة. (شُرفة السطح) كما يُسمُّونها يُمكن للمرء أن يرى منها حدود المدينة من الشمال مثل جبلَيْ "ليوبولدْس بيرج" و"كالين بيرج" اللذَيْن يرتفعان لأقلَّ من خمسمائة متر بقليل، وقد ترى نهر الدانوب وعَجَلة الدانوب العملاقة وقَصْر "الشُونْبرون" ومعظم المساحات الخضراء التي تطوِّق حدود المدينة عن بُعْد.

شقّة "سيلڤيا" صديقتي الممثِّلة كانت من هذا الطراز.

المبنـــى الذي أسكن فيه ربَّما كان مُعَرَّضًـــا للإزالة، سُكّانه قِلّة متناثرة داخله وشـــكله يَصْعُب على الترميم، الشُروخ والتصَدُّعات التي فيه أكثر من المعتاد، وأكاد أجْزِم أنَّ نوافذه لم يُجْرَ لها صيانة منذ تشـــييد المبنى، لكنَّه على عكس المباني التي شُيِّدَت بعد خراب الحـــرب العالمية الثانية، يبدو في بعض ملامحـــه من الخارج أنَّه تباهى في زمانه بِمَجْد غابر؛ فالمبنى على طراز تلك الحقبة، وهو "اليوجِند ستيل"، كأنَّ البنايـــة محمولة على ظهر تَمثالَيْن لامرأتَيْن بارتفـــاع ثلاثة أمتار تميـــلان فوق البوّابة من الخـــارج برأسَيْهما لأسفـــل، فكأنَّهما أيضًا تَحرُسان البوّابـــة وتُراقبان كلّ داخِل منها،

وفــي آنٍ يبدو -من ثِقَلِ انحنائهمــا وملامحهما- أنَّ الزَّمن والمبنى يَرْزَحان فوق كَتِفَيْهِما منذ قرون.

واجهة المبنى آيَة في الإتقان والجمال بأشكالها المنحوتة المُلفِتة المطموسـة في الغبـار: وجوه لبَشَــر ورؤوس لحيوانات وطيور ونباتــات وورود، وزَخْرَفات بارزة لفواكــه مثل التفّاح والكُمَّثرى والفراولــة والعِنَب، وعدّة أزواج مــن الأفاعي تلتفُّ حول بعضِها مُتصاعِدة لأعلى ليواجه كلّ رأس الآخَر، وأُسُود فاتِحة خُشُــومَها، تتدلّى من بين أنيابها حلْقات، ووجوه لنســاء يَنْظُرْن يمينًا أو يسارًا أو للأمــام، أمّا الطيور فكان أغلبهــا لصقور فارِدة أجنحتَها. توجد هذه الأشــكال في واجهة المبنى بالكامل مع تكرارات مُنَسَّقة. فقط لم أستطع أن أفهم مغزى اختيار سَعْفات لنخلة وهي شجرة لا تَنْبُت أبدًا في هذا المكان البارد، لكنَّ رؤيتي لها مسَّــتْني بحنين ودفء، فصِرتُ تلقائيًّــا كلّما تأمَّلتُ المبنى تقع عيْنــاي أوّلًا عليها. منظر المبنى يوحي بأنّه كان في شبابه بَهِيًّا بكلّ تأكيد.

دائمًا هناك مســافتان تجلبانِ المُقارنةَ؛ مسافةُ بُعْدِ المكان التي نَحِنُّ فيها لِما تركناه في مَوْضِعٍ نَأى عَنا، من ذكرى رائحة المكانِ ورُوحه وتُرابه وحتى غباره وعَبَله؛ ثمَّ مســافة بُعْــدِ الزَّمن التي نَرْثي فيها الماضــي، أيام الطفولة والصِّبا والشــباب، وزمن الحماقات الجميلة الذي نُطلق عليه كثيرًا وكلّما ســارت بنا الحيــاة: (الزَّمن الجميل). هنا في فيينّا يشــعر مينا من وقت لآخر أنّه يَرْزَحُ بين مِطرَقة الرِّثاء وسِنْدان الحنين.

عِشْتُ سنوات في بيت جَدّي الأكبر -عبد الماجد الشمسي الذي اشْتُهِرَ أكثر باسم عبد الماجد الخَشّاب- قبل أن ننتقل منه لبيت صغير في شمال شرق القاهرة. كان جَدّي تاجِرًا كبيرًا يعمل في تجارة الأخشاب بالجُملة. بدأ باستخدام أنواع الأخشاب التي تتواجد في مصر مثل خشب التُّوت والسَّنْط الذي كان يدخل في صناعة المراكب بشكل أساسي، وكان يتعامل مع مدن القنال: السُّويس والإسماعيلية وبورسعيد، وبالطبع كان للإسكندرية نصيبُ الأسَد من أخشابه من أجل تشييد الأسطول البحري الملكي الذي عمل فيه حَشْد من العُمال المَهَرة من تركيا وإيطاليا واليونان ومالطا، ثم أصبح يستورد أخشاب السِّنْدِيان والجَوْز والكَرْز من "جُبِيل" في لبنان، والأبنوس من السُّودان، ويتعامل مع أهل دِمْياط لمهارتهم في صُنْع الأثاث وصناعة الأرابيسك خاصّة للمساجد، واستطاع في وقت مُتأخِّر استيرادَ بعض أنواع الخَيْزُران والبامْبُو من سنغافورة وإندونيسيا.

جَنى ثروة كبيرة في الفترة التي كانت تُبنى فيها نوافذُ البيوت وتُجمَّلُ جدرانها وأسْقُفُها آنذاك بخشب الأرابيسك، وتحتشد ديكورات البيت الداخلية بِتُحَف خشبية في معظم أثاثها. اشترى بيتًا قديمًا مُهْمَلًا غارقًا في الغُبار، فَقَدَ مَجْدَهُ بنُزوح أهله عنه، باعه الوَرثة الذين تنازعوا عليه ولم يتمكّنوا من العَيْش فيه أو من ترميمه. بيت مملوكي على الطراز القديم، موقعه كان غريبًا في هذا الشمال

الشرقي من القاهرة، مختلفًا فريدًا وَسْطَ بيوت مُختلفة الطراز.

حَكَتْ لي عَمَّتــي زُهَيْرة عن تاريخ هذا البيت الذي تهدَّمَتْ منه أجزاء وتغيَّرت ملامحه ولَحِقَته تجديدات مُسْـتَحدَثة لا تتناسب مع مظهـره العتيق، وحدثت خلافات بيـن الوَرَثة على مدار تاريخه. تقاعسوا عن الاعتناء به، ونشأتْ داخل البيت الواسع أسوار وجدران وهمية فاصلة بسـبب الخصام، وأُهمِلَتْ أشجارُه ونباتاته القديمة، وجَفَّتْ الفَسْـقِية البديعة، وتشـقَّقَتْ وتَخَلَّعَتْ الكثير من الرُّخامات الثمينة، وتَكَسَّـرَتْ أغْلَبُ البلاطات، وبَهَتَ ما تبقَّى من أثاث جاهد طويلًا ليُحافظ على عَراقة غابِرة ارتَدَتْ أرْدِية سميكة من الغُبار.

في المدخل كُتِبَتْ جُملة مَنْحوتة لا أنسـاها فـي حَجَرِ المدخل بخـطّ كُوفيّ بديع مُزَرْكَش، بدا لي في سنوات طفولتي كزخرفة لا ككتابة، خصوصًا حرف النون المُكرّر بشـكل بديع، حتى شَرَحَتْ لي عمَّتي زهيرة أسـرار الخطوط العربية وكيفية قراءتها. الجملة كانت: (للاسْتِئْذَانِ ثَلاثٌ: لِسَانٌ وَكَفٌّ ودونَ آذانٍ).

كنتُ أحبُّ خَوْخة البيت، وهي تمثّل لي البابَ السـرّي للدُّخول: بُوَيْب صغيـر يُفتح من داخل باب واسع بعـد الدخول من البوّابة الرئيسـية، وتُمثِّل الخَوْخة مدخل نسـاء البيت، فَهُنَّ لا يَدْخُلْنَ إلى باحة البيت من الباب الرئيسـي؛ بل من هذا البُوَيْب الموجود على اليمين. يُفتَح بِمِزْلاج صغير ويؤدّي إلى مَمَرّ جانبيّ طويل بسـلالم

تصعـد للطابق العلوي حيـث الحَرَمْلِك في طـابق النســاء. رجال البيت لا يدخلون من هذه الخَوْخة عادة، بل يســيرون للبهو والفناء ويجلسون في التّخْتَبُوشِ صَيْفًا -وهو جزء مُعَرّش من الفِناء- أو في حجرة الضيوف شتاءً. هو إرْث عُثماني رأته عمَّتي زُهيرة لا يقيّد النســاء بِقَدْر ما يُتيح لَهُنَّ حُرّيــة الحركة في عالمهنَّ داخل البيت، هكذا أقْنَعَتْني.

كان يُســمَحُ لنا نحن الأطفال الذكــور بالدخول من هذه الخوخة دون أيّ استئذان حتى سِنِّ العاشرة، بعدها كانوا يعتبرون أنَّ عيوننا قــد نضجَتْ وأصبحتْ عيــونَ رجال صغــار، فَصِرْنا نجلس في مجالس الكبار ونقابل الضيوف باحترام ونصبِر على رَزانة مُمِلّة، ونُسَــمِّعُ عليهم ما حفِظناه من آيات وأحاديث وأشْعار. انتقلنا نحن الصبية الصغار بين يوم وليلة إلى صفوف الكبار، نَتَنَحنَح ونُصَفِّق ونُقَلِّد الرجال لتحذير نســاء البيت حين ندخل عليهنَّ بكلمات مثل: "يــا ساتِر.. يا رَبّ يا ساتِر.. إحِــم إحِم!" ولمّا لم نَكُنْ قد بلغنا بَعْدُ؛ فقد كانت أصواتنا مُضْحِكة كأنَّها أصوات صبايا وليســت بأيّ حال لرجــال صِغار، لكن لم يَغِبْ عنّا التَّباهي والزَّهْو الدَّفين بأنّنا كبرنا وأصبح ظهورُنا يُشتِّت النساء!

دائمًــا كان الدخــول من هذه الخَوْخة على السُّــلَّم الذي نصعده بالالتفاف إلى اليسار. من كثرة صعودي عليه انطبع في ذهني دَوْمًا

أنَّ أيّ درجات ألفُ فيها عكس اتِّجاه الســاعة هي درجات خاطِئة، وأن مصمِّـــم البيت قد أخفق في تصميمه لبديهية طبيعية؛ ففي ظنّي أنّ الســلالم لا بُــدَّ أن تُرْفَعَ دومًا لنصعدها ونلــفَّ عليها في اتّجاه الســاعة، إلى اليمين. لا أعرف من أين طــرأتْ عليَّ هذه الفكرةُ العجيبةَ!

"ما معنى للاستئذانُ سَلاسٌ: لسانٌ وكفٌّ ودونَ آذان؟"

استفسرتُ من جدّي وأنا في الخامسة. لن أنسى ضحكتَهُ الرنّانة فــي ذاك اليوم وهو يضمُّني إليه بحنــان ويُقبِّلني، ويطلب منّي أن أُعيــد الجملة مرّة أخرى، وأخرى، وفي كلّ مــرّة أنْطِقُها يضحك مُهتَزًّا من شدّة السعادة.

أعطاني في ذاك اليوم درسًا في نُطْق الحروف اللثوية. وأفْهَمَني أنَّ الجملة تعني أنَّ على الضيف الاستئذان قبل الدخول أوّلًا بلِسانه؛ أيْ بالصوت، ثــمَّ بالكفّ؛ أيْ أنْ يَقْرَعَ علــى الباب قبل الدخول، أمّــا "دون آذان" فالمقصــود بها ألّا يَتَنَصّتَ علــى أهل البيت قبل الدخول.

عادت إليــه ضحكته الرنّانةُ وأنا أحاجِجُه عن اكتشــافي للبناء الخاطئ للسُّــلَّم. قال لي ببساطة: "ولمّا بتِنْزِل السّلّم.. بتِنْزِل في أيّ اتجاه؟". لــم أرُدّ. ذهبتُ فورًا وجرَّبْتُ، فوجدتُ أن عنده حقًّا؛ ففي نُزولي أنزل فعلًا في اتّجاه دَوَران الساعة.

ما زلتُ أتذكَّرُ تفسـيرَه الذي قال فيه، إنَّنا في دائرة الحياة ندور مرّات في اتّجاه السـاعة ومرّات عكسها دون أن نَدْري أو نَحْسِب، لكن حين تتساوى مرّاتُ الدوران في الاتَّجاهيْن نَصل لراحة الرُّوح، وحين لا تتعـادل وتزيد كفّة دَوَران عن الأخرى نظلّ نلفّ ونلفّ، والشّقي منّا من يَزيد من لفّه في اتّجاه لا يعلمه ولا يعادله.

لما اشتدَّ مرضُ جدّي وكان يرتاح أغلب الوقت في باحة الدار، كنـتُ أرى غِبْطَتَه حين أدخل عليه. أحببْتُه بإفراط، وكنتُ أمازِحُه دائمًا بالجملة نفسـها حتى بعد أن كبرتُ؛ بسؤالي القديم: "ما معنى للاستنزانُ سَلاسٌ: لسانٌ وكفٌ ودونَ آزان؟". كان يكاد يَفْطَسُ من الضحك كأنَّه يسمع السّـؤال للمرّة الأولى. كثير من أهل البيت لم يعرفوا سببَ انفجار جدّي بهذه الضحكـة الرنّانة. خصوصًا أنّني غالبًا ما كنتُ أهمس له بها في أذنه على غير توقُّع.

رأيتُ البيت لاحقًا في حالـة مُزْرية، وكما أكَدَتْ عمّتي زهيرة -أرشيف العائلة وذاكرتها- أنّ البيت كان أكثرَ بهاءً وجمالًا ولم تكنْ هنـاك بيوت مُتاخِمة له من ثلاث نَواحٍ، وإن ناحية منه كانت تُطِلُّ على خُضْرة ناضرة بلا نهاية، وناحيةً قافِرة تميل للَّوْن البُنّيّ الفاتح والأصفر بدرجات، كان البيت يبدو غريبًا نسـبيًّا عن المكان، لكنه في آنٍ كان يبدو الأكثرَ عراقة فيه.

أخذتني عمّتي إلى بيت السّحيمي مَرّة لتُرِيَني شبيهًا لبيتنا قديمًا.

قالت إنَّه كان شــكلًا مُصَغَّــرًا جدًّا منه وإنه كــان تُحفة لم تصمد كثيــرًا: "بيوتْنا كانِتْ عَمْرانة من جُوّاها يا مينو.. من بَرّة ما كُنّاش بنزيّنها إلا فْ رمضان ومولْدِ النَّبي.. بَسّ بِنبيَّضها كلّ فترة ونحافظ علــى نضافِتها.. كلّ تَفصيلة فْ قلب البيت مَعمولة بمُخ لراحة أهلِ البيت.. والحَريم بيتحرّكوا في الحَرَملُك على راحِتْهُم.. وبيلبِســوا الشِّفْتِشــي زَيِّ ما هُمّا عايزين!" ضحكَــتْ عمَّتي ضِحكَتَها اللذيذة وهــي تحكي لي عن أسرار لم أنتبه لها فــي صِغَري حينما كانت عيْني عليهنَّ باردة!

فــي الطابق الأخير من هذا المبنى الذي أسكنه، تســكن جارتي العجوز ضئيلة الجســم. لم أتمكَّنْ في البداية من تحديد عمرها، ففي أوَّل لقاء بيننا جَفلتْ منّي لأنّي تعوَّدْتُ على السَّــير بخطوات هادئة جدًّا، وحين حيَّيتُها جزعتْ من صوتي القريب، ثم اكتشــفتُ لاحقًا أنَّها ضريرة.

حين انتقلنا من بيت جَدّي لنســكن في بيتنا الأخير بشكل نهائيّ، سَكَنّــا في الطابق الأخيــر، فعوَّدَنا أبي على الســير بهدوء وعدم الجَــرْي والدَّبْدَبة، حتى لا نزعج سُكَّان الطابــق الأسفل، فتعوَّدنا جميعًا على مِشْيَة الفهود داخل البيت وخارجه. حملتُ معي هَسْهَسة خُطْوَتي -التي لا تُســمَع- إلى كلّ مكــان حَلَلْتُ به، حتى لو سكنتُ

في طابق أرضي، على عكس صديقتي نادين التي عاشت في بيت ريفيّ واسع مَبْنيّ من الأحجار بحديقة واسعة. كانت تسير في بيتهم بخُطْوَة حوّاءَ في الجنّــة، فلا أحدَ تحت الأرض سوف ينزعج من دبيبهــا، كنتُ أسمع دَبّة مِشْــيَتها في منزلي فــي فْيينّا -مهما كانت واهنة- ولو كانت على بُعْدِ عشــرة أمتار منّــي. أمّا أنا فلم أستَطِعْ استعادةَ خُطْوَة آدمَ التي ابتلعَتْها الحداثةُ من قَدَمَيَّ للأبد!

"أشعر بكِ حينما تقتربين من أيّ مكان أنا فيه ولو على بُعْدِ مائة متر، تذكّرينني تمامًا بفيلم (حديقة الديناصورات) Jurassic Park أيتها الديناصورة الأخيرة!".

تكــاد تفطس من الضحك على جُملتي هــذه التي أطلقتُها عليها وطريقــة نُطْقي بها بالعربية. كنتُ أبالغ مــرّات حين تكون خلفي صُدْفة وأدّعي أنّني سمعتُ دَبْدَبَتَها قبل أسبوع!

جارتي الضريرة كانت عائدة من دَوْرَة المياه الخارجية البعيدة، ولــم أكن أدري بَعْــدُ أنها ضريرة. جَفَلَتْ من جِسّــي الخفيف إلى جوارها في المَمَــرّ وتراجعَتْ خطوتَيْن حين حادَثْتُها. رأيتُها تنظر نحوي، لكنّ نظراتها تزوغ حولي ولا تتّجه لعَيْنَيّ:

"نهاركم سعيدا! أنا جاركم الجديد أسكن في الشقة رقم 22."

فزِعتْ وارتعش كلّ جســـمها ثم ردَّتْ بخَشْية: "نهاركم سعيد!"
لم أكمل كلامي؛ فقد شـــعرتُ بوَجَلهـــا الطبيعيّ من غريب، فأنا لم أعرّفها بنفسي أكثرَ. أكملتُ:

"اسمي مينا، أسكن هنا منذ شهرين تقريبًا."

"تبدو من لَكْنَتِكُم أنَّكم لستم من هنا!"

"لا أنا لســـت من هنا، أنا من هناك!" قلتُها وأنا أضحك لأخفّفَ عنها، فصـــدرَتْ ضحكتي سخيفة، أردتُها مُزْحَـــة فلم تَكُنْ، رأيتُ صداها في تقطيب جبينها:

"لكنَّكم تتكلمون الألمانية بشكل جيّد، أين تَعَلَّمْتُمُوها؟"

"هُنا في الحيّ الأوَّل، في معهد 'هامَر پـورجْشتال'."

"وماذا تعملون؟"

"حاليًـــا أنا طالب فـــي كلية الفنون، وأعمـــل بضْعَ ساعات في الجامعة."

"هل أنتم أُستاذ؟ في أيّ جامعة؟"

"في جامعة ڤيينّا، أنا مُدَرِّسُ 'كاليجرافي'!"

لم أكن يومًا مُدَرِّسَ كاليجرافي. هي مُجرَّد محاضرة يتيمة قدَّمْتُها بناءً على طلـــب ماجدالينا في الفصل الدراســـيّ الصيفيّ الأخير،

ضمن مُحاضرات للطُّلّاب عن (الفنّ في الخطّ والخطّ في الفنّ).

"هل عمل مُدَرِّسَ الكاليجرافي شَيِّق؟"

"نعم بالتأكيد. هل تســكنون هنا منذ وقت طويل؟" سألتها لأغيّر النفَق الضيّق للموضوع.

"تقريبًا. انتقلتُ إلى هنا منذ ثلاث وعشــرين سنة تقريبًا، اسمي 'هيرمينه، هيرمينه بيليكان'."

"تشرَّفْتُ بكم 'فراو بيليكان'(*)!"

أعجبنـــي اسم بيليكان ومعناه كثيــرًا. اقتربتُ منها ومَدَدْتُ يدي لأصافحها، لكنَّها لم تَرَ يدي الممدودة. كان رَدّ فِعْل تلقائيّ منّي.

"شكرًا جزيلًا، أتمنّى لكم يومًا طيّبًا!" قالت لي.

"ولكُم أيضًا!"

انصرفَــتْ من أمامي في خطوات واثقة بـــلا عصا كأنَّها ترى كلّ شـــيء. وقفتُ أتأمَّلُها وهي في هذه السنّ الطاعنة وهذه الخطوة الفنّيَة: عجوز تعيش وحدها تمامًا وتُسَـــيِّر كلّ أمورها بنفسها. في مثل هذه الحالات وما يشابهها تنتابني سُوسَةُ مُقارَنة تَنْخَرُ في رأسي ولا تتركني إلّا مهزومًا.

(*) كلمة Frau في الألمانية تعني السيدة

"مُدَرِّسُ كاليجرافي! أيّ حماقة!" قلتُ لنفســـي ساخرًا. وجدتُني جالسًا على كنبتي داخل البيت ساهمًا بلا شعور، بعد أن شبِعتُ من لَـتٍّ وعَجْنِ المُقارنات وهَزّ رأسي باستنكـــار. خجلتُ أنني كذبتُ عليها تلك الكذبةَ البَلْهاءَ بلا ضرورة.

فيما بَعْدُ سأتعرَّف على فراو بيليكان، حين تتعوَّدُ عليَّ سأعرِض عليها أن أشتري لها بعض المُشْتريات من السوبر ماركت أو السوق، وزَيْت التدفئة كما أشتري لنفســـي، كنتُ أخشى دائمًا وأرْتَعبُ من فكرة أن تُشْـــعل يَومًا الزيتَ بالخطأ فيحدث لها مكروه ولكلّ المبنى ومَنْ فيه.

سَأستَغـــربُ حين أعرف كيف كانت فراو بيليكان بِنْتَ عِزّ ومن عائلـــة كريمة غنية، تدهـــورَتْ بها الأحوالُ بعـــد الحرب العالمية الثانيـــة، وبعد فَقْدِهـــا لأُمّها وأبيها وانتقالها مـــن مدينة "هارديـج" Hardegg، أصغر مدينة في شـــمال البلاد علـــى نهر "التايا" على حدود جمهورية التّشـــيك مباشرة. سأعرف أنها كانت أمينةَ مكتبة، تعمل في المكتبة الوطنية، وأنَّ معاشـــها الضئيل بســـبب خروجها المبكّـــر من العمل لم يســـمح لها بحياة أكْـــرَمَ ولا أفْضَل من هذه، وسأعـــرف أنّها فقدتْ نظرها تدريجيًا ولم يسْـــتَطِعْ الأطباء إنقاذها رغم العديد من العمليات الجراحية. تقول لي:

"حين أخبرني الأطباءُ صراحة بأنّني سأفقد نظري تمامًا خلال

ثلاث سنوات على الأكثر؛ توقَّفتُ عن العمل ورضيتُ بمعاش مُبَكّر وقَرَّرْتُ أن ألِفَّ العالم وأُمَتِّعَ عَيْنَيَّ بثلاثة أعوام قبل العَمَى التّام."

ستقضـــي معًا أبهى الأوقات بعد أن تعتـــاد عليَّ وعلى صوتي وضحكتي وأتعوَّدَ التعامُل مع ضياع بصرها، وبعد أن عوَّدْتُها على دَبْدَبة مُفْتَعَلة كلّما رأيتُها، وعلى مُزاح مُتَكَرّر في كلّ لقاء، ستُفَرّجُني على ألْبُومات كثيرة لها حــول العالم. ستقول لي إنَّها صرفتْ فيها جزءًا كبيرًا من مُدَّخَراتها. زارت آسيا وأفريقيا وأميركا الشـــمالية والجنوبية وفي النهاية زارت خمس دُوَل في أوروبا الشرقية. وبعد أن ضاع نظرُها نهائيًّا، توقَّفَتْ عن السفر، واحتفظتْ داخل عيْنيها بصُندوق ذكريات أبيض شَـفَّاف لن يغيب. انتقلتْ إلى هذه الشـــقّة الصغيرة في هذا البيت الذي يُشْــبِه قصّة حياتها. كلّ يوم بمساعدة عصاها تتَّخِذُ طريقها عبر خطــوط العُميان البارزة على الأرض ومن خلال إشارات المرور المسموعة، حتى حارة الشمس "سونين جاسّـــه" في الحـــيّ الأوّل بالقُرْب من كافيه "ألْـــتْ ڤيين" أو "ڤيينّا القديمة" الذي اعتادت أن تذهب إليه يوميًّا في الثانية عشـــرة تمامًا لتناول وجبـــة الغَداء. كانوا يقدّمون لها تخفيضًـــا كبيرًا باعتبارها زبونة يومية دائمة منذ سنوات طويلة، فكانت تدفع فقط نصفَ سعر الوجبة.

أعَـــزُّ صديقاتها تُوُفّيَتْ في حادث طيـــران مُفْجِع. كانتا معًا في

أميركا صيفًا، واضطرَّتْ صديقتُها للعودة بعدها بيوم بسـبب خطأ في حجز التذكرة. رجعتْ هي إلــى ڤيينا، وفي اليوم التالي ركِبتْ الصديقةُ طائرتَها عبر باريس على شركة خطوط أمريكية في العام 1996، سقطــتْ الطائرةُ فوق المحيط الأطلســي عَقِبَ إقلاعها من مطار كينيدي في نيويــورك، ولم يَنْجُ أحد من هذا الحادث المؤلم. مات في هذا الحادث مائتا وثلاثون شخصًا.

سأرى ألبومات كثيرة للسيدة پيليكان وأقضي معها أحلى الأوقات وهــي تحكي لــي تاريخَ عائلتهــا وتاريــخ ڤيينّا وتاريخ الحروب والخراب، وتحكــي تفاصيلَ صُوَر ألبوماتهــا ببراعة، حتى أكاد أتخيَّل فــي كلّ مرّة أنّها ترى كلّ شــيء. كأنَّ سعادتها كانت تنبع من عيْنيَّ، من فُرجَتي على الصور واستفساري، ومن استرجاعها لتفاصيل كلّ صورة أسألها عنها:

"أراكِ عِشْتِ حياة غير عادية يا فراو پيليكان!"

"هذا صحيح! عشــتُ هنا حياة غير عادية فعلًا، عشــتُ دمارًا فظيعًا لا مَثيلَ له، تجاوزناه لكنَّنا وصلنا إلى عصر الدمار الصامِت، أنا أشْعُر به رغم كِبَر سِنّي!"

"دَمار صامِت؟"

"نعم، يحاولون الآن حَلَّ كلّ شــيء عن طريــق الحوار، لكن

أيّ حوار هذا. كلّما فتحتُ التليفزيون أو سمعتُ الراديو، أشــعر أنّ كلّ شــخص لديه مفهوم مُخالِف لعنــوان الموضوع. إنّهم يفرحون بالخلاف والصخَــب والعنف أكثر من الحــوار الرزين الهادي!" يروق لي ذكاء اختياراتها. تُتابع الســيّدةُ پيليكان وكأنّها تستشــعر الاهتمام على وجهي:

"اسألْ أيّ سياسيّ: كم الساعة الآن؟ سوف يجيب عليك برَوْعة حزبه وبرنامجه وينتقد الآخرين، ولن تعرف منه الوقت أبدًا! وانظُرْ إلى مشكلة تغيُّر المُناخ مثلًا، واحد يشرحها بيئيًّا ويُشْعِرُنا بالكارثة القادمة، وآخرُ يســخر من هذا التهديد المُبالَــغ فيه ويرى أن تقدُّمَ التكنولوجيا ضروريّ وكفيل بحلّ كلّ الأخطار البيئية واستيعابها، وآخرُ يشــرح مصائبَ استخدامات الطاقــة الذرية من باب الحلال والحــرام، وواحد يضع لنــا إحصائيات وبيانــات ومعلومات لا حَصْرَ لها بلا تحليل ويتركنا نتجادل. فأيّ حوار هذا، وأيّ شَــرْح وتفسير؟"

مُنْبَهِر بتحليلات فراو پيليكان ولا أريد أن أقطع استرسالها:

"أصبحنا نجمع ملايين الإحصائيات وملايين المعارف بلمسة زِرّ، ثم لا نعرف في هذا الفضاء الرهيب -من كَمّ المعلومات- كيف نوفِّق لمعلومــة واحدة تضع قدمًا على الطريــق الصحيح. صرنا نَتَبَجَّــح بالكَمّ المُفرَط من المعلومات. بــل صرنا أيضا كَمَنْ يجمع

أطنانًا مُطَنَّنة من الرمل والطوب والزَّلَط وينسى الإسمنت والحديد، فلا نستطيع أن نبني حُجرة واحدة!"

سيستغرب مينا قولها بأنها تفتح التليفزيون؛ إلى أن يأتي اليوم الذي يضغط على زرّ بالخطأ في الريموت كونترول، فيكتشف أن التليفزيون يقدّم خدمة شَرْح المشاهد التليفزيونية الصامتة للعُميان.

ستضع بين يدي الألبومـــات التي تحتفظ بها وتعرفها عن ظهر قلب، بـــل وتعرف مكانَ كلّ صورة وتاريـــخ كلّ لقطة ومَنْ فيها. ســـأرى كيف كانت فـــراو بيليكان في مُنْتَهى الحُسْـــن والأناقة في شـــبابها. ستقول لي إنها لم تتزوَّج. ستحكـــي لي قصّة حُبّ وحيدة مَرَّتْ بها وهي طالبة، حين ذهبتْ لتعمل في شمال ألمانيا في شركة أسماك في مدينة هامبورج. أحبَّها قَسّ شـــابّ عانى كثيرًا من كَوْنه في مؤسَّسة دينية تمنع زواجَ الكَهَنة، ولم يتمكَّنْ من الوصول لقرار بتَرْك الكنيسة أو فراو بيليكان.

كانـــت حاملًا في طفلة، وهذه حكايـــة فرعية طويلة، لم أعرف منها سوى هذه الجملة، وبَقِيَتْ التفاصيلُ محفوظة في صندوق فراو بيليكان الأســـود. حَكَتْ لي الكثيرَ وأنا لا أكاد أصدّق كلّ هذا الزخم الحياتي الذي عاشته ومرَّتْ به وصمدَتْ. سأرى كثيرًا من الصور لهـــا مع أخرى في عمرها تقريبًا، سأظـــنُّ أنها أخت لها أو قريبة، لكنها سَتَذْكُر لي أنَّها صديقتُها الأثيرةُ "ليديا" التي تُوُفِّيَتْ في حادث الطائرة الأليم.

13

كنتُ على موعد عند العصر مع سيلڤيا في كافيه "آيليس" بالحيّ الثامن بالقرب من مبنى المُحافَظة. مقهًى هادئ عتيق عُمْرُه مائة وسَبعون عامًا، يأخذ ناصيتَيْ شارعَيْن مُهمَّيْن في ڤيينّا. مشهور بنوافذه التّسع عشرة المُزَيَّنة بالورود الطبيعية معظم شهور العام، داخله عاشت عشراتُ القصص والحكايات التي حَمَلَتْ تاريخًا لم تغمُره الأيامُ تمامًا.

دَخَلَتْ عليَّ كعادتها بـ"شَعْنُونَتِها" المعروفة عنها. تَسُبُّ وتَشْتُم، حتى يظنّ مَنْ لا يعرفها ولا يعرف أصْلَ الحكاية أنَّها تَسُبّني أنا. لا يهمُّها مَن الموجودُ أو الجالس. صوتُها عالٍ على غير عادة معظم النّمساويّين. جَريئة تقول ما تريد في أيّ وقت وأيّ مكان. كانت قد تَشاجَرَتْ مع سائق التّاكسي لأنَّها طَلَبَتْ منه أن يُنْزِلَها

بالقــرب من المقهى ووَصَفَتْ له الانعطــاف الصحيح ليقف خلف المقهى في الحــارة الجانبية، لكنَّه تكابَرَ وادَّعى مَعرفَتَه بكلّ زوايا ودهاليــز فيينّا، تجاوز المقهى بثقة الخَبيــر العارف وانطلق حتى مبنى البرلمان. قادَها فــي الطريق الخطأ واضطرَّ أن يلفَّ بها لفّة طويلة حتى تعود للمقهى.

قبل وصولها كنتُ قد سَرَحتُ فــي أفكار مُزعجة، بعد قراءتي لمقالة في الجريدة اليومية "العريقة" التي تَشُــرُّ شَرًّا على الأجانب وتُحمّلهم رزايا الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والبيئية والتّكنولوجية بالبلاد! وكأنَّ النّمســا من دونهــم هي جَنّة الأرض المَوْعودة.

لا يا سيّدي! النّمسا ليست الفِرْدوسَ المُنْتَظَرَ، ولم يلوِّثها الأجانبُ وحدُهم، بل فيها أيضًا خَرابات خلفية وفَضائحُ وفساد مُستَتر وغباء وعُنْصُرية وكراهيــة للأجانب وللنّفْس. ما تزال هناك عند البعض نَزْعات بَشَرية حقيرة مُتَغَلغلة في النُّفوس والأرواح، ولولا القوانين الرادعــة والتعليم المُهَــذّبُ لَرَأيْنا العَجَــب، أمّا موضوع الأجانب فقد صــار الآن الورقةَ الرابحــة في كلّ انتخابــات جديدة؛ فعلى المُرَشّــح أن يُحدّد أعداءَه بوضوح لجمهــوره من الناخبين، لو لم يَجدْهُــم فَلْيَخْتَرِعْهُم، وعليه أن يُجَهّز "الميديــا" ويُوَظّفَها لصالحه إنْ استطــاع، وعليه أيضًا أن يأتي بمجموعة من جَهابِذَة المُنظّرين

والمُحَلّلين ويدفع لهم مُقابِلًا مُجْزِيًا، وسيتمكّنون في ظَرْف يوم وليلة من إثبات أنَّ الأجانب يُعَطّلُون دَوَرانَ الأرض حول نفسها وحول الشمْس!

بدأتُ أعِي كثيرًا من الأحداث القريبة؛ من حكايات مانويل ومن زياراتي لبعض الأحياء البعيدة عن وسَط المدينة. حيث يظنُّ كثيرون أنَّ الموجودين في وسَط المدينة والأحياء المُتاخمة هم رُبَما سُيّاح، أمّا مَنْ يَبْعُدُونَ عن المَرْكز من الأجانب فَهُم أجانبُ أو أغراب "أوسْلينْدَر"(*)، الكلمة التي لها صيت سلبي دائمًا في الألمانية!

بعض الأوروبيين في العُموم لديهم هذا الشعورُ الدَّفينُ بالاسْتِعْلاء المَظْهَريّ. هؤلاء التَّيَاهُون بالأسْلاف المُسْتَعْمرين القُدَماء، هُم الآن أنفسهم الذين يُقسّمون لنا العالَمَ إلى أوّل وثالث، ولا نعرف شيئًا ملموسًا عن هذا الثاني. الصور اليومية المَجْلوبة في إعلامهم من هذا الثالث معظمها كارثيّ: حُروب وتَقْتيل وما تَيَسَّر من مصائب وبَلايا. لم ينسوا أتفه حادث قطار أو "توكْتوك" في أنأى قرية إلّا وذكروه تفصيلًا بعَدَد ضحاياه؛ ولم يتركوا كلبًا ولا عصفورًا تأذّى هناك إلّا وخَصَّصوا له جِنازة إعلامية مُبَجَّلة، بما يُعزّز في نَفْس المواطن الأوروبيّ أنّه نَجا من العَيْش في بلاد الوحوش الكَواسِر والكوارث والإرهاب.

(*) كلمة Ausländer في الألمانية تعني: اجنبي او اجانب، ومعناها اللفظي: ([من] خارج البلاد)

الجرائم التي تحدث هنا في البلاد إن كانت من شخص أجنبيّ أو ذي أُصول أجنبية، فالخبر يأتي مَصْحوبًا بجنْســيته الأصلية، حَبَّذا لو كان المجــرم أو المُتّهم من دولة إسلامية أو عربية! أما إن كان نمساويًّا؛ فعنوان المصيبة سيكون: "دراما عائلية" إن كانت جريمةَ قتــل داخل الأسرة مع التأكيد على أنَّ ابن البلد مَوْتُور فقط نَفسـيًّا أو مُختَــلّ قليلًا. الصور التي تُبَثّ في الإعلام لموضوع "الأجنبيّ" يجب أن يوضع فيها شــخص شــرقي الملامح أو أفريقي أو امرأة مُحَجَّبة. نُدْرة من الأوروبّيين استطاعوا أن يلمسوا رُوح هذه القارّات البعيدة؛ تلك القارّات الصابرات كَأُمَّهات مُسْتَنْزَفات مَنْسِيّات يعانين من عُقُوق الولد الأوروبيّ المُخْتالِ بنَفْســه وبتاريخه الحديث، رغم استمراره في مَصِّ ثدي تلك الأُمّ ودَمِها. لا أدري من أين تأتيهم هذه الثقة بأنَّ التاريخ الذي يَسْطُرونه تاريخ نهائي؟

كذلك الشــعوب المَغْلُوبة على أمرها، تَثِق في تاريخها المَكتوب لدرجة التطَرُّف، لا تبحث فيــه ولا تنتقِد وتَرْتَكِن للمُعْتاد والراسخ والغالِــب، ولا غالِبَ إلّا اللـــه! ولا أدري من أين يأتيهم أيضًا هذا اليقين بأنَّ التاريخ الذي يَسْطُرُونه تاريخ نهائيّ؟

مجموعة من الأسئلة نَهشَتْني هذا الصباح ونَشرات الأخبار تنقل لــي طوال الوقت أخبار غِيلان الدوَل المغلوبة على أمرها والحكّام أصحاب العَرْش الدائم. معظــم الأخبار التي تأتيني كَئيبة، وأغلب

التحليلات أشـــدُّ كآبة، وكثير ممّا أراه في الأخبار المحلّية أكثر نَكدًا ويدعو للتحسُّـــر. أصبح العالَم بيتًا زجاجيًا شفّافًا مَرْئيًا جذّابًا كذّابًا! ومَـــنْ يعرف لغة أخرى -من لغات العالـــم الأوّل- غير لغته الأمّ؛ فبحَوْزَتـــه مفاتيح تفتح له أبوابًا ونوافذ بلا حدود، لكن ما زال هناك مَن هم مَلكِيُّون أكثرَ من المَلِك! لو قال لهم الحُكّام: مَنْ ليس معنا فهو ضدُّنا؛ لاستعدُّوا في اليوم التالي لمُحارَبة هؤلاء الأعداء المارقين، ولو قالوا لهم إنَّ الشمْس منذ اللحظة تُشرِق من الغَرْب لَجَعلوا الدنيا كلّها تُشْرِق من فَم وَليّ النِّعَم؛ و"جَنْتَموا"(*) من يُعارض على كلام وَليّ الأمر.

حيـــن هبّتْ عليَّ سيلڤيا بزَوْبَعتها لـــم أكن قد تخلّصتُ تمامًا من تأثيـــرات الكآبة. كلّمتني بنبرة مســـرحية وبإشـــارة انفعالية بيَدَيْها وجســـمها، حتى ظننتُ نفسي أنّني قد نســـيتُ دوْري ونَصّي الذي سأتفوّهُ بها قُبالَتَها في مســـرحية ما، فهي تتصرَّف أحيانًا كأنّها أمام جمهور يتابع عَرْضًا مُهمًّا لها، أو كأنّها أمام أشـــخاص مَرْئيّين لها ومحجوبين عنّا. تُذْهِشُني بأصابعها الرقيقة التي تشبه أصابع طفلة وكأنّهـــا لم تلمس بهـــا في عمرها سوى الحرير. تَســـحرُني سيلڤيا بتلقائيّتهـــا. تجعلهـــا تلك العَفوية تتقمّص في اليـــوم الواحد -بل في

(*) يحبّ مينا أن يستعمل كلمات أجنبية ويطوّعها للعربية مثل (جوانتانامو) هنا

أقــلّ من ساعة- عِدّة أدوار أو اطْوار دون أن تخونها الفِطْنة وتَزِلُّ في الفوضــى، وهذا هو المثير في شــخصيَّتها الجذّابة، الواضحة والغامضة في آنٍ.

سيلڤيا مُمَثِّلة مســرح في الثامنـــة والعشــرين، تُمَيِّزُها عيْنان عســليَّتان واسعتان وصوْت قويّ رنّان وضحكة تهدُّ الدنيا. صديقة قديمة لي من مجموعة المجانين وأنا أوَّلُهم، تُمَثِّل على عدة مسارح معروفة في ڤيينّا وبرلين وزيورخ، وتعيش حياة بوهيمية سيريالية وقصصُها التي تحكيها في غاية السُّــخرية والألم. تَعرَّفْتُ على هذه المجموعة من الفنّانين في افتتاح معرض لصديق لي. كنّا مجموعة تلتقي بانتظام في كافيه "رايموند" أمام مســرح الشعب حيث يحلو لنصف المجموعة التدخين بحُرّية في الصالون الخلفي للمقهى بعد تغيُّر قوانين المقاهي فيما يتعلَّق بالتدخين، ليكون كلّ مَقْهًى منقسمًا لقسمَيْن منفصلَيْن بإحكام؛ واحد منهما للمُدخّنين.

كانت سيلڤيا قد دعتنا لنشاهد عرضًا مُستحدثًا لمسرحية "توماس بيرنهارد" الشهيرة (ساحة الأبطال) قدّموها على مسرح "رايموند". مســرحية عميقة ومُلْهِمة، راقَتْ لي. ذهبنـــا بعدها للكافيه، جاءت جلستي جوار سيلڤيا. أسئلتي كانت كثيرة وفضولية؛ فعرضَتْ عليَّ أن نلتقي في بيتها بعد يومَيْن لكي أشاهد عرضَ المسرحية الأصلي

على ڤيديو لأبطالها الحقيقيّين في عرضها الأوّل على المسرح الوطني (بورج تياتر). كانت المسرحية الأصلية من إخراج الألماني الشهير "كلاوس بايمان"، وأثارت آنذاك لَغطًا سياسيًا وسَخَطًا اجتماعيًا واسع الصدى لدى شريحة كبيرة في المجتمع النّمساوي.

شَربنا قهوتنا في كافيه آيليس وأثناء خروجنا كان المُمثّل النّمساوي العالمي "كلاوس مارِيا برانداوَر" جالسًا يشرب القهوة ويحكي مع شخصيْن في زاوية الكافيه. فوجئتُ أنَّها تعرفه معرفة شخصية، وقف لها حين رآها وقبّلها في وجنتيها وهي تُوَنِّتُه (وهذا مُصْطَلَح يُقالُ في الألمانية من الضمير "أنت"، اخترعتُه أنا ضمن كثير من المصطلحات التي أتلاعب بها مع قِلّة من الأصدقاء العارفين بالعربية، ومعناه باختصار أن تُخاطب الشخصَ بالضمير "أنت" وليس "أنتُم" كصيغة التفخيم المُعْتادة في اللغة الألمانية).

"ميني صديقي من مصر."

قدَّمَتْني له. كان الأصدقاء القريبون والصديقات يُلَقّبونني باسم دَلَع وهو "ميني".

"أهلًا وسهلًا. ألم يَكُنْ هذا اسمَ فرعون مصريّ قديم؟" سألني باهتمام، فأجبتُ: "نعم هو مينا مُوَحّدُ القُطْرَيْن، أو ميني."

"قرأتُ عنه يومًا حيــن مثَّلْتُ دَوْر الفرعون المصري إخناتون على أحد المسارح في بدايات حياتي!"

"ذاكرتُكم حديدية؛ فمينا لا يعرفه كثير من الناس هنا."

"إذًا أنتــم فرعون!" قالها وهو يشــير إلـــيَّ مُقَهْقِهًـــا كأنَّه في مسرحية.

"كنتُ ذات يوم (فرعون)! الآن أنا المواطن مينا!" وضحكتُ.

كان الحوار لطيفًا وبسيطًا، وسيلڤيا المجنونة تفاجئني. قالت له:

"سنذهب لنشاهد مسرحية (ساحة الأبطال)، تعالَ معنا!"

"الآن؟ في هذا النهار؟ على أيّ مسرح؟"

"لا، لا، سنشاهدها عندي في بيتي، سنشاهد ڤيديو قديمًا للعرض الأصلي. أسكن هنا في 'شــونْبرون جاسّه'!" أشارَتْ بيَدها من فوق كتفها للخلف.

اعتــذَر بلُطف فوَدَّعنـــاه وخرجنا. بقيتُ للحظـــات مُتَعَجّبًا من دعوتهـــا لمُمَثّل هوليووديّ فَذّ في حجم "براندَاوَر" بهذه البســاطة، بل من كَوْنِها تعرفه شخصيًّا ومن تبادُله معي الكلامَ والمُزاحَ دون تَكَلُّف.

مشــينا على امتداد الشـــارع الطويل لحوالَـــي ربع ساعة حتى

العمارة التي تســكن بها في الحيّ الثامن. شــقّتها فاخرة، "شُــرفة سَطْح" على أحدث طِراز في طابق أخير حديث، مُكتظّة في أركانها بنباتات كثيرة أسْرَتْ في نفســي ارتياحًا وسَكِينة. تُطِلّ الشرْفة على جَبَلَيْ "ليوپولدس بيرج" و"كالين بيرج" من ناحية الشــمال. تنظر شقّتها للبنايات أسفلها كَأخ طويل أمام إخوة أقزام.

حيــن صعدنا وجدتُ أن الدنيا ما زالتْ مُنيرة على عكس العتمة الطارئة ونحن علــى الأرض وسْط الطرقات. الشــقة مُرَتَّبة جدًّا وأنيقــة على النقيض من هِنْدام سيلڤيا المجنون. صعدتُ معها على السُّلّم الداخلي لشُرْفة الســطح. هناك حمّام سباحة مستطيل صغير وحديقة خضراء صغيرة وبعــض ورود التوليب الحمراء المُظَلَّلة بالأسوَد، مُتسَــامقة في خُيَلاء تُناسب موضعها العالي. جلستُ في ركــن وثير تحت سقف يتمدَّد مفتوحًا بتلقائية بمجرَّد سقوط المطر. سألَتْني: "ماذا تحبّ أن تشرب؟"

"هنا والآن لا يجوز سوى شُــرْب النبيذ!" قلــتُ بحَزْم عارف مُحَنَّك.

"أنت ذوّاقة إذًا! (ضحكَتْ) أبيضُ أم أحمر؟"

"لو نمساوي فليَكُنْ أبْيَض، لو إيطالي أو فرنسي أو إسباني فليَكُنْ أحمَر."

"لعلمــكَ هناك نبيذ نمســاوي أحمر من أفْخَر مــا يكون، ولكنّ أغلب الناسِ لا يعلمون!" غمزَتْ غَمْزَتها المُراوِغة بعيْنها اليسرى وتركتني أُفسّر المعنى.

غابَتْ قليلًا في الطابق الأسفل بينما كنتُ أتطلّع لرَحابة الفضاء وأحمّن الاتّجاهات بالتقريب: عالَم آخر راسِخ أراه من مكان مرتفع ومُتَرَفّع لا يمكن تَخيُّله أثناء السّير في حارات وشوارع الحيّ على الأرض. حاولــتُ أن أتعرَّف وحدي علــى البنايات العالية البعيدة. رأيــتُ العَجَلة العملاقة ومبنى الأمم المتحــدة البعيدَيْن جدًّا. عدتُ كطفــل أتأمّل الخطوطَ البيْضــاء التي تُخَلّفُهــا الطائرات وأحاول بتَخْمينات طفولية ساذَجة تحديدَ اتّجاهات الدوَل التي تطير إليها أو التــي أتت منها: هذه تقريبًا إلى ألمانيــا وهذه إلى روسيا وهذه من إسبانيا. ظَللتُ على هذه الحال حتى صعدتْ سيلڤيا حاملة زجاجتين: "هل تُفضِّل 'جرونَر ڤيلتْلينَر' أم تشرب 'ڤيلْش-ريزْلينج'(*)؟" سألَتْني وهي ترفع الزّجاجتيْن بيديها نحوي.

"من أيّ منطقة في النّمسا؟" ردَدتُ بسؤال قصير مُوشًّى بابتسامة الخبير:

"نبيذ جرونَر ڤيلتْلينَر من منطقة 'الڤاخاو'، أما نبيذ ڤيلْش-ريزْلينج فهو من 'بورجين-لاند'."

(*) الاسمان Grüner Veltliner و Welschriesling هما لنوعين شهيرين للنبيذ الأبيض في النّمسا

"أحبّ النوعَيْن؟"

"سأفتَح الاثنيْن لتُجَرّب ما تحبّ."

"لا لم أقصد، واحدة تكفي!"

"إذًا سأفتح الأبرد، ڤيلْش-ريزلينج."

وضعَتْ الزَّجاجـــة والفتّاحة على المنضـــدة الزجاجية. فتحتُها ثـــم سألتُها عن بعـــض المباني البعيدة والقريبـــة. أخذتني من يدي لنقف أمام منتصف السور الحديدي للشرفة وأشارت للوحة رُخامية تتوسَّط السّـــور عند مِرْفَقَيْنا، عليها تخطيطـــات مُصَغَّرة محفورة بلون أسْـــود للأماكن والبنايات، مرسومة فـــي نصف دائرة عليها أسماء أهَمّ المعالم والبنايات موَضَّحة بأسْهُم حسب اتّجاهاتها وأرقام تحَدِّد المسافات والارتفاعات بدقّة. ضحكتُ بصوت عالٍ: "هل كان الســـاكن الذي قبلك جنرالًا في الجيش؟" لَعلَعتْ ضحكتها الشهيرة وتَبعَتْها برَشـــفة من النبيذ: "لا، أنا أوّل مَنْ يســـكن في هذه الشـــقّة (مرّت فترة صمت احتشـــدتْ فيها مناظر كثيرة وأفكار أكثر) احكِ لي عن نَفْسِكَ يا ميني!"

لم يُفاجئني السّـــؤال، كنتُ أتوقّعه. ارتبكـــتُ فقط من محاولتي إمســـاكَ خيط الحَكْي الصحيح؛ فليس هناك كِذْبات أريد أن أتلوها، ولا حَـــال أرغب في تحســـينها ولا مَكْمَن عندها أحـــبّ أن أُثيره باختلافي.

[... كَمْ أحبُّ وَصْفَكَ يا "سومي" لصدري بكَوْنه جَنَّة رُمَّان الشَّام، وشَفتي بلمسة الكُرومِ، وبعا تَحْتَ سُرَّتي بمَلْمَس السَّندُس. أعشق كَفَّكَ في كُلِّ مَوضع لثماري، فلا تَبْخَلْ بمَدِّ أطْرافكَ إليَّ، فأنا طَيِّعَةٌ لَيِّنَةٌ هَيِّنَةٌ لَكَ. كُنْ لي؛ فأنا أشجانُكَ طُولَ العُمْرِ، وأنتَ خاتمي سُلَيْمانُ!]

لا أدري لِمَ بدأتُ معها بحكاية قديمة مَرْكونة لم أحكِها لأحد من قبل. حكاية رؤيتي بالصدفة لرسالة حُبّ في دُرْج مكتب أبي. رسالة مُفْرطة في حميميَّتها بأوصاف دلال ووَجْد كَتَبَتْها امرأة متعلّمة أو مثقّفة تُتْقِن اللغةَ والتعبير. لم أعرف هل كان من حقّي الاطّلاع عليها أم لا؟ فقد عشتُ بعدها فترة من التشَوُّش الشديد، وتمنَّيْتُ لو أنّي تجاوزتها بغَضّ بصري عنها وعن قراءتها، لكنّي قرأتها عشرات المرّات حتى حفِظتها، ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ أرى أبي رَجُلَيْن: واحدًا صارمًا آمِرًا ناهيًا في البيت وصاحب سطوة، حسْب ما أرى وأعيش، وآخر عاشقًا رقيقًا خَفيًّا، حسْب الوصف الخيالي لتلك المُسَمّاة بـ"أشجان". في ذاك اليوم أرهقتُ ذهني بحثًا عن هذا الاسم في سجلّات العائلة والأقارب والجيران وزميلات عمله ومعارفه، لم أعرف غيرَ طفلة اسمها أشجان، هي ابنة الشغّالة التي تعاون أمّي في أمور البيت. وكانت البنت في الرابعة. حتى في مدرستي لم يَمُرّ عليَّ هذا الاسم.

"عرفتُ أنَّ لأبي اسمًا حركيًّا في العشق هو 'سُومي'، لن تصدّقي أنني ما زلتُ أحفظ مقاطع من تلك الرسالة الطويلة الحميمة، كما سردتُ عليكِ الآن مَقطعًا منها، ما زلتُ أتذكّر كلمات تلك "الأشجان" وحروفها المُنَمَّقة التي غزلَتْها وزيَّنَتْها بزهور وبَتَلات جفَّفَتْها مثل مراهقة صغيرة. لم أعرف أنَّ أبي عاشق كبير وشاعر خفي. لَيتَهُ يكون قد قال نصفَ هذا الغَزَل لأمّي!"

حكيتُ لسيلفيا الحكاية الطويلة. ضحكنا كثيرًا وشَرِبْتُ أكثر.

في الصباح وجدتُ نفسي نائمًا على كنبة عريضة في الطابق الأسفل، صحوتُ مبكّرًا مستَغربًا مكاني أحاول أن أجمع شتات ذِهن الصحو. قمتُ وسِرتُ إلى الحمّام. رأيتُ في طريقي سيلفيا نائمة على ظهرها في سريرها في غرفة نومها التي لا بابَ لها، رأسها نحوي وأقدامها عارية يلمع طلاء أظافر قدمَيْها في كلّ إصبَع بلَون مختلف. توجّهتُ للحمّام وحين عدتُ كانت سيلفيا تقف أمامي بقميص نوم قصير فوق الركبتين، عليه رَسمة كبيرة لحُوت يَنفُث الماء. ضَحكَتْ وهي تحاول تذكيري بما حدث: "سندتُكَ وأنزلتُكَ من السّطح وأنت تُجرجِر قدمَيْكَ بصعوبة، كنتَ تغنّي بصوت مدهش وثَمِل، وما إن اقتربتَ من الكنبة حتى ارتَمَيْتَ عليها كأنّها سريرك الذي تعرفه، خَلَعتُ لك حذاءَك ووضعتُ لك مخدّة وغطاءً خفيفًا، ورُحتُ أنا أيضًا في النوم!".

لم نشاهد مسرحية توماس بيرنهارد التي جئتُ من أجلها، بل استرسلتُ معها في حديث طويل لا أذكر إلّا بداياته. الوقت معها مَرَّ مريحًا في بيت له رُوح محلّقة في الفضاء رَقَتْ بي وراقت.

كنتُ قد اهتممت قبل فترة بالروائي الشهير توماس بيرنهارد، وكانت نادين قد أهدتني رواية قصيرة له اسمها (الفنّان المُسِنّ أو الأستاذ الكبير) لم أتمكّن من ترجمة العنوان بشكل صحيح وربّما الترجمة العامية لها أقرب: (الأُسْطَى الكبير). الرواية عن ناقد فَنيّ متشائم ومريض بالربْو ويتفلسف طوال الوقت، كان يعمل لصحيفة نيويورك تايمز، ظلَّ مواظبًا على زيارة متحف تاريخ الفنّ لمدّة ثلاثين عامًا، يذهب ثلاثةَ أيام في الأسبوع ما عدا يوم الاثنين، وهو الإجازة الرسمية للمتحف. الحكاية بطلها شخص كاره للحياة الثقافية في النّمسا، ومُتقزّز منها ومن شكل حياته أيضًا.

تَعبتُ في قراءة الرواية بألمانيتي البسيطة، إضافة لأسلوب بيرنهارد العسير، صبرتُ أيامًا على قراءة سُلَحفَائية منّي، باحثًا عن معاني كلمات وتركيبات سطور معَقّدة، ثُمَّ عن معنى جُمَل مُرهِقة، وأظنّ أن وجود الرواية بين يَدَيَّ هو الذي دعا سيلفيا أن تُعرّفَني على عالم توماس بيرنهارد عبر المسرحية التي تُشارِك فيها بالصدفة في ذاك الوقت. استَشَفَّتْ عندي شغفًا خفيًّا أصيلًا.

لم تكن سيلفيا مشغولة بأيّ شيء أو موعد في ذاك اليوم حين

استيقظنا. قالت لي يمكنكَ أن تبقى هنا اليومَ ونشـــاهد المسرحية إن أردت. من داخلي كنتُ أُحبِّـــذ رأيَها، أميل إلى البقاء هناك بالقُربِ من السماء. ما نَكَّدَ عليَّ هو رغبتي في تغيير ملابسي التي نمتُ بها فتَكَرمَشَتْ وتَبَهدَلَتْ، لكن الدُّشّ الذي أخذته أنعشني:

(أهواكْ.. وأتمنَّى لو أنساكْ.. وانسى روحي ويّاكْ.. وانْ ضاعت تبقى فداك لو تنساني!)

باغتنـــي صوتي بهذه الأغنية التي صدحـــتْ منّي غصبًا عنّي، متوقّعًا أن سيلڤيا ما زالت جالسة بعيدًا في غرفة المعيشـــة تشـــاهد برنامج (كوخ دُويلّ Kochduell) وهي مسابقة الطبخ التي يتبارى فيها مجموعة من الأشـــخاص علـــى الطّباخة يفـــوز فيها الطبّاخ الأفضـــل. كنتُ أسمع صوت التليفزيـــون يأتيني من بعيد، فأطلقتُ العَنانَ لحنجرتي تَنساق للأغنية القديمة من جديد.

"قلتُ لكَ من قبل مرات أن صوتك جميل!" فُوجِئْتُ بأنَّ صوتي كان مسموعًا لها، أكمَلَتْ:

"ماذا كنتَ تُغنّي؟"

أدركـــتُ أنَّ ترجمتي المسكينة للأغنية ستأتـــي بمعانٍ ركيكة؛ ففضّلـــتُ أن أحكي لها قصّة العُزْي وانتصـــاب الحَمامة. ضحكَتْ كما لم أرهـــا من قبل، بل طلبَتْ أن أعيد لهـــا الحكايةَ مرّة أخرى بالتفصيل، ثم قالت:

"ستجعلنـــي أضحك وأتذكَّرك يا ميني بقيـــة عمري كلّما رَأيتُ حمامة في أيّ مكان، وكما تعرف، ڤيينّا مُترعة بالحَمام!"

كِـدْتُ أفطَس معها من الضحك، ثمَّ فاجأتُهــا بسؤال ألهمني به البرنامج التليفزيونيّ المشغول بمسابقة الطبخ:

"ما رأيكِ أن أطبخ هنا اليومَ؟"

"هل تجيد الطبخ حقًّا؟"

"الفنّان الذي لا يجيد الطبخ ليس فنّانًا؟" قلتُها لأستَفزَّها وأنا أنظر لها بتَحَدٍّ شرّيرٍ مُفتَعَل.

"عندك كلّ الحقّ. أتظنّ أنّني لا أُحسِنُ الطبخ؟"

"أنا لا أظنّ، أنا مُتأكِّد!" رددتُ عليها بتحدّ أشدّ شرًّا.

"لن أجيب الآن، حتى لا تتهرّب من وَعْدِكَ!"

"لن أتهرَّب. ما رأيك لو نزلنا معًا الآن إلى 'برونين- ماركْت'(*)؟ سأشتري من هناك ما نحتاج، وأجعلك تَرَيْنَ بنفسك؟"

"أنا موافقة! موافقة جدًّا!"

(*) Brunnenmarkt (سوق البنر): يُعتبر اطول سوق في ڤيينّا، ويوجد في الحيّ السادس عشر منذ عام 1786، وهو ثاني أكبر سوق في ڤيينّا بعد سوق "ناش ماركت" Naschmarkt (1760). يشتهر سوق البنر بالخضروات والفواكه الطازجة القادمة من تركيا، ومُعظم بَاعَتِه من تركيا

استمتعتُ بلا حـــدود وأنا أراها "تعافِر" في المسَاوَمة عن مُتعة لا عن بُخل، والبائعون يضحكون لأنَّها كانت تُخفّض كلّ شيء إلى النصف بالضبط، خفَّضوا لها السّعر كثيرًا، لكنهم كانوا أمكر منها، جعلوها تشـــتري أضعافَ ما أرادَت؛ فعدنا محمَّلَيْن بكميّات كبيرة من الخضروات والفواكه تكفي عائلة من ستّة أفراد لثلاثة أيام على الأقلّ.

"كنتُ أشـــطر عبيطة فـــي السوق! أليس كذلـــك؟" قالتها وهي تضحك على نفسها. "وأنـــا أعبط منك لأني اكتفيتُ بالهِزار معهم! لكنه كان وقتًـــا ممتعًا." أمَّنَتْ على رأيي وأكملنا ضحكنا الصاخِب ونحن نصعد السُّلَّمَ العالي بأنفاس لاهِثة بسبب تعطُّل المصعد.

طبختُ مسقعة بالباشميل وأرزًا بالشـــعرية وأرزًا بُنّيًا وشَوَيْتُ سمكة في الفرن وأنا أغنّي أغنية أخرى لسيد درويش، مكرّرًا مَقطَعًا منهـــا (أحِبُه حتى في الخِصام.. احِبُه أحِبُه.. حتى في الخصاااام!)، قلتُ لهـــا إن الأغنية اسمها (أنا هَويتْ وانتَهيتْ) وهنا استطعت أن أترجـــم لها معناها بصورة أفضل؛ فَرَاقَتْ لها. كانت تجهّز السَّلَطة وترفع نوافذ المطبخ المائلة لتجديد الهواء. انتهى التحضير والغناء والترجمـــة فصعدنا إلى السطح. كنتُ أنظر فـــي ملامحها مُتَحَفِّزًا مُستَشِفًّا نتيجةَ امتحاني، ومن داخلي كنتُ قَلِقًا:

"أنـــتَ فعلًا طبّـــاخ هائل! يجب أن تقدّمَ نفســـك لمسابقة (كوخ نُويل)، أُقسِم أنك ستكسبها!"

"طبعًـــا سأكسبها، لكنَّ هؤلاء هواة، والمحترف لا يشـــارك مع هُواة!"

قلتُهـــا بافتعال تمثيليّ بالتكبُّر والاستِعـــلاء. قامت وقبَّلَتْني على خدّي.

مشـــاهدة المسرحية مع سيلڤيا كانت تجربة استثنائية لي. سيلڤيا المُغلَّفة بالجنون وقِلة الصبر في معظم تصرّفاتها. لم أتخيَّلها معلّمة صبورة وشـــارحة ذكية للأدب بهذه الأُستَاذيـــة. أوقَفَتْ المسرحية مَرّات لتشـــرح لـــي معلومة عن تاريخ نمساوي قديـــم خَفيَ عَنّي، خصوصًا الوضع الثقافي بعد الحرب العالمية الثانية. شـــرحَتْ لي بصبر كلّ مـــا توقَّعَتْ أنَّه غامض عليَّ. فهمَـــتْ فورًا من نظرتي ما يحيّرني وتحوَّلتْ من سَمْتِ "الشَّـــغْنَنة" إلى أنثى مسالمة لطيفة عفوية جاذبة، لا تَشتُم أبدًا ولا تتعصَّب كما هي عادتها وهي وسط مجموعتنا من المجانين.

أثارتني المسرحية أيضًا خصوصًا أنَّها كانت قد عُرِضَتْ بمناسبة مرور مائة عام على إنشـــاء المسرح الوطني (بورج تياتر) ووافق تاريـــخ عَرضها أيضًا مرورَ خمسين عامًا على انضمام النّمسا إلى "الرايخ الثالث"، وفي الفترة نفسها كان قد انتُخِبَ "كورت ڤالدهايم" رئيسًـــا للنّمسا، وحدث لَغط وجَدَل هائل حول إخفائه معلومات عن

خدمته كضابط في الجيــش النازي الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، وعن مسؤوليته عن بعض المجازر.

مَــرَّ اليوم سريعًا خفيفًا حتى بدأ الظلام يستبدل دَورَه مع النور؛ ظــلام يَستَرسل بخفّة من أفق بعيد عــالٍ؛ يلهو مع أضواء حمراء منبّهــة تطفئ وتنير فوق كلّ المباني العاليــة لتحذير أيّ طائرة قد تهبــط لهذا الحدّ. من بعيد تظهر بعض المعالــم الليلية كَعَجَلة ڤيينّا العملاقة بأنوارهــا وبعض الكتابات والإعلانــات المتَحرّكة على أسطُح البنايات. كان الجوّ ساحرًا على (شُرفة السطح). فجأة قالت لي:

"لماذا كَذَبْتَ على شُهْدَة يا مينا؟"

فوجِئْتُ باسمِ شُهْدَة يدخل إلى مسرح حديثنا على غير توقع.

"هل قُلتُ لك ذلك؟"

"نعم، ليلةَ أمس، ذكرتَ أنَّكَ كَذَبْتَ عليها!"

"أعطِني سيجارة من فضلكِ!"

مجَــرَّد تِكْتيك قديم لتبريد رَدّ فعلــي وتأجيل كلامي؛ فأنا أدخّن نــادرًا. عُدتُ بذاكرتي للوراء أحــاول استرجاع ليلة الأمس، أفكّر فيما أكون قد حَكَيْتُ. أتذكّر بدايات حكايتي لها عن "أشجان" حبيبة

أبي ورسالتها المُربكــة، لكن كيف توغَّلْتُ في الحديث لأثرثر عن شُهْدَة، وماذا قلتُ لها يا تُرى؟

أثناء ثُمالَته كان قد استرسَــلَ لسيلڤيا فِي الحَكي عن شُهْدَة. حكى لها كيــف التَقَيا ذاك اليوم بقَدَر تاكسي تَعطل ليُرَتِّبَ لهما التواجُد معًا في محلّ جروبّي في مصر الجديدة. وكيف وَقَعَ كتاب فرويد على الأرض لتَغزلَ كلمات فرويد وعِلم النفس أجملَ ما في النفس. كل شيء حدث عفويًّا، ولــم يَكُنْ هناك أيّ مَكر في رغبة التواصُلِ أو تحايُل ليستفيد طَرف من آخــرَ بخُبث. كانت تدرُس عِلمَ النفس وتَهوَى الفنون وهو يهــوَى علم النفس ويَدرُس الفنّ؛ فــأيّ نَصيب نبيل يمكن أن ينضفر ويترعرع من هذه الصدفة.

"ما معنــى زواج عُرْفي؟" كانــت سيلڤيا قد التقطــتْ منه جُملة لم تفهمها، فسَألَته فورًا، وردَّ عليها وهو يضحك:

"هل قلتُ هذا أيضًا وأنا في شبه غَيبوبة؟ واضح أنّني دَلقْتُ كثيرًا من الأسرار ليلةَ أمس!"

"نعــم، قُلتَ زواج عرفيّ! وقد قَرَأتُ مَرّة عن زواج الأطفال والقُصّر في بعض المجتمعات، هل هذا ما تقصده؟"

"لا، الــزَّواج العُرْفــيّ هــو ببساطــة واختصار زواج غيــر مُوثَّق رسميًّا!"

"هل هو سرّيّ إذًا؟" الدهشة جعلتها تُنزِل رجْلَيْهَا المضمومتين ـفي جلسَتِهَــا المتربّعةـ من على الكنبة إلــى الأرض ثمّ تُعيد رَفعَهما كأن الأرض لَسَعَتْها.

"ليس بالضرورة سِرّيًّا. هو اتّفاق على زواج بين اثنين يُوقّعان عليه في وجود شهود، لكنّه غير رسميّ!"

"وما الذي يُجبِرهما على مثل هذا الزّواج؟"

"لأنَّ تَوَاجُـدَ رجل وامرأة معًا في بعض الأماكن في هذه المجتمعات، بـدون أن تكـون زوجتَـه قـد يُعَرِّضهمـا للمُساءَلـة الأخلاقية ثم القانونية!"

"حتى لو بالموافقة التامّة بين الطرَفَيْن؟"

"حتى لو بالرضـاء التامّ بين الطرَفَيْن؛ فالمجتمع هو المحَدّد للعلاقة ثمَّ هناك القانون الذي يَردَع."

استغـراب سيلفْيا جَعَلَها تَتَّخذ حركات لاعبـةِ جُمْبَاز. جسمها المَرِن يَتَمَـدَّد ويَتَقَلَّص وينحني مـع كل رَدّ منه وكلّ تَسـاؤل منها. حاوَل مينا أن يشـرح لها، مرّة من باب العادات والتقاليد، ومرّة من مَدخَل القانون، ومرّة من بوّابة الدين، ولم تَكُنْ غَشـيمة بأيّ حال، لَكنَّها لم تستوعب مَنعَ التوَاصُل الحميميّ بين مُحِبَّيْن برضائهما التامّ.

بقيتُ حتى ساعة متأخّرة. حكينـا كثيرًا وعرفتُ عنها حكايات جعلتْني أشعر بمدى قوّتها وصلابتها. سيلفْيا شخصية رقيقة تُظهرُ خلاف ما تُبطن. أوقات الصمت بيننا طالت بارتواء شديد لا يشوبه مَلَل. ليس هناك أروع من أن تُحِسَّ أنَّ هناك شـخصًا ما يشاركك فَهم مشـاعرك دون أن ينْبس، عميقة هي في صَمْتها، وأعمَق في نقاشِها، أشعر معها بعُلُوّ مثل عُلُوّ شقّتها، وبرباط أسمَى من الصداقة وأجَل من الحُبّ.

ودَّعتُها بعد ساعات لن أنساها، ووعدنا بعضَنا بلقاءات ضرورية قادمة. نزلتُ من البيت العالي القريب من السماء. تجاوزتْ الساعة

الثانية صباحًا. الأصوات خفتتْ إلّا من بعض الشـــابّات والشـــباب العاشـــقين الساهرين في ليلة السبـــت، السائرين بسلام في دروب المدينة، محتلّين ليلَها بعَرْبَدة العُنفُوان الجميل. قَرَّرْتُ أن أسير حتى بيتي البعيد على القدميْن.

ينتابنـــي مجَدَّدًا هـــذا الإحساس الدَّفين، حين أسيـــر مُتَمَهّلًا في هـــذه المدينة بعد منتصـــف الليل أو عند الفجر، حيـــن تكاد تَخْفُتُ الأصـــوات أو تصمت، وحين ينعدم وجـــود أيّ وسيلة مواصَلات ويَقـــلّ هدير محرّكاتها. وأنا سائر علـــى الأرض البَازَلْتِية القديمة؛ أشـــعر بخطوطها الغائرة تجتاز نَعلَيَّ السميكَيْن وتكتب لي تاريخها العتيـــقَ على صفحة قدميَّ؛ فينبَثِق لي تاريخ الأرض، وقد يُسْعِدُني الحَـــظّ بحُوذيّ يوَازينـــي أو يَعبُرُني بعَرَبَته وفَرَسَيْـــه، فتُدَغدِغُني تلـــك الفرقعات المنتظمة لوَقع سَنَابِـــك الفَرَسَيْن وصَرير العجلات الضاربـــة على الأرض كالسَّوْطِ؛ فينهَمِـــر عليَّ تاريخ السماء. في هذه اللحظات، أكون مصطَفَى برُوح زمن قديم يَشِـــفُّني ويطبع في خاطري قلبَ تلك المدينة.

14

قالت لي: "على المرء ألّا يَموت قبل أن يَتذوَّق 'دُوم بيرينوه'!"

"الحمد لله، يمكنني الآن أن أموت مرتاح البال بعد أن أدّيْتُ فَرْضًا مهمًّا من مباهج الحياة!"

رددتُ عليها أو أظنّ ذلك، فقد كنتُ محلّقًا فوق ثُمالة ومحبوسًا طَيَّ حُلم أو تحت سطوة هَذَيان، لا أدري. لكن أهمّ ما كان في تلك الليلة الزّرقاء هو حكاية "سُكَّر"؛ حكاية مَحَتْ كلّ ثُمالة أو هذيان، وتصدَّرتْ وَعيي أو لَاوَعيي، ولما نجحتُ في الظَّفَر بالحكاية تَوَجَّعْتُ.

هو من عُشّاق كرة القدم الإيطالية. دعاني إلى ڤيلّته الفاخرة

لمشاهدة مباراة كرة القدم في نهائي الدوري الأوروبي التي أُقيمَتْ في أوائل يوليو من عام 2006. دعا أيضًا نُخْبة من "عِلْيَة القوم" كما كان يَسخَر دائمًا ويقول لي: "نِشِيلْ مِنْهُم نُقْطَه!"

عرّفني بضيوفه وقدَّمني لهم كصديق فنّان يعيش في ڤيينّا ويفَضِّل العُزلـــة. أنا عن صِدق لستُ في عزلة إلّا عن أجواء عِلْيَةِ القوم من بعض العرب ومن الدبلوماسيّين خصوصًا. ملعون صديقي وخَطِرٌ في آنٍ. ليس من عادتي الاقتراب أو عَمَل صداقات مع مَن يمَاثلونه ولهذا قصّة أخرى.

قادر يصغرني ببضع سنوات، مليونير رغم حداثة سِنّه، له طائرة خاصّـــة يتنقّل بها في أوروبّا كلّمـــا أراد، وأسطول من السيارات، أرخص واحدة "بورشـــه كاريرا" ضمن ثلاث سيّارات له في ڤيينّا فقط، غير أملاكه فـــي نيس ومَيامي وأمكنة أخـــرى حول العالَم، ووالده رَجل له صيت عالَميّ لاذع وسلطان ونفوذ يَهُزُّ به الدنيا.

أردتُ أن أرى هـــذا العالم مرّة من الداخل. فضولي جذبني، مع حرصـــي ألّا أصير ضمن هذه "العِلْيَة" بأيّ شَـــكل. اتفقنا على ألّا يُهدِيَني شـــيئًا من هداياه الثمينة؛ لأنّني لن أتمكّن من ردّ هديّته بأيّ حال، وعلى أن يتعامل معي بكوْني هذا الشـــخصَ العادي العاشق للفـــنّ والحياة. مترفِّع أنا لكن لستُ أنِفًا؛ فلـــي حماقاتي "المُبَعْزَقَةُ" فـــي كلّ مكان، لكنّي لا أودّ أن تكون في هذا السّلك الرفيع، ولا أن

أُوضَعَ في وَرْطات مادية مُفرِطة في شكل هدايا تَخبئ في مؤخّرَتها مَآربَ أُخَر!

قــد يكون موقفًا مائعًا منّي لا شَــكَّ، أحاول تَبريرَه لنفسي لِجَبْر خاطري، فها أنا الآن شِــبْلٌ في عرين الأسد وأدَّعي أنّني لستُ من آكلي اللحوم!

الڤيلّا فــي واحد من أفخم أحياء ڤيينّا في الحيّ التاسع عشــر. واسعــة جدًّا، مــن طابقَيْن، تحوي أكثر من تسْــع غرف، وحديقة شــاسعة، خلفها غابة عتيقة من شــجر الصُّنَوْبَر. اختار لنفسه هذا البيــت في هذا المكــان المتَعالي؛ ليكون قريبًا مــن الناس، وبعيدًا عنهم في آنٍ؛ كي يتمكَّن من ممارسة حماقاته الصاخبة، وخُروقاته الصامتة في مَنْأًى.

تَوالَتْ جيــوش السيارات الدبلوماسية الفخمــة لهؤلاء السّفَراء وَالكُبَراء. رَكَنَتْ وقَبَع السائقون فيها كالتماثيل حتى خروج أسيادهم. يظلّ السائق منهم راكدًا في السيّارة لثلاث أو أربع ساعات أو أكثر، مَحظورًا عليه مفارَقَتها، مُتأهّبًا لأيّ إشــارة تليفونية من سيّده؛ لأن الكبير يمكن أن يخرج فــي أيّ لحظة ليستقلَّ سيارته عائدًا. اختار معظــم السادة سائقين مسلمين من دوَل آسيا لا يجيدون من العربية ســوى "سَلامُو أليكــو" و"الهَمْدُو لِلَّه"؛ كي لا يفهمــوا المحادثات

العربية للسّادة أثناء التنقُّلات، كما أنّهم يَظنّون أنّ أغلب الآسيويّين يتمتَّعون بكِتْمان تَامّ ووَلاء عن كافّة الجنسيات الأخرى.

كنتُ في طقم ملابس "كاچوال" غـالٍ، مُتحرّرًا من قيود تقاليد "البِـدَلْ" والكَرافتّات، وزَمْـتِ المُتَكَلّفين "المِنَشْـيّين"، أرتاح فيه وأمشـي مِشْـيَتي العادية بلا تَخشـيب، غير مضطرّ لمَدّ أصابعي كلّ حيـن في وسواس تعديل ربطة العنق أو نَفْض كتفَيَّ من قِشْـر الشَّعر. كان قادِر -واسمه الحقيقيّ عبد القادِر ويقول له النّمساويّون والأجانب: (كَدِيرْ)- مثلـي في ملابسه، بل قُبَيل المباراة لَبِسَ فانلّة الفريـق الإيطالي، فانلة أصلية حصل عليها شـخصيًّا من حارس المرمـى "چيچي بوفـون" عليها تَوقيعه، تحمـل رقم 1 في الأمام والخلف، حكى لي قصّة اقتنائها ثلاث مرات.

وصل عِلْيَة القوم تباعًا، وانتشروا في صالة الاستقبال الواسعة. بعد تحيّـات وسلامات متَأنّقة مدروسة ومتماثلـة مثلما تَعلّموا في مدارس الإتيكيـت الدبلوماسيّ، جلسوا علـى المقاعد الوثيرة في نصف دائرة كبيرة. أحدهم كان طاووسًا مختالًا متَغطرسًا أكثر من بقية الطواويس؛ فَبِحُكْم كَوْنه عميدَ السّفَراء العرب؛ صار يتصرَّف معهم من البداية على أنّهم موظَّفون في ضَيْعَة سفارته!

أمامنا شاشة تليفزيونية هي أضخم ما رأيتُ في حياتي حتى ذاك

الوقت، تكاد تقترب من شاشة سينما صغيرة. شاشة سامسونج يبلغ حجمها حوالَيْ 85 بوصة كما ذكر قادر واسترسل. ساله احدهم عن سعرهـا فقال إنَّها بـ 40 ألــفِ دولار أمريكيّ فقط، ولم يُصنَع منها سوى ثلاثين نسخة أولى، وتلك واحدة منها. أمّا أنواع المشروبات التــي ألهمتنا بها آلِهَة الخمر فكانــت تقريبًا كلّها حاضرة، تقَدَّم من قِبَل طاقم من أبْهى الحسنــاوات من جنسيّات مختلفة في زِيّ باهر أنيق وذَوق ودِراية. بَعضهنّ يَتَكَلَّمنَ العربية بلَكنة أجنبية مهَشّــمة، لكنّهـا لطيفة الوَقْع، خصوصًا حين يَلُفُّكَ السُّكْر ويصبح نطقُكَ أنت الممطوط البطيء أصعَبَ من سَلاسَتهنّ الهزيلة.

الضيوف الكُبَراءُ مختَلفون في طباعهم مشتركون في عَنجهيّتهم وغرورهم وأقرب تَشــابهًا في تَوَجّساتهم من كلّ عيْن قريبة أو أذن غريبة. بعضهم يُمسك كأسَ النبيــذ أو الويسكي ويلفّه بمنديل كأنّه يخفي عــن الحاضرين تَلَبُّسَه بالمُحَرّم أو المُجَــرّم، بعضهم يَتَوَدَّد بلُزوجــة مُداهِنة لقادر صاحب السطــوة والمال والعلاقات، البعيد رسميًا عــن السّياسة؛ العَرّاب فيها، والبعض يَنزَوي معه في ركن باحثًا عن صفقة له في زمن الخريف.

"شاكيرا" كَهْرَبَتْ الجَوَّ في هذه الاحتفال الافتتاحيّ الرهيب في الملعب الأوليمبيّ في برلين، ومعهــا "وايكلف چين"، فغَنَّيَا نسخة

خاصّة من أغنية (hips don’t lie) التي أُطلِقَ عليها نسخة البامبو. ظَهرَتْ شـاكيرا بردائها الأحمر المُذهل الذي يشبه بذلات الرقص الشرقية وأشعَلَتْ الدنيا.

كانت مبـاراة لا تُنْسى، فازت فيها إيطاليـا بضربات الترجيح بعد تعادُل في الوقتَيْـن الأصلي والإضافي بنتيجة 1 إلى 1، والتي طُـرِدَ فيها اللاعب زين الدين زيدان بعـد تَعرُّضه لإهانات لفظية مُشينة، كما قيلَ لاحقًا، فنطح المدافع الإيطالي "ماركو ماتيراتسي" وأسقَطَه أرضًا.

انقَسَم الحضور في الفِيلّا بين مُشَـجّع لإيطاليا ومُشَجّع لفرنسا، وربَّما كنتُ أنا الوحيد الذي يُشـجّع "اللعبـة الحلوة" من الفريقيْن. انشغَلْتُ بتشجيع حسناء مُلفِتة، خمّنْتُ أنها من دول الكاريبي، لكنها كانـت من إثيوبيا ضمن الوَصيفات اللاتي يقدّمنَ لنا المشـروبات الاحتفالية واللقَيْمَات السّريعة. كنتُ أعيد لها نُطقَ الكلمات العربية التـي تنطقها، فتكرّرها في مهارة وخِفّة ظِلّ، تَبادَلتُ معها الابتسامَ غامزًا بتَهَكُّم صامت على عجرفة وعَنْجَهية البعض مع الوصيفات، فغمرَتْني بخدمة خاصّة من الدرجة الأولى.

الحناجر كانت تصيح وتصمتْ وتبالغ وتشـجُبْ. تشتُم بتهذيب دبلوماسـيّ قبل السُكْر وببَذاءةِ سَفَلة مُنْحَطّين بعد الثُّمالة. يَحتَسون أفضل المشـروبات من ويسكـي إسكتلندي ونبيـذ أحمر إيطالي

وفرنسي ونبيذ أبيض نمساوي وبيرة تشيكية، وغيرها من كلّ نوع مُنكِر مُزْهِر يخطُر على البال. أمّا الطعام فالحديث عنه يَطول.

قادر بَدَا معتادًا بالطبع على هذه الأجواء الاحتفالية الباذخة. أَطَلَّ كاهـمٍّ نَجم في تلك الليلة، واثقًا من نفسه وذَوقه وضيافته وسَطوته. كان قـد جهّز مفاجأة للحاضرين سواء انتهت المباراة بفوز إيطاليا أو هزيمتها.

فتح لنا أكثر من عشـر زجاجات من نبيذ "النَّسر الصّارخ" التي أعرف شـكلَها فارغًا في البـارات الفخمة بعلامة الطائر بالأبيض والأسْـوَد (Screaming Eagle) والتي يزيد سعر الزّجاجة الواحدة عـن ثلاثمائة يورو، ثمَّ فتح المجنون فـي مفاجأة من العيار الثقيل زجَاجةَ "دوم بيرينوه" (Dom Perignon White Gold Jeroboam) المُسمّاة باسم قارورة الذهب الأبيض. حَكَى عنها في خشوع وكأنّه يقدّم قُربانًا في مَعبد أمام آلهـة غير مرئية، وممّا ذَكَره أنّ سعرها تَجاوز الأربعين ألف دولار. السّعـر الباهظ جَذَبَ الجميع فتَحلّقوا حـول الزجاجة واقترب راغِبو اللمْـس والمعايَنة كأطفال يتأمّلون لعبة جديدة.

وصيفة أوكرانيـة ساحرة تَبخْتَرَتْ برشـاقة وهي تَدفع أمامها مائدة بعَجَلات مغطّاة بديباجة زرقاء في لون فانلّة الفريق الإيطالي. ارتدَتْ الوصيفة رداءً مشابهًا للزّجاجة حتى بَدَتْ كأنّها نموذج مُكبَّر

لها في هيئة متحرّكة. اقترب قـادر وتبرّع بخُطبة عَصماء بهيجة عـن الفوز الذي سمّاهُ انتصارًا، وعن فرحته الغامرة التي اعتَبرها انتصـارًا، وعَن أحقّية هذه الليلة بتلـك القارورة الذهبية التي تمثّل انتصارًا. رَفَعَ الديباجةَ مثل ساحر، لتظهر زجاجة رَشيقة تختفي في عباءة فضّية مفتوحة مـن أعلى لأسفل مثل بُرْنُس أو رُوب ورقبة الزّجاجة تتطلّع منها كرأس شـيطان صغيـر، قال إنّه تَعَرَّف على هذه الزّجاجة في ولاية "نيو أورليانز" بولاية "لويزيانا" في أميركا، وتحديدًا في الحيّ الفرنسي، ولا عجب؛ فالزّجاجة فرنسية المَنشـأ، قالها كَمَن يَتحدَّثُ عن صديقة حميمة ذات حَسَب ونَسَب، يُعرِّفنا بها. كان قد تذوَّقَها وهو برفقة صديق ملياردير عربيّ معروف يعمل في مجال العقارات والبنوك، وقد سافر قادِر خصّيصًا إلى فرنسا بسبب تلك الساحرة؛ المُخَبَّأة خلف العباءة، وهذا الطعم النادر، وهذا السعر الشـاهق الذي يُرغِم على الشـهقات. قال أخيرًا إنّ تلك الليلة تُعَدُّ مناسَبة نادرة ولا بدَّ من نَحر هذه الفاتنة على شـرف هذا الانتصار التاريخي.

صُبَّتْ الشَّـمبانيا الفَوّارة في حوالَيْ عشـر كـؤوس، يعني أنَّ الكأس الذي كان في يدي وشربتُه بتلذُّذ -وللصّدق كنتُ أتأمّله أكثر ممّا أشـربه- يعادل أربعة آلاف دولار تقريبًـا. تذوَّقتُه متلَذِّذًا على عشر رشفات "بطيئات"، حاسبًا أنَّ الرشفة الواحدة قيمتها أربعمائة دولار؛ أيّ ما يعادل إيجار شـقّتي لثلاثـة أسابيع؛ يعني احتسيت

كأسا يعادل ثمنها إيجار شــقتي لنصف عــام. يا له من بذخ احمق أتحامــق أنا فيه ومعـــه بحس مرتبك متناقض بين مشـــاركة فعلية ورفــض ذهني! وأدّعي التفكير الأشيان فيمـــا يمكن أن تفعله قيمة كأس واحدة مع الجوعى في جنوب الصحراء الكبرى أو المشرّدين في شوارع أميركا الجنوبية والمهمّشين في كلّ القارّات. في صمت كنتُ أحتسي معهم نخب خيبتنا العالمية، المُضمتة وأشارك متواطئا في حفل التأبين البهيج لهذا المأتم العربي المُزمن!

ألــمْ أقل: إنّ موقفي قد يكون مانعًا، وإنّني أحاول تبريرَه لنفسي لجبْر خاطري! ها قد راجعتُ نفسي بسُخط اعتبرته أضعف الإيمان لشخص يَلتهم اللحوم بغزارة ويرفع شعار أنه نباتيّ!

بل وفوق ذلك، طلبتُ منه الزّجاجة الفارغة لأحتفظ بها، فأهداني إيّاهـــا بكلّ سرور لتكون ذكرى لهـــذه الليلة المُختَلّة. تقبع الزجاجة عندي على رفّ من رفوف المَكتبة لتُذكّرني بتلك اللحظات النادرة، وبهذا الرداء المفتوح أو المشروخ الذي يُضاهي حالتي وحالَنا.

بعد أيام قليلة كنتُ أريد أن أُثبّت الزجاجة على رَفّ المَكتبة بين الكتب حتى لا تَقع، أمسكتُ برواية (السُخْط) لمؤلّفها "فيليب روث" ووَضعتُها على يمين الزّجاجة؛ فانحَشَــرَتْ من اليسار بكتاب حَمَل عنــوان (نهاية العالَم الثالث) لمُؤلّفه "نيجل هاريس". كان اختياري مُتعمَّدًا لأضع السُخْط رديفًا للشُــؤم بنهايـــة العالم الثالث في جملة نَظَر مفيدة!

(على المــرء ألّا يموت قبل أن يتــذوَّق "دوم بيرينوه"). هكذا ترجَمتْ لي "سُكَّر" معنى الجملة المَكتوبة بخَطّ ذهبيّ أنيق بالفرنسية على بطاقة كُحلية معَلَّقة بشــريط أحمــر رفيع على عنق الزّجاجة وبخَتْم من الرَّصاص. ناديتُ على وصيفتي الحسناء "كانداسه" التي قالــت لي إنَّ معنى اسمها "سُكَّر" أو حلوى، فَصِرتُ أناديها، بـاسم "سُكَّر" طوال الليلة، استجابَتْ وفَرِحَتْ بالاسم الجديد.

"الحمــد لله، يمكنني الآن أن أمــوت مرتاحَ البال بعد أن أدَّيتُ فَرْضًا مهِمًّا في الحياة!"

كان هذا ردّي التلقائي على الترجمة الفرنسية الذي ناسَبَ ضحكة "سُكَّر" العذبة التي تَلَتْ ردّي.

تَخدَّل بدني من فعل الخمر، رحتُ في غفوة وعيْناي مفتوحتان. كنــتُ أهذي وأنا أظنّ أنّنــي أرد على مُحَدِّثــي أو مُحَدِّثتي. غِبتُ لحظــات. أتذكَّر أن كانداسه كانت تقــف إلى جواري وتبتسم، وقد عَيَّنَــتْ نفسَها وصيفة خاصّة لي في هذه الليلة الزرقاء. لا أدري لِمَ تخيَّلتُها ابنتي رغم أنَّ فارق السِّنّ بيننا لا يُوحي بذلك.

رأيتُنــي أدخل بيتًا أصفر الجدران، تجذبني إليــه فتاة سمراءُ لم أرَ مَن هي أكــثر منها فتنــة لا في صَحو ولا في مَنام، بوجه تزيِّنــه النضارة، ملفوفة بثــوب من حريــر فِضّي مُطَعَّــم بخطوط زرقــاء، يَشِفُّ عليهــا، فتتبيّن سطوة جسم أبدع الخالق في نــار طينتها النورانية. جَلَستْ إليَّ وصَبَّتْ

لي في كأس شرابًا خالبًا احتسيتُه دَفْعة واحدة دون نَفس، قدّمتْ لي أخرى فتباطأتُ في الاحتساء. صَهَدَ جسمها وهي تدنو بالثالثة فدَنَوْتُ وارتويتُ. مددتُ يدي لجيدهَا المَجيد فأغمضتُ وغمْغَمْتُ، شَدَدتُها من كتفها ولَثمتُها، تراخَتْ هي واشتَدَدتُ أنا. مذاق الشراب كان مُسْكِرًا ومُسَكّرًا. شَرِبَتْ معي أو تهيّأ لي ذلك، وكَلَّمَتني بلسان أجنبي لكني فهمتها، طلبَتْ منّي أن أفُضّ غلالتها وكانت غَلِمة وكنتُ غَليمًا، فَغبتُ في مفاتنها زمنًا وصحوتُ ونحن جسم واحد مُتّحد. كانت ناعسة مستسلمة ورُضابُها يَحِنّ حلاوة على لساني، وكفها المَلساء الدافئة الصغيرة تغطّي عَوْرَتي.

أفَقْتُ في جلستي متوتّرًا وإلى جواري كانداسه حاملة كأسًا من النبيذ الأحمر القاني تقدّمه لي. وتُكمِل لي حكايتها. سألتُها بالألمانية:

"هل أنتِ مولودة في ڤيينّا؟"

"لا، أنا أعيش هنا منذ خمس سنوات."

"لكنَّكِ تتكلمين الألمانية بطلاقة."

"أتَرى ذلك؟ شكرًا! لقد تَقدَّمتُ للجامعة بعد وصولي وقبول لجوئي في سرعة غير متَوَقَّعة. درستُ الطبَّ وتوقّفتُ ثم مارستُ التمريضَ وتوقّفتُ، ثم تزوّجتُ من نمساويّ وكان لنا مطعم متميّز يقدّم وجَبات أفريقية. انفصلنا. رماني حالي لأعمل في أكبر شركة

"كيترينــج" لتقديم الأطعمة الجاهزة فــي المناسبات. لنا امتيازات ومرَتَّبات مُجْزِية في خدمتنا التي تَتطَلَّب منّا السرّية التامّة؛ فعملنا في الغالب في أماكن خاصّة، ومع نُخْبة معيَّنة من صَفْوة المجتمع."

حين احسَّتْ أنّ نظرتي بها إدانة صامِتة، تَابَعَتْ:

"أرجــو ألّا يذهب ذِهنُكَ لبعيد. لا يجــوز التعرُّض لنا من قِبَل عملائنا أو ضيوفهم بأيّ شــكل، وليس مسموحًـــا بأيّ تحرُّش من الشــخص المُضيف وإلّا سيتعرَّض لشــرط جَزائـــي باهِظ ينظّمه التعاقُد بوضوح، كما لا يجوز لنا ممارَسة أيّ حميمية مع المُضيف أو ضيوفه مَهمَا كان. نتعرَّض بالطبع في بعض الأحيان لمضايقات طائِشة وتَحرُّشات رَعْنَاءَ من ضيوف هائِجين؛ لَكنَّنا مدرَّبات على التملُّص منها بذكاء ودبلوماسية، والضيف على كلّ حالٍ يكون قد تعهَّد بمسؤوليته عن سلامتنا!"

"وهل لكم أقارب هنا؟"

"نعم، لي أخت اسمها 'لِيلاني'."

"هل تسكن معكم؟"

"تسكــن معي ولا تسكن عندي!". بَدَتْ لَمعة دموع محبوسة في عَيْنيها. أدارت وجهها.

"هل هي فَزّورة؟ تسكن معكم ولا تسكن عندكم؟"

"هي في المدينة نفسها، في ڤيينّا."

"هل تتزاوران؟"

"أنا أزورها لكنَّها لا تستطيع أن تزورني!"

حَمْلَقتُ فيها مستغربًا، وضايَقَني إحساسي أنّني أبدو كَمَن يحقِّق معها طوال الوقـــت، لكن لم يَبدُ عليها أيّ امتعاض، قلتُ في نفسي ربَّما الشراب قد أغباني وأعماني عن فهم ردودها، فتابعتُ:

"أين تُقيم أختكِ؟ في أيّ حيّ في ڤيينا؟"

طَفَرتْ منها الدمعة الكبيرة المحبوسة، دمعة كبرياء حزين، دون أن تتغيّر ملامحها:

"في مقابر ڤيينا المركزية؟"

"أعرف الحيّ جيّدًا! نعم، الحيّ الحادي عشر، لي صديق عزيز من كولومبيا يسكن هناك!"

"لا، هي تسكن بالفعل 'في' مقابر ڤيينا المركزية!"

وطَفَـرَتْ بقية الدمْعاتِ المحبوسة فغيَّبــتْ جمال وألق عيْنيها. تعجَّبتُ من حوارنا: أين أنا؟ وأين نحكي؟ وعَمّ نحكي؟ وهل لسعتْني الخمر؟ هل هي تحكي عن القاهرة؛ عن مقابر الإمام، وتُرَب الغفير والشافعي؟ جاء رَدّ "سُكَّر" صادِرًا من مكان سحيق:

"لِيلاني ماتت منذ عامين!"

هل افاقتني جملَتها الصادِمة، أم صدمتني جملتها فغبتُ؟ كلّ ما اذكــره انّني كنتُ َاودّ ان اسالهـــا كيف اتَتْ هي إلى هنا، وظروف مجيئها؛ لكــن سيرة أختها لِيلاني اربكتْني، وجَمّدَتْ ما تَبَقّى عندي من كلام.

15

الوحيدة التي عرفت الكثيرَ من تفاصيل علاقته بشُهْدَة هي نادين. هل نادين كانت الصندوق الأبيض لمينا الذي اعترف فيه عن عمد بمعظم لذاته البَهيّة ونزْعاته البريئة الطاهِرة وانسجامه ومحاسنه ومآثره.

مرَّت ثلاث سنوات وشهران على تاريخ اللقاء الأوّل بينهما في ڤيينا. يوم أن دخل القاعة وهو شبه عارٍ ثم أسقط الإزارِ عن جسمه ليحوّل نفسه إلى جسد لناهِمي الرسم والتّخطيط، لم تُنزِل عيْنيها عن عيْنيه. تعلّقتْ بهما في لقاء سيمتد. لن ينسى عَرَق التُوت البرّي الذي تذوّقه من يدها. لن ينسى صاحبة غطــاء الرأس الأزرق والقرْط اللؤلؤي. لن ينسى أغنياتها وهَمْهَماتها الأمومية التي كانت تُسرِّب له النّعاس في شــفتها أو شــقته، لن ينسى دبيبَ قدمَيها الذي يُميّزها عن دبّة أيّ امــرأة غيرها في العالم، لن ينسى حكاياتها الشــيّقة ولا نباهتها وسرعة بديهتها وحِنيّتها.

"الطريق إلى قلب امرأة: شمعةٌ ووردة!"

يقــول مينا لنادين. اتّحَدا معًا لثلاث سنوات، صارت قرينة له بلا عقد زواج، وصار صَفِيًّا لها بعَهد صامِت أسمَى من كل موافقة بـ"نعم قَبِلْتُك زوجًا لي!" في أيّ كنيسة أو مسجد أو أيّ بيت رَبّ أو مكتَب تزويج. الشــيء الوحيد الذي أبقَيا عليه بلا اتحــاد هو سكناهما المنفصلان. يتلاقيان كثيرًا في شــقتها أو في شقته، وقد يبقى الواحد منهما لأيام عند الآخر. انساب هذا التواصل بانسجام إذ إن كلًا منهما لديه نسخة مفتاح من شــقّة الآخر. كثيرًا ما كانت تُفاجِئه بلا موعد بوجودها في شــقته الصغيرة في شارع ميلدَه مانّ شــتراسّه في الحيّ العشرين، وفيما بعــد في "بيرج جاسّة" أو ما كــان يُسمّيه "حارة فرويد" في الحيّ التاسع. ترتّب له شــقّته وتهتمّ بالنباتات التــي زيّنَــتها بها، وخاصة تلك النخلة الصغيرة التي أهدَتها له في عيد ميلاده. هو أيضًا يُفاجئها طابخًا لها طعامًا شــرقيًّا تُحِبُّه ولم تكن تتوقعه، أو حاملًا لها باقــة ورود اختارها بعناية، يضعها بذوق فنّان في مزهرية مناسبة، ويشعل لها شمعات ملوّنة تناسب عشاء جميلًا جهّزه لها، ويتناجيان في حديث عَذب يناسب هذا الجوّ.

أسَرَّ لها بما كانت تعني لــه غَمزة عينها اليسرى العَذبة التي دفّأته، وعــن تفسيره لها، وأسَرّتْ له أنها كانت أسيرة رائحته كلّما اقتربَتْ، ورهينــة صوته كلّما هَمَس. صداقتهما كانت أعذَب من زواج، وأمتَن من وثاق؛ نوع نادر تلاقى بقَدَر الفنّ الجميل.

نادين تعرف أنه لم يَهِمْ في حياته بأحد مثلما هام بشُهْدَة. كانت تقول له: "الشــكر للربّ أنّ لي شَــعرةَ مَحبّة في قلبك ممّا لها عندك، ولو خيّرتنــي فيما أتمنّى لــوددتُ أن أبقى معك طوال عمري راضية بأقل مَحبّة!"

في حقيقة الأمر كان مينا يُدرك أنه قديمًا في القاهرة أحَبَّ حُبَّ عمره، وحيــن غادرها أدرك أنه لن يرتبط بأحد فيمــا سيتبقّى له من عُمر، ولا حتى بشُــهْدَة؛ فهناك لحظة في الحياة إذا انقطع فيها وَتَر المحبة

فمن المستحيل إصلاحه. قد ينكسر الحبّ بفعل طائش لِمُحِبّ، ويصعُب ترميم هذا الكَسْر مدى الحياة، لكن لدى نُدْرة من الأشخاص يتمتّعون بصفاء الـــرُّوح وتَسامح النفس لا تُوَدِّي تلــك المحبّةَ المَكسورة أو المُنكسِـــرة إلى كراهية. مينا لن يكره شـــهْدَة، لكنّه سيحبُّها بطريقته الخاصّة، سيحتفظ بذكراها كشخص نادر كان في الماضي ولن يتكرّر. شَـــريك أضاع شوقًا من الصعب أن يُستَعاد. مينا لن يعيش على وَهْم الذكـــرى بل سيحفظها في مكان لائـــق؛ في صُندوقٍ لا هو أبيض ولا أسود، ربّما صندوق برتقالي سقط مع حُطام عِشْق تَهَشّم قبل أن يصل إلى مينائه. صندوق سيظهر بعد زمـــن مُسَجَّلا عليه تاريخ رحلتهما الفريدة في الحياة وتفاصيلها. سَيُنصِتُ مرّات للشـــريط ويحتفظ به، لكنّه لن يكرّر التّرحال على مَتْن محبّته لشَهْدَة مرّةً أخرى في حياته.

ستسأله نادين سؤالًا مُباغِتًا كعادتها:

"هل أنت خبير بالنساء يا مينا؟"

"كنتُ أظنُّ ذلك! لكنّي جرّبْتُ تصرُّفات مُتناقضة معهنّ، مرّةً أعاملهُنّ مـــن اليميـــن فأجدهُنّ يُحبِّذْنَ اليسار، ومرّةً أبدأ من اليسار فأجدهُنّ يَمِلْنَ لليمين!"

"هذا طَبْع بشري وليس أُنْثويًّا بالتّحديد!"

" طبعًا! لكن تَقَلّبهنّ السريع هو المشكلة."

"عليكَ أن تتمتّع بالصبر إنْ كنتَ تحبُّ حقًّا!"

"الصبر على مَحَبّة المرأة من أصعب الامتحانات، فحين ينضج الحبُّ يحتـــاج لِيَد تقطفه في الوقـــت المناسب، وسيستجيـــب للقَطف دون مُمانَعـــة؛ بل سيكون مُمتنًّا، لكن لو صَبَرَ القاطِفُ أزْيَدَ من اللازم؛ فقد تَعطب الثّمرة في مكانها أو تسقط وتَتَهَرَّسُ، وسوف تعافـــها النفس، وتمتدّ اليدَ لأخرى لم تَطَأ الأرض، وقد تُزَيّن شـــهوةُ التعجّل للمرء أن يقطف محبّةً نَيِّئة ويُعاني من مرارتها!"

"محبة نيّنة، هذا تعبير بارع!"

"لا بدّ أن يقطف الحبّ في أوانه المناسب، وهذا يحتاج لحِنْكة وتقدير وسرعة بلا تسَرُّع!"

في هذه اللحظة كانت نادين تختبره بنظرة مثل جهاز أشـعّة يكشـف الباطِـنَ، تتمنّى أن تُدرك أيّ مَحبّة يشـعر بها مينـا في هذا المكان الجديد، ولِمَنْ تكون.

يتـوق للقاءاته مع نادين، معها يَجْتَرّ كلّ جميـل مَنسيّ، تُعينه على ترميم ما تهَشّم من ذكرياته السارّة.

لا يتذكّـر كلّ مـا تسرّب من لسانه لسيلڤيا عن شُـهْدَة فوق سطحها السمــاوي، وأضواء الليل "تُبَرْبِش" كأنّهـا تنصت لأسرار خجولة، والنبيـذ الأبيـض يجذِبه إلـى مَنابع جنّات من نخيلِ بـلاده وأعناب بلادهـا، يتذكّر فقط استفسارها: "لماذا كذبتَ على شُـهْدَة يا مينا؟" يتذكّـر استِرساله عن التاكسي المُعطّل وكتـاب فرويد وحديثه معها عـن الزواج العُرفي وعن استغرابها الذي جعلها تتّخِذ حركات لاعبة جُمباز.

رغم ارتياحه اللامحدود لسيلڤيا وبَوْحه الحُرّ معها؛ إلّا أنّه بَقِيَ معها دون كَشْفِ كلّ صندوقه الأسود.

لكنّـه يتذكّر كلّ ما قالـه لنادِين، ويتذكّر أن صندوقـه لم يكُن معها أبيضَ فحسب؛ بل كان شـفّافًا. كانت كاهِن اعترافه وخَلاصه. عرفت بسـرِّ زواجه العُرفي، الذي تمكّنَتْ شُـهْدَة بواسطته أن تتواجد معه في كل مكـان تقريبًا، حامِلة وثيقة ورقية مكتوبة بخطّ اليد، ومُوقّعة منهما ومن شـاهِدَيْن، يُبْرِزانها إذا ما تَعرّضا لِتَوْقيف أخلاقي يبحث في شـرعية علاقتهما وتَواجُدِهما معًا، وهي علـى كلّ حال لم تُبالغ بالظهور إلّا بما يحفظ للعلاقة عمرًا أطول.

هذا ما حدث عندما أصبحت شُهْدَة زوجة لمينا عُرفيًا.

شُـــهْدَة ورثتْ عن أبيها تلك الرغبة في لذّة الدنيا. لكنها عاشت تحت رقابـــة أمومية لم تُراع الحـــدّ الأدنى من احترام جسم شـــابّ يفور بالحياة. حَلّ "الطهارة" الذي اختارته الأمّ ذات يوم مشؤوم في ريف بعيد كان أردأ الحلول، شـــهْدَة لم تكـــن مُنْفَلِتة، لها فقط رغبات أنثى يَقِظة بفِطرة جُبِلَتْ بها. رغبـــات فورانها المبكّر الجارف كان يحتاج لترويض إنساني هادئ، وليس إلـــى قَمْع وزَجْر ورَدْع وكَبْت، لكنّها من أسَف عانـــت من كلّ صنوف هذه الصرامـــة الإرهابية الأمومية المُمَنْهَجة.

لذلك حين وجدَتْ ذات حبّ قِسْمَتَها ونصيبها، تحوّلَتْ إلى زهرة لوتس تتفتّح عند بزوغ الفجر وتغلق بَتلاتُها عند حلول الليل، هكذا كانا معًا بحُكم لقاءاتهما النهاريـــة؛ فالمبيت معه كان محظورًا عليها بالطبع. لكنّ مينا تمكّن بعشـــقه الفَيَضاني من أن يردّ لها ما سلبوه منها ذات يوم في ريف كئيب: الأمان ونِغمَة الحياة.

حِضْنُهُ صار مخبأ اشتهائها وانتمائها، لَمْسَته أعادت لها حِسّ حوّاء الأزلي، الحِسّ البِكر الذي تعرفه قِلّة من النساء. تَفَتّحَتْ له لِتَنعم بنداه المُتدَفِق عبر نداء الحياة. أنفاسه رمّمَتْ صَلْصَالَها المشروخ، وأحْيَتْ كلّ مباهجها المدفونة.

لكـــن هناك أمور حدثتْ غيّرتْ الأقدار. هناك أسرار كثيرة انزلقتْ إلى قاع الصندوق الأسود، ويصعب الآن الحصول عليها.

لمّا تحسّنَتْ أحوال مينا ماديًا في فيينا، أوصى أصدقاءه بإخباره فورًا بأيّ شقّة قريبة مناسبة في الأحياء المُتَاخِمة للحيّ الأوّل، تحديدًا من الحيّ الثاني حتى التاسع، فهو بعيد نسبيًا بسَكَنِه في الحيّ العشـــرين

في شـــارع ميلده مانّ شتراسّه. رغم أنّه من عُشّاق المشي في فيينا؛ إلّا أنه يتمنى أن يقترب قليـــلا من وَسَط المدينة، ويُخفّف من طوافه الدائم في تلك المدينة المستديرة، التي إن مَشَيْتَ فيها بلا دليل ستجد نفسك قد عُدْتَ لنقطة البداية دون أن تدري!

"قرأتُ توًّا إعلانًا في جريدة 'البازار' الإعلانية عن شـــقّة في 'بيرج جاسّه' بالحيّ التاسع يا مينا!" اتّصَلَتْ نادين به، فردّ عليها:

"عظيم جدًا، الحيّ التاسع من أجمل الأحياء!"

"بلا شكّ! سأحكي لك عنه فيما بَعْد، فقد سكنتُ به فترة. المُهمّ، عليك بالاتّصال بهذا الرقم فورًا. هل معكَ ورقة وقلم؟"

"طبعًا!"

أمْلَتْه رقـــم التليفون وطلبتْ منه أن يطير إلـــى هناك، فالإيجار يبدو مناسبًا جدًا كما هو مكتـــوب في الإعلان، وسوف تقابله في العنوان إيّاه في غضون نصف ساعة.

"بيرج جاسّه.. بيرج جاسّه" كرّر العنوانَ كَمَنْ يُكرّر اسم شخص يفرّ من دفتر ذاكرته. تســـاءل: هل هناك أحد من الأصدقاء أو الصديقات يسكن في هذا الشـــارع؟ هل له هو علاقة بهذا الشـــارع؟ سأل نفسَه وهو سائق درّاجته بأقصى سرعة إلى هناك، ما إنْ دخل الشارع حتى تذكّـــر فورًا لماذا عَلقَ هذا العنوان بذاكرته. إنّه الشـــارع الذي يوجد فيه متحف وبيت سيجمونـــد فرويد. اتّسعتْ ملامح وجهه باستغراب مُنْتَشٍ، حين وجد نفسَه أمام المنزل رقم 19 بالضبط المُواجه للمُتحف الذي كان بيت وعيادة أشهر عالِم نَفس في العالم: سيجموند فرويد. هـــل هي صدفة أم قـــدَر خَفِيّ؟ هل هو (الهذيـــان والأحلام في الفنّ)

الذي وقع ذات يوم من التاكسي في القاهرة، أمْ هو شــيء من (الحلم وتأويله)؟

فــي كلّ الأحوال هذا فألّ طيّب، وينْبــن بإحساس غامض لكنّه مريح للنفس.

الشقة أوسع ممّا توقّع: غرفتان وصالة ومطبخ، والأجمل أن الحمّام داخلها. الشــقة ملك لصاحبتها، شــابّة صغيــرة ورثتْها عن أهلها. ترغب في تأجيرها لوقت طويل نسبيًا، بعقد إيجار قابل للتجديد لأربع سنوات، وهي فترة سفرها بعقد عمــل إلى مدينة "بانجول" عاصمة جامبيا لتعمل هناك لدى اللجنة الأفريقية لحقوق الإنسان والشعوب.

يرى بيانو فــي الركن، يبعث في نفسه ذكرى مثيرة، حين اكتشــف ذات يــوم مهارة شــهْدة في العزف عليه في بيــت صديقة لهما في الإسكندرية. ستترك صاحبة الشــقة هذا البيانو، ستترك الشــقة بما فيها، ستأخذ فقط القليل ممّا تحتاجه، ستستأذن فقط المستأجر الجديد أو المستأجــرة الجديدة في السماح بتــرْك خزانة ملابس مغلقة على أشــيائها الخاصّة التي لا تستطيع أو لا تريــد نقلها حتى تعود إليها ذات يوم، وستترك البيانو في الركن كما هو. يكاد يشــعر أنها تركت له كائنًا حيًّا.

كانت الشابّة صاحبة الشقة على سفر بعد أسبوع؛ لذا كانت في عَجَلة من أمر الانتهاء من تأجيرها. حين وصل مينا كان المرشّــح الثالث، وصل ووجــد اثنين قبله لمعاينتها. الإيجــار أربعمائة يورو. جهزت العقــد وفي انتظار الاتفاق على بنوده المكتوبة والشــفوية. الشــقة والمكان راقا له جــدًا، موقعها ممتاز وإيجارها معقول لن يجد مثلها أبــدًا في هذا الحيّ. طلبتْ -كما هو متعارف عليه- مبلغ تأمين مُقدّمًا، يعادل ثلاثة شــهور من قيمة الإيجار. الشابّ الأوّل الذي أراد الشقة

كـــان معه خمسمائة يورو فقط، والشـــابّة الأخرى التي أرادتْها كانت طالبـــة عرضتْ أن تذهب فورًا للبنك، لكنها لن تتمكّن من سحب أكثر من أربعمائة يورو كَحَدّ يومي أقصى للسَّحب النقدي. قالت الطالبة إنّ بإمكانها أن تتصرَّف لـــو مَنَحَتْها مُهلة حتى اليوم التالي. بينما وقف مينـــا صامتًا كالبُهْلول بلا مال. كانت صاحبة الشـــقّة في حيرة أيضًا، فهـــي في حاجة للمال بأسرع ما يمكن، وهو ينظر بافتِتَان إلى البيانو المُنزَوِي في الركن.

في هذه اللحظة دخلَتْ نادين لاهثةً من الباب المفتوح. سألَتْه إنْ كانت الشـــقّة أعْجَبَتْهُ، قال بأسى: "نعـــم.. أعْجبتني جدًا، ولكن.." قبل أن يُكمِل جُملته المَغمومة، وجدها تُخرج مظروفًا وتقول له غامزةً بعيْنها اليسرى: "مبروك!" ثم وجَّهتْ سؤالها لصاحبة الشـــقّة: "كَمْ المبلغ المطلوب للتّأمين؟"

"مبلغ التأمين هو ألفٌ ومائتا يورو!"

عَدَّت نادين مبلغَ ألف ومائتَيْ يورو وقَدَّمَتْها لصاحبة الشقّة.

انفَرَجَـــتْ أساريرُ، وعَبَسَتْ أساريرُ. بقَـــي ثَلاثةٌ وخَرَج اثنان، ووُقِّعَ العَقد.

"إنّها نادين! الرُّوح المُحَلِّقة التـــي تسير على قدمَيْن!" قالها لِنَفْسه بينما باحَتْ عيْناه بأجمل ممّا أسَرَّ لنفسه.

وحدي في الشـــقّة مع البيانو، بيانو عتيق يَرتدي حُلّة من غُبار رمـــادي وبعض بيوت العَنْكبوت، وكغريزة بشـــرية فضولية يمتدّ إصبعٌ منّي ليُجرِّب العزف على أنظف مفتاحين فيه، فيُصدِر البيانو صوتـــا مبحوحًا في رَمَقِه الأخير، يُذكِّرُني بالأفلام التي ينتظر فيها

الشـــخص المُختَضَر وُصولَ أحد الأشخاص ليُسِرَّ له بآخر جملتين حاسِمَتَيْن ثمّ ينازع، وتُغادره الرُّوح فورًا. بعد آخر نغمتَيْن صعدتْ رُوح البيانـــو إلى خالقها، وبَقِيَ جسده في كَفَـــن الغُبار وأنا أمسح إصبعي على بنطلوني عند فخذي، كَمَنْ يُخفي جريمة ارتكبها.

قبـــل أقلّ من أسبوعيْـــن كنتُ في طَريقي مـــن مَحَلّ سكني في الحيّ العشرين مُتَوجّهًا إلى "لوفْين جاسّه" أو "حارة الأسد"؛ لزيارة متحـــف وبيـــت "هوندارت-ڤاسّار هاوس". ما زلـــتُ لا أهمَد عن محاولات الترجمة من أجل الشـــعور بأُلفـــة مُعظم ما حولي. كنتُ ذاهبًا على مَضَض لمُعاينة شـــقّة لم أكُنْ مُقْتنعًا كثيرًا بالذهاب إليها لأنّها صغيرة وفي طابق أرضي وبإيجار مرتفع كما علِمْتُ. اتّخذت طريقي مَشـــيًا، آمِلًا أن يكون المشـــي على الأقل أمْتَع من مُعاينة شـــقّة؛ فأنا قد وقعتُ من زمن في غرام اكتشاف ڤيينّا على القدميْن. حـــدَّدتُ طريقي بسرعة على الخريطـــة، وعرفتُ أنَّ وصولي إلى قنال الدانوب حتى تَقاطُع "شـــارع الباخـــرة" سيكون بداية "حارة الأسد".

حيـــن وصلتُ إلى بداية الشـــارِع رأيـــتُ مجموعة من الرجال الأنيقين قد دخلوا للمكان يسبقهم فريق من الشباب. تحرّكوا بسرعة ونظام مثل فرقة عسكرية تتحـــوّل في ثوانٍ من فَوْضى إلى نظام.

كانوا في ملابس نمساوية تقليدية يَغْلُب عليها اللّون البُنّي والأخضر وقُبّعات مُمَيّزة، حملوا آلات موسيقية، معظمها آلاتُ نَفْخ. وُضِعَتْ مَنَصّة صغيرة عالية زيّنُوها بباقة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء على شَــكْل عَلَم النّمسا. فضولي أوقَفَني، إضافة لنظرات الترحيب التــي أهدَوها إليَّ ببَذَخ وبدون سابــق معرفة. كان من الواضح أنّ هناك شخصية مُهمّة أجْهَلها برزَتْ من حركاتها البطيئة ونظراتها الأبْطــأ وملابسها الأكثر أناقة، إضافــة لالتفاف البعض حولها مع غزارة التّصوير الفوتوغرافي وأخْذ الحوارات السريعة، ربّما كان رئيــس الحيّ أو نائب عمدة فْيينّا. الواضح هو وجود غالبية عُظمى مــن البذلات والكرافتات رغم حرارة الجــوّ، إضافة لأناقة نسائية مُفْرِطة ذات كُعوب عالية وأريج عطور جَذّابة.

وَزّعَتْ فتاتان عند مدخل الشــارع ورقــة مُلَوّنة عليها عنوان عريض: (افتتاح "طريق أنجيلو سوليمان" في الحيّ الثالث).

"سوليمــان! سوليمان!" كررتُ الاســم كعادتي، لكن هذه المرّة ليــس لأستَذْكِره وإنّما لاستغرابي لأنّــه اسمي كما ينطقونه هنا في فْيينا: "سولي مان، مينا سولي مان". هل عِشْــتُ لليوم الذي أصبح يوجــد فيه طريق فــي فْيينّا باسم عائلتي! أعَــدْتُ قراءة الاسم من الإعلان الــذي في يدي وعن النُّبْذة القصيرة التي تفيد بتغيير الذيل الأخير لحارة الأسد، ليتحوّل إلى هذا الاسم الجديد المُوَضّح بخريطة

توضيحية صغيرة. في حيرتي اقتربت حسناء بنسمة وأعطتني الإعلان نفسه مرّة أخرى، لم أرفضه لأنّها قدّمته ومعه واحدة من كرات شوكولاتة "موتسارت كوجل" الشهيرة. أمسكت الإعلان متمنيًا أن أقرأ شيئًا آخر لكنّه كان مثل سابقه: (افتتاح "طريق أنجيلو سوليمان" في الحيّ الثالث).

لم أعرف مَنْ هي هذه الشخصية المهمّة التي غيّروا نهاية الشارع لاسمها، احتفظت بالإعلانَيْن معي ووقفتُ وسط الاحتفال أتتبع المشهد والملابس التقليدية أكثر من اهتمامي بالكلام الذي انسكب، وبالبذلات التي تتوالى على الميكروفون لتقرأ من أوراق بِضع جُمَل شكر وثناء مكرّر وسط التصوير والتصفيق من المجموعة الصغيرة الفضولية مثلي، أو مِمَّنْ جَذَبَتْهُم شوكولاتة موتسارت كوجل الشهيرة.

لا أدري لماذا مَرّ بذهني ذاك اللقاء القديم مع مانويل الأفروأميركي النمساوي الذي عرّفتني عليه نادين في مقهى "هافيلكا" في الحيّ الأول ذات يوم. وقوله لي الذي لم أنسه: "معظم السياسيين الآن يا مينا يعملون بمنطق الصحفي الشاطر لا المُفكّر الواعي. السياسي الحديث يعشق الصوت الاستعراضي العالي المُحَرِّض على التفاعُل الجماهيري السّطحي. ينادي بحرّية الأكثرية التي تُذِلّ الأقلية وتقود للظّلم وتغتال المساواة. وقتل المساواة يؤدّي لحركات انتقامية ضدّ

الظلم، وهنا ينشـط السياسي 'الشاطر' بتصدير مرجعية لأصحاب الحركـات الانتقامية ووَضْعِها أمام الجماهيـر الهائِجة للتصرُّف، يلعبها بخُبْث وخداع غادِر ويغادر الملعب وهو ضامِن النتيجة!"

الآن أُدرِكُ مـا كان يقصد. بقيتُ طوال اليـوم أفكّر في أنچيلو سوليمان.

"مَنْ هو أنچيلو سوليمان يا نادين؟"

في المساء سألـتُ نادين هذا السؤال فجأة، باترًا شـرحًا مُهمًّا علـى غير عادة منّي وتوضيحًا منها عـن معنى اسم الحيّ التاسع (ألْزَر-جروند(*)) وعن الفَرقِ بين كلمة (جاسّه) و(شْتْراسّه)(**) في الألمانية، قاطعتُ كلامها في لَهْوَجَة ليست من طبعي كأنّي سأنسى لـو انتظرت لثوانٍ. نَظرَتْ لي مُنْدَهشـة وقَطَّبَ جبينها قليلًا: "أين قرأتَ هذا الاسم؟". حكيتُ لهـا حكاية احتفال الصباح؛ فحَكَتْ لي أغرب حكاية:

"هذه رسالتي للماجستير التـي قدّمْتُها قبل ستّ سنوات لجامعة ڤيينا، وكان عنوانها (عُنصرية النّمساويّين من القرن السابع عشـر

(*) معنى Alsergrund: يأتي المعنى من كلمة التي يقصد بها Als وهو اسم جدول مائي معناه: الرطيب. وتعني (جروند): الارض

(**) شِتراسّه تعني (شارع)، جاسّه تعني (حارة)، والشوارع عادة بأسماء أشخاص، وهي أعرَض من الحارات مهما كان طول الحارة، وتعني شتراسّه في الأصل: الطريق المرصوف بالحَصَى

حتـى بداية الألفية الثالثة)" قامت ناديــن لمكتبتها ووضعتْ أمامي أُطروحة ضخمة مُجَلَّدة بغلاف أسود، عليه اسمها في حروف ذهبية. فاجأتني. سألتُها: "هل حصلــتِ بالفعل على درجة الماجستير عن هذه الرسالـــة؟". "لا، للأسف، والحكاية باختصار أنّ أحد الأساتذة رفــض هذا العنوان، وأراد تعديل المُحتوى، ورغم مُساندة أستاذي المُشرف لي؛ إلّا أن التعطيل والتجاهُل أحبطانني، فتركتُ الجامعةَ وحوّلتُ نفسي إلى أكاديمية الفنون!".

حَكَتْ لي أنها من خلال أُطروحتها أرادت أن تجد ردًّا علميًّا واضحًا على ســؤال مُركّب: (هل النّمساويّـــات والنّمساويّون عُنصُريّون؟ وضـــدُّ مَنْ؟ ومنذ متى؟) حدّثتني عن فكـــرة الأُطروحة ومنهجها، وسَـــرَدَتْ إصرارَ النّمساويين على استعمـــال كلمات عُنْصُرية في لغتهــم المنطوقة والمكتوبة حتـــى اليوم، مثل: كلمـــة (تسيجوينَر Zigeuner) وتعني: غَجَر؛ أو كلمة (تشـــوش Tschusch) وتعني: كلّ مَـــنْ هو من أصْل سِلافي، وتُطْلَق للتَّحْقير؛ و(كاناكه Kanake) وتعنـــي: كلّ مَـــنْ هو مِن أصْـــل تُرْكي، وتُطْلَق لـــلإذْلال؛ وكلمة (نيجَـــر Neger) وتعني: زِنْجي، وتُطْلَـــق للإهانة؛ و(نيجَر كونيج Negerkönig) وهـــو اسم مَلِك الزُّنوجِ الذي كـــان يُوجَد في قصّة للأطفـــال حُوِّلَ الاسم حديثًا إلى (زود سيه كونيج Südseekönig)؛ أي مَلِك بحر الجنوب؛ و(مور إم هِمد Mohr im Hemd)، ومعناها: "أسود في قميص"، وهو اسم وجبة نمساوية من الحلويات؛ وكلمة

(نيجَــر بروت Negerbrot)، وهو نوع من الشــوكولاته الممزوج بالفول السوداني، يطلقون عليهــا "خُبز العبيد". أو "عِيش العَبْد"، وغيرها.

كنتُ مندهشًا مشدوهًا متعجّبًا مَبْهوتًا ومذهولًا وهي تُرِيني فصل الأُطروحة المُعَنْوَن باســم (أنچيلو سوليمان: مومياء على الطريقة النّمساويــة) قَرَأتْ لــي بعض المقاطع التي أجابــت على تَساؤلي وأوْفَتْ:

"أنچيلو سوليمان" مولود تقريبًا في العام 1721 في منطقة ربّما تقع حاليًا في شــمال شرق نيجيريا، وتُوُفّي في 21 نوفمبر من عام 1796 في ڤيينّا، وكان شخصية مشهورة في القرن الثامن عشر في الأوساط الأرستقراطية داخل ڤيينا.

بعد إبادة عشيرته بسبب الصراعات؛ سقط في أيدي المُنتصِرين الذيــن قايَضوه مُقابل حصــان مع أحد الأوروبييــن، وعندما بلغ العاشــرة نُقِل بَحْرًا الى "ميسينا" في جزيرة صقلّية، هناك اشترَتْه إحدى النبيلات أو أُهدِيَ إليها، واهتمّتْ بتربيته وتعليمه. مَالَتْ إليه وصيفــة تُدْعَى "أنجلينا"، ومن هنا جــاء اسم "أنچيلو" الذي ارتبط بــه حتى وفاته، وأُضيفَ له لقب عائلي "سوليمان"، ثم عُمِّدَ فصار اسْمُه (أنچيلو سوليمان) واعتُبِر هذا اليوم بمثابة عيد ميلاده.

بعد طلب لَحُوح أُهْدِيَ في العام 1734 إلى الأمير "يوهان چورج

كريستيان فون لوبكوفيتس"، الذي عيّنهُ خادمًا مُقرّبًا وجنديًّا ورفيق سَفَـر، وفي إحدى المعارك أنقذ سوليمان حيـاة الأمير؛ ممّا جعله يَحْظـى لديه بوَضْع اجتماعي مُمَيّـز. بعد وفاة "لوبكوفيتس" انتقل سوليمان في العام 1753 إلى "فورست ڤينزل ليختنشتاين"، وأصبح هناك رئيس الخَدَم. وصار صديقًا للقيصر "يوسيف الثّاني" وغيره من نُبَلاء ذاك الزمان.

تـزَّوج سوليمان من "ماجدالينا كيلرمان" في 6 فبراير من العام 1768 دون عِلْم الأمير، ولمّا كان ليختنشـتاين قد مَنَع زواجَ خَدَمِه ليتجنّـب تَحَمُّل أعباء ذُرِّيّتهم، وبسبب إفشـاء سرّ زواجه من قِبَل يوزيف الثاني؛ فقد رُفِتَ سوليمان من الخدمة فورًا."

كانـت نادين مسترسلة وأنا لا أريـد أن أطرح أيّ استفسار. ما تقرأه يَشـدُّني ويُثَبّتُني في مكاني. لا أريد حتى أن أُصْدِر أيّ حركة قد تُوقِفُها؛ حتى مَثانتي الخائنة كَبَحْتُها وتَسَمَّرْتُ في مكاني كالصَّنم وهي تُكمل:

"ابنتـه "چوزفين" وُلِدَت له في العـام 1772 وتُوُفّيَت في عمر التاسعة والعشـرين، وفي العام 1781 قُبِلَ سوليمـان في ڤيينّا في المَحْفِلِ الماسوني. وتدرّج في بضعة مناصب وانخرط في كثير من الصداقات المُهِمّة.

توفّي فـي العام 1796 بسكتة دِماغِية، فقام أحد النحّاتين بتَحْنيط

راس سوليمان، ثم جُهِّزَ جِلْدُه في عام 1806 وعُرِضَ في مجموعة التاريخ الطبيعي الإمبراطورية كَمُتَوَحِّش شبه عارٍ بتاج من الريش وقِــلادة من الوَدَع مع ثلاثة أفارِقة مُحَنَّطين وسْط حيوانات غريبة. ابنته، البارونة چوزفين احتجَّت ضدَّ إدارة المعرض لعرضها رُفاةَ أبيهـــا وحاولَـــتْ عَبَثًا إعادة دَفْن ما تبقَّى مِـــن رُفاتِه طبقًا للطَّقوس المسيحية.

خلال انتفاضة ڤيينّا في أكتوبر عام 1848 احترق جسد سوليمان المُحَنَّط من جرّاء قذيفة.

في عام 2013، في ڤيينّا بالحيّ الثالث غُيِّرَ جزء من شارع وسُمِّيَ بـ"طريــق أنچيلو سوليمان" بعد أن رُفِضَ الطلب على إعادة تسمية كامل شـــارع (لوڤين جاسّه) باسمه، وأُصدِرَ طابَع بريد خاصّ من فئة 55 سنت في عام 2006 لسوليمان ناظرًا نظرة اعتداد واعتزاز، ممسكًا في يده صولجانَ على هيئة رأس أسَد."

لـــم يجد مينا رغبة في أيّ ســـؤال. أراد أن يستوعب كلّ الكلام الذي تُلِيَ عليه. صَمَتَ.

صَمَتَ، وبقِيَ ولم يذهب إلى شـــقّته، نام عند نادين حتى اليوم التالي، حالمًا بكوابيس كثيرة أفسَدَتْ نومه.

مينا أصبح من سُكّان الحيّ التاسع، سَعِدَ كثيرًا بهذا الانتقال من شارع

تَعْبَق منه روائح دمار للعالَم، إلى شارع تُخَيّم عليه كلّ نَوازِع النفس البشرية وتحليلها.

اعتـــاد أن يستعمل درّاجته أكثر مـــن قَبْل. إن لم يَجِـــدْ مكانًا لِرَكْنِها وتأمينها في أماكن رَكْن الدرّاجات؛ كان يربِطها في أقرب عمود أمام أو جانب المبنى الذي يسكن فيه.

كأنّـــه رأى طيفًا ما. كان مُنْهَمِكًا في فكّ جنزيـــر تأمين الدرّاجة، فلم يُرجِعْ رأسه لناحية ما اعتقد أنّه رآه. داهمَتْ رأسَه عشـــرات الأسئلة دَفعـــةً واحدةً ولم تخرج إجابة وحيـــدة. أغمض عينيه ليحبس فيهما هذا الطيْف الـــذي لاح له ولم يركّز في فتح الجَنزير. يتحسَّر على ما سمعـــه عن أيام أمـــان فيينا التي حَكَتْ له عنها فـــراو هيرمينه. أيام وَضْع أيّ شـــيء في أيّ مكان دون الحاجة لتأمين وغَلْق وخوف من السّرِقَة.

يستمر مينا في تشتيت ذهنه عَمْدًا، فيتذكّر اليومَ الذي أضحك فيه فراو هيرمينـــه حين قال: "نحن لنا الاسم نفسه؛ أنتم (هيرمينه) وأنا (هير مينا)(*)!". وأكمل: "عرفتُ معنى اسمكم من القاموس؛ هيرمينه هي مؤنّث (هيرمان)، ويعني المُحارِبة أو المُقاوِمة".

"لم أكن أعرف ذلك! هذا معنًى جميل، أشـــكرك!"، قالتها له بامتنان أشرق به وجهُها كُلّه حتى عيْناها اللتان لا ترَيانه!

لن يتمكّن من التخَلّص من الطيْف الذي باغته واستمرّ. يتشوّش ذهنه فـــي تناقض بين محاولة إلهاء ذهنه بأيّ شـــيء طارئ وبين التّثَبُّت ممّـــا رأى. يريد أن ينظر للطيْف ولْيَكُـــنْ ما يكون. يتراجع ويستكمل تَذَكُّرَه لفـــراو هيرمينه، هي بالفعل حاربَتْ الزمن ووصل عمرها إلى

(*) كلمة هيرْ Herr تعني السيد في الألمانية

الخامسة والثّمانين، لكنّها ما زالت نَشِــطة سريعة الحركة والمشي. شقّتها نظيفة مُرتّبة دائمًا، وأصّص ورودها نَضِرة، وملابسها مُنسّقة وأنيقة رغــم موضتها القديمــة. حكتْ له عن درّاجتهــا التي كانت تستعملها وتذهب بها إلى المكتبة الوطنية، ثم تتركها -حين تعود من أيّ مشــوار لها- عند مدخل البيت دون قفل ودون أيّ تأمين، وظلّت على هذه الحال لسنــوات ولم تُسرَق أبدًا، كذلك عربات الأطفال التي كانــت تُوضَع في مداخل البيوت. قالت: "في العشــرين سنة الأخيرة تغيّرتْ فيينّا كثيرًا، صار ضياع أيّ شــيء سهلًا، وظهرَ النشّــالون المحترفون، وأغلبهم بنات صغيــرات جُلوات نَحيلات يأتينَ من بلاد بعيدة، لا يمكــن للرّاكِب أن يتخيّل من لُطفِهــنّ وصِغرِهنّ وجَمالِهنّ أنّهنّ نشّــالات مُحترفات. مُؤخّرًا سُرقتْ فراو هيرمينه ثلاث مرّات؛ سُرِقــتْ محفظتها في السوبر ماركت مرة ونُشِــلتْ في زحام المترو مرّتين. كما سُرِقتْ الدرّاجات التي أتاحتها الدولة للمواطنين في فيينّا بمُقابل زهيد، نُقِلَتْ منها كَمّية كبيرة إلى خارج حدود النّمسا!".

"بــلاش عَبَط وخَيابَة يا مينا.. بُصّ إن كانتْ هِيّا فِعلًا ولا اتهيّألك!" حَــدّثَ مينا نفسه قبل أن ينتفض ناظرًا نحو الطيْف، فكلّ هذه الأفكار لم تأخذ منه أقلّ من ثوان مثل أيّ حُلم.

هل من المعقول أن تكون هي فعلًا؛ تلك الواقِفة التي أراها من جانبها أمــام بيت سيجموند فرويد؟ هل إلى هذا الحدّ تُشــبِهها؟ مستحيل أن تكون هنا، والآن، وفي هذا الشارع بالذات!

16

السهرة اكتملت عند قادِر قبل منتصف الليل بقليل بوصول فريق من حوريّات الجنّة لِلَحسِ ما تبقّى من عقول الضيوف، استدعاهُنّ قادر بعد فوْز إيطاليا في المباراة، أو ربّما كُنّ يعشّشـن بمكان خفّي في هذا البيت، أو قـد تكون الخمر زيّنَتْ لي ما أرى. ظَهَرْنَ فجأة ولم يكُنّ نادلاتنـا الحسناوات بالطبع. قال قادِر إنـه على كلّ منّا اختيـار واحدة منهنّ وأن يصعد لأيّ غرفة يريد. انتفض واحد فقط من الضيوف كأنّه لُدِغَ وتذرَّع بموعد هامّ، فغمز لي قادر وودّعه، بينما انقضّ البقية مثل ضِباع مسعورة على غزلان شاردة. اختفوا تباعًا كلّ بغزالة شهية اختارها. وبينما قادر منشغل بإعادة مشاهدة ضربات الجزاء من المباراة التي سجّلها وهو في شـدّة الاستمتاع والصياح، طاف وجه من الشرّ على مُحيّاه، التفتَ لي مستغربًا أنّني لم أصعد مع غزالة مثل الباقين قائلًا:

"خطفوا منّك كلّ الجميلات؟"

"لا واللـه.. أنا مرتاح هِنا مــع 'دوم بيرينوه' وأخواتها.. وانتَ ما قَصَّرتِشْ يا قادر!"

"إنتَ مِن أطيَب من قابِلتْ يا مينا.. لكنّ باين عَلِيك داهية!"

"ليه؟" قلتُها بانزعاج.

"كأنّك حاسِس بخدعة!"

قالها وهو يضحك بشَرّ نَتَح بوضوح على وجهه. سَكَتُّ وظهر منّــي وجه الطفل المندهش المنتَظِر توضيحًا، تاركًا له حبل الكلام ليُفَضْفِض وهو شـــبه ثَمِل، لكنّه كان متوازنًا واعيًا لا يضيع ذهنه تمامًا مهما بالغ في الشراب:

"تَعالا معايا.. أورّيك شي!"

قام وهو يشـــدّ يدي. شعرتُ بثقلي وبُطني وأنا أُلَمْلِم نفسي لأقف بصعوبة ملفوفًا بنشوتي أتبعه. نزلنا إلى القبو وفي يده زجاجة نبيذ وكاسين. حملتُ معي زجاجة مياه معدنية وكوبًا.

ما رأيته في القبو كان خيالًا فاق أفلام الخيال العلمي، بل نموذجًا مشـــابهًا لأعتَى أجهزة المخابرات وعرضًـــا لأقسَى مزحة جادّة مُتْخَمة بكلّ عبث وجنون.

في القبو جلسنا في غرفة بعيدة على أريكة عريضة. قدّم لي سيجارة محشوّة بعُشب سَلْطَنة لا يضاهى. من عادتي أن أسحب نفسًا على البارد من السيجارة دون إشعالها لأعرف نكهتها، حتى لو كانت من نوع تذوّقته من قبل. طقس اعْتَدْتُ عليه وأنفّذه عَفويًا. السجائر أتذوّقها مثل تذوّقي للنّبيذ ويختلف عندي طعمها من بلد لآخر بل يختلف طعمها في البلد نفسه من سنة لأخرى. بادرني:

"اتْحَقّقِتْ أمانيك في البَلَد دي يا مينا؟"

كان يجيد اللهجة المصرية بحُكم معيشته في القاهرة لسنوات ويحبّ أن يتكلّم بها، فيعتقد السامع لأوّل وهلة أنه مصري. لكن عند الغضب أو السبّ تتبدّل لهجته في ثانية إلى لهجة أهل بلاده، فلا تفهم شيئًا من "بَرطَمته"، وعليك بترجمة الانفعال والتشويح والزعيق إلى أبسط معنًى بدائي يفهمه الجميع. رددتُ عليه بلساني العامي:

"لو اتْحَقّقِتْ أمنياتي معناه إني ابتَديتْ انحدِر من الجبل!"

ضحك ضحكة قصيرة، قالَ:

"أنا باحبّ أتْفَلْسِف.. والفلسفة أسلوب حياة.. الفلسفة سَفَر مع خيالك!"

"الفلسفة سَفَر؟"

" سَفَر بسّ لازم تِرجَع!"

"ولو ما رجِعْتِش؟"

"يبقــى مش سَفَر.. حيبقــى تذكــرة 'وان واي'.. يعني مُغادرة نهائية.. أو رحيل للأبد!"

صَمَــتَ وهو ينظــر إلى الفراغ ويحــاول التركيز في كلامي، تابعتُ:

"لازم تِنقِذ خيالَك وترجّعه معاك!"

"إزّاي يعني؟"

"أقولك ازّاي؟"

أخذت نفَسًــا "مليان"، وكتمته حتى شــعرتُ أنه صعد لرأسي مباشــرة ولم يذهب للرّئتيــن؛ نفَسًا جَلَبَ شــياطين لذّات المخّ كي تمارس سُلْطَانَها و"سَلْطَنَتَها". جسمي استجاب وخَفّ وشَفّ، فَطِرتُ معــه حتى أحسستُ أنني في مصــر متربّعًا في غُرزة "أبو رِزق" صاحب أحلــى "غُرزة بَلدي" لطلّاب الطبقــة العليا في المَطَرية. كرّرتُ لأربط بقية كلامي:

"أقولَّكْ ازَّايْ! شــوف لمّا تسافِر بخَيالَكْ.. لازم تِقطَع تذكرتين رِجوع.. واحدة ليكْ وواحدة لخيالَكْ!"

"طَبْ إشْرَحْ لي ربِّنا يِعْمِر بيتَك!"

"لـو سافِرْتْ بخيالَك ورجِعتْ لوحدَك.. يِبقَى اتحَرَمتْ من نِعمة الخيال للأبَد.. ولو رِجِعْ خيالَكْ مِنْ غِيرَك.. يِبقَى انتَ حَتْعيش هِناكْ طول عُمْرَكْ في الباي باي في غُرْبة وكَمان مِن غير خَيال!"

كان رَماد السيجارة طويلًا مائلًا لأسفل متماسكًا رغم هشاشـته ورغم اشـتعال السيجارة لنصفها. أحبّ هـذه الحالة من التماسك رغم الهشاشة وأحبّ هؤلاء الأشخاص المتماسكين رغم هشاشتهم. ظلَلْـتُ ممسكًا بها لا أهُزّهـا ولا أنفُضُها في مطفأة السجائر، التي كانت على شكل وَدَعة كبيرة.

فجـأة سمعتُ أصواتًا هائجة خافتة. صوت حالة حميمية، لتنفتح شاشة عرض على شخصين يمارسان الجنس. أخذتني الظنون في مآرب قـادر وميوله وانفراده بي. كنتُ في حالة "رَوْشَـنة" تحت تأثيـر نصفه سُكْر ونصفه "سَلْطَنـة". تصورّتُ أنه من هواة أفلام البورنو. ضحك ضحكة شـرّيرة ناسبتْ ما طفا على وجهه طوال الوقت. قرَّبَ وجه الشخصين باستخدام "الريموت كونترول".

المشـهد الملتهب كان لهذا السفير المتأنّق الذي لغا طوال الوقت عن الأخلاق والفضيلة، والمعـروف بتزمّته ومعاملته الوقحة لكلّ

من حوله في سفارته. بينما كنتُ أبتلع ريقي وأحاول أن أتأكّد من الشخصية التي على الشاشة أمامي، وأنا أرفع سَبّابتي نحو الشاشة مثل طفل غرير نصف استفساره تُكمِلُهُ إشارة من سَبّابته، قال لي:

"أيوه هُوَّه.. هُوَّه بعينُه.. هُوَّه بغَباوتُه!"

ضحكتُ مثله فأحسستُ أنّ ضحكتي أصابتها عدوى الشرّ. اقتربتْ الكاميرا من السيد الدبلوماسي ومن وجه الفتاة الجذّابة ذات الشعر الأشقر الطويل. فبيّنتْ الكاميرا أنها ليستْ فتاة ولا فتًى. لم يفاجئني كونها ثنائية الجنس، ما فاجأني هو الوعظ الدائم للسيد السفير ومسبحته التي لا تغادر كفّه، والتسبيل الوَرِع لعيْنيه، بينما في المشهد الهائج كنتُ أراه هابًّا كالتّيس على "الطويل الرشيق ذي" الشعر الأشقر.

شرّير قادر بالفعل، وأقْدَرُ على غَزْل الشرّ بمنتهى البساطة. انتقلَ عبر ريموت كونترول آخر في يده بين الغرف فرأيتُ العجب وسمعتُ الأعجب. أقذع الشتائم وأحدثها بكلّ اللهجات العربية الدارِجة. كان رَماد السيجارة قد انتثر على بنطلوني الأسود فبان لي كأنّه أُصِيبَ ببندقية رشاشة خَرَّمَتْهُ.

فجأة سمعنا صراخًا وزعيقًا. أغلق الجهاز وصعدنا ركضًا، كان واحدًا من عِلْيَة القوم في شدّة الغيظ منتفخ السحنة يصفع واحدة من الحوريّات التي كانت تسبّه بلغة أجنبية غير مفهومة. بدا سكرانَ

"طِينَة"، وملابسه مُبَهْدَلَة ملقاة على الأرض، وعيْناه شبه مغمضتين وكلامــه غير واضح كمن أُصِيبَ بفالِج، وقد لَبِسَ سرواله الداخلي بالمقلوب دون أن يدري. صرخ بصوت مبحوح غاضب:

"بِنــت القَحبة مِش عايــزه تمُصُّه.. الشَّــرموطة المومِس بنت الزانية.. بِتْمُصّ لِكلّ واحِدْ وتيجي عندي أنا وِلاء؟!"

كــان يقول (لاء) هــذه بتطويل مسرحي ساخــر وهو مفقوع من الغيظ. فَلَتَتْ ضحكة خافتة وشــرّيرة منّي وهو يقف شــبه عارٍ ببوكسر أبيــض مقلوب. تخيّلته واقفًا في اجتماع لمجلس الأمن في الأمــم المتّحدة مطالبًا بحقّ "المصّ" كحق أساسي من حقوق تقرير المصير.

كانت ليلة عجيبة لن أنساها.

اخترتُ مكانًــا هادئًا بعيدًا عن الضجيج، وكان الوقت قريبًا من الفجر، وتلك الكتيبة الخاصّة مــن الوصيفات القائمات على خدمة الطعام والشراب على وشك تجهيز حالهنّ للمغادرة، بينما الحوريّات ما زال أمامهنّ ساعات طويلة لإنجاز مهامهنّ السامية.

سحبــتُ كتابًا صغيرًا لونه أخضر من رفّ مكتبة أمامي عنوانه (الكتــاب الأخضر)، كان من إصدارات عــام 1975، تخيّلتُ أنّني

قرأتُ عنوانًا فرعيًا في أسفل الغــلاف: (الحرب العالمية الثالثة)، حالتي يبدو أنها وصلتْ إلى "رَوْشَنة" متمكّنة. فتحتُ بالصدفة على صفحة في نهايات الكتاب حملتْ عنوان (المرأة)، قرأتُ:

(المرأة تأكل وتشــرب كما يأكل الرجل ويشرب/ المرأة تجوع وتعطش كما يجوع الرجل ويعطش/ المجتمع الإنساني ليس رجالًا فقط، وليس نساءً فقط فهو رجال ونساء.. أيّ رجل وامرأة بالطبيعة/ إذًا كلّ واحد منهما ليس هو الآخر)

ثم وصلتُ إلى زُبَدِ الكلام: (المرأة أنثى، والرجل ذكر) ثم (المرأة تحيض والرجل لا يحيض).

عند هذا الحدّ أدركت أنّني أثقلتُ في الشراب والتدخين. قرأتُ اسم المؤلّف فتوهّمتُ أنّني قرأتُ (معمّر القذّافي)؛ فأدركتُ أنّني وصلتُ إلــى هلوسة وتهيّؤات خيالية، إذ لا يمكن لمثل هذا الكلام أن يكون مكتوبًا، وأيقنتُ أنّ "مشاريب" قادر الروحية وأعشاب السلْطَنة هي من أفخر الأنواع التي عَمَّر بها الأبالسة مِزاج الأرض!

طلبــتُ من كانداسه كأسًــا كبيرًا من المـــاء وفنجانًا من القهوة "الإسبريسّو" القوية، واظنّ أنّني أعدتُ كتابًا صغيرًا أخضرَ لرَفّ المكتبة عنوانه (الكتاب الأخضر)، أو هكذا تخيّلتُ.

أفاقتني كانداسه وفي يدهـــا فنجان القهوة وكأس الماء وابتسامة

حلـوة بوسْعِ جمال سُمرتهـــا. كنتُ بعيدًا عن الجميع في الشــرفة العريضة التـــي تُطِلّ على الحديقة والغابة المظلمة مع نسيم منعش يعيدنـــي تدريجيًّا إلى "الفَوَقان". نفَضتُ رأسي المرتبك وأنا أستعيد ردّها عن أختها لِيلاني:

"لا هي تسكـــن بالفعل في مقابـــر ڤيينّا المركزيـــة! ماتت منذ عامين!"

"احكي لي عن لِيلاني لو كان الحديث لا يزعجك!"

"بالعكس، سيرتها تسعدني رغـــم غيابها." وتابعتْ كلامها وأنا أرتشفُ الماء ظانًّا أنه قهوة.

"لِيلاني تركتْ مدينتنا الأثيرة على بحيرة تانا في (بحر دار) في رحلة مضنية، وكنتُ قد أرسلتُ لها لتأتي إليَّ بعد زواج إخوتي بعد ما أصبحَتْ هي الغريبة داخل بيتنا في وجود زوجات الإخوة. أخواتي الأكبر منّي تزوجن وغادرنَ إلى بيوتهنّ وبقيتْ لِيلاني. اشتكتْ لي من حالها وعزلتها ونَأْيِ الأقارب وجشعهم وتغيُّر وضيق الأحوال. كنّـــا نعيش بالقرب من كنيسة القدّيس جـــورج، وكانت لي صديقة عزيزة تعمل كممرضة، عشـــنا في بيتين متجاوريْن كأختيْن ونشأنا معًا. تعرّفَتْ على نمساوي يعمل لدى مؤسّسة خيرية نمساوية كان لها فرعٌ في إثيوبيا. أحبّها وتزوّجها وجاءت معه إلى ڤيينّا. انفصلا بعد أقلّ من عامين فانتقلَتْ وحدها لشـــقّة صغيرة. شـــجّعتني على

السفر إليها. وافقتُ وظننتُ أنّ تغييرًا للأفضل ينتظرني. حياتها لم تكن بالروعة التي ظننتها.

سافـــرتُ إليها وخضتُ تجربة غُربة غريبـــة، وكما ذكرتُ لك قُبِلْتُ بالجامعة، وحصلتُ على اللجوء والإقامة، وتوقّفتُ عن دراسة الطبّ ومارستُ التمريض مثل صديقتي، ثم تزوّجتُ من نمساوي، والبقية تعرفها.

المهمّ أنني أرسلـــتُ لأختي لِيلاني لتأتي إليّ. جابهتْها مصاعبُ لا تُوصَـــف من أجـــل الحصول على تأشـــيرة للنّمسا، ولم تحصل عليها، فقامتْ بمغامـــرة مُضنية تحتاج حديثًا لأسبوع. جاءت عبر الخرطوم ومنها إلى ليبيا فـــي طريق برّي مفتوح على مصراعيه للنّهْش والتحرُّش والابتزاز، ليتبعه طريق بحري في نعوش الموت حتى إيطاليا. جاءتني منهارة بعد أن رأت الموت عشرات المرات. لم تكن أختي التي أعرفها، حتى ملامحها كانت متبدّلة هاذيَة. كنتُ أنظر إلى وجههـــا مَلِيًّا في الأيام الأولى، وكـــدتُ أُجْزِم أنّ واحدة أخـــرى قد استولتْ على جواز سفرها وأتـــتْ إليّ بدلًا منها. ظلّتْ منعزلة طوال وجودها، صائمة عن الكلام تَهُزُّ رأسها فقط بالإيجاب أو النفي. تأكل بصعوبة ثم تتقيّأ كلّ طعام فيه ذرّة مِلح. حين تمطر السمـــاء كانت ترتجـــف وتدخل إلى أقرب زاويـــة أو محلّ تختفي فيه أو تركض للبيت مذعـــورة إن استطاعت. لم ترغب في رؤية

نهــر الدانوب أبدًا، ولو اضطرّت للمرور به أو عليه، كانت ترتعد وتُغمِض عينيهــا وتتضرّع بصلوات وابتهالات حزينة. نحن الذين عشــنا بالقرب من بحيرة تانا الرائعــة، ولنا تاريخ عريق مع الماء ونحفظ ذكريات البلل الجميل والسباحة، ينتهي الأمر بأعزّ أخت لي فــي الدنيا لأن تهلع من الماء. ليلاني لم تكن تجرؤ على الاستحمام وحدها، كنتُ أحمّمها كـ"رضيعة" مستسلمة وما إنْ تشــعر بالماء حتى تتحــوّل لنَمِرة عنيدة. لم ترغب أبــدًا أن تغطس في بانيو أو حتى أن أصبّ عليها بعض الماء. أحمّمها وهي واقفة ترتجف كأنّها تستَحمّ بثلج."

رحــتُ في نوم في آخر الدنيا، أسمع أصواتًا لا أفهمها، أشــعر ببرد يعرّيني، أرغب في الصحو ولا أستطيع أو ربّما لا أريد.

عند ظهر اليــوم التالي صحوتُ متيبّسًا مــن النوم على الكنبة الضيّقة. الغرفة مُعتِمة بستائرها السميكة، تساعد على الاسترخاء، وصــوت امرأة تتحدّث في تليفون بلغة لا أعرفها. قمتُ أبحث عن كانداسه وعن قادر. كانت السيّــدة التي تتحدّث في التليفون أمامي تَلْبس قُفَازًا للتّنظيف وتُلَمْلِم بقايا الزجاجات الفارغة وأشياء تناثرتْ فــي الغرفة. سألتُها بالألمانية عن قادر، فبدا أنها لا تفهمني. جرّبتُ بالإنجليزية فرَدّتْ بجملة واحدة: (هِرّ كَدير ڤيـجّ!)" فهمتُ أنه غير موجود. أردتُ أن أطلب منها قهوة، لكنّي تصوّرتُ صعوبة فهمها

لطلبي فتخلّيتُ عــن الفكرة والرغبة الملحّة. قمتُ للحمّام وخرجتُ عازمًا على العودة إلى شقّتي.

لا أعرف كيف وصلتُ لشــقّتي. خلعتُ ملابسي وارتميتُ على السريــر بملابسي الداخلية. حاولتُ أن أتذكّر تفاصيل الليلة الفائتة. تداخلَــتْ في ذهني هلوسات كثيرة. هــل حَكَتْ لي كانداسه عن أخ حاول السفر إليها ولقي حَتْفَهُ في البحر؟ هل تحدّثتْ عن أخت اسمها ليلاني وعن رحلة مُهلكة. فضّلتُ أن أنام لساعتين وأقوم لآخذ دشًا طويلًا ساخنًا وأخرج.

مينـــا يدرك تمامًا أنّ كلّ محظور وممنوع ومحرّم نرتكبه في الأحلام؛ فيها نُنَفّس عن كُبتِنا، أو نغسل قماشـــة النهـــار المُتّسخة بمسحوق الأحلام، ويدرك أنّ المبالغة في الحُلم لا يجوز قياسها بميزان شرائع اليقظة. ثمّة أحلام لا نسردها لأحد، نخفيها في صندوق أسود، لكنها تحضِر من تلقاء نفسها وتتكرّر؛ نتجاهلها إن باتت ولا ننبئ بها أحدًا؛ لأنّ هنـــاك من سيرى فيها قبَسًا من الواقـــع، وسيحاكِم صاحبها بلا رحمة بقانون الصحو.

سيحلـــم مينا بأنّ أباه غضِب عليـــه ونفاه لسبب ما إلى مكان غريب؛ إلى موضع واسع مغلّف بأخضر كثيف، يقشعرّ جِلده فيه من حَسيس ودمدمة وخشخشة ستصيبه بالجُفول والإحجام.

بَغتة وهو يســير اتّسعتْ الرؤية وانحسر الخَضــار. تذكّر أنّ هذا البيت الأصفــر البعيد فوق الهضبة هو بيت أهله. التفَــتْ فيه اشجار يندُر أن

تتواجد في بقعة واحدة: تَنُّوب وسَرو ونَخيل وزَيزَفون وصُنوبَر وحُور وصَفصـاف وتَبَلْدي وتين ورمّان وكَرْز وزيتـون. اتّجه إلى البيت. فتح البـاب ودخل. رأى فتاة سمراء ملفوفـة بثوب شفّاف من حرير فِضّي مُطَعّم بخطوط زرقاء.

كان عطشانَ. جلستْ إليه وصبّتْ له كأسًا من شراب له مذاق الرُّمّان فكسرتْ عطشه. شربتْ معه وكلّمته بلسان غريب لكنّه فهمها.

كأنّه أفاق وأدرك أنها ابنته، ولم يكن مندهشًا؛ بل ملتذًّا منشرحًا متوتّرًا غائصًـا في أحاسيس مُلتبسة. رأى لوحـة ضخمة على الجدار، صورته عليهـا نائمًا مُجَنّبًا خلفها؛ خلف ابنته المُستَلقيـة مثله، يتأمّلها في اشتهاء وهـي مَلْوِيّة العنق تنظر له في تَوَلُّه. يداه ناعستان على جسمها العاري، حاملة كأسًا من نبيذ أحمر قانٍ وهما مضطجعان تحت شجرة تين عتيقة سميكـة. في الخلفية كانت ثمّة امـرأة تَنتَحِب ويداها علـى رأسها من ذهول، تَخزُهُ ببصـرها، وخلفها مدينة دامية في حُمرة قيامة كأنّها تحترق أو تغرق في طوفان من دم.

سيتذكّر في هذه اللحظة أنّ أباه قد نفاه، لأنه اكتشفه يتلصّص على أمّه -التي ولدته- وهـي عارية تستحمّ. كان ينظر إليها مفتونًا بملاحتها ولم يكن يشعر بأيّ إثم أو ذنب فيما يفعل. تأمّلها بسـرور. جرّه أبوه من أذنه مثل سَخْلَة. سار مسحوبًا مألومًا في يد أبيه العملاق الجبّار. سمعت أمّه صوته المتألم فنادته بحنان. فحذّره أبوه: "لا تَنْبَسْ بحرف!"؛ فلم ينطق،

ثـم دفعه بيده دفعة جبّـارة في الفضاء. رأى نفســه ارتفع لمكان شاهق مُعتـم ثـم تهاوى حتى وقع وسط هـذه الغابة الخضـراء. قام بعد ذلك متّجهًا نحو هذا البيت الملفوف بالأشجار فوق تلك الهضبة العالية.

يظنّ مينا أنه لن يذكر هذا الحُلم لأحد أبدًا، سيعتبره فصلًا من تاريخه السـرّي؛ قبَسًا من لذاته البهية ونزعاتـــه المخفية، لكنه تحت وطأة حمّى شـديدة انتابته سيحكي لنادين الحُلـم دون أن يدري ودون أن يتذكر.

لـن يتمكّن من تنْحِيَـة هذا الحُلم وإقصاء هذه الذكـرى. الحُلم يأتيه متكـرّرًا كل حين غصبًا عنه. سيكون هــذا الحُلم -في ظنّه- مُخبّأً في صندوقـه الأسود الذي سجّـل فيه تاريخه السـرّي؛ حماقاته ولذاته الماجنة ونزعاته الشاذة المخفية وتناقضاته وخطاياه. ذاك الصندوق المخفي في قعر سحيق.

17

في عيد ميلاد كاتيا الثالث والثلاثين قرّرنا كمجموعة أن نحتفل معهــا احتفالًا مميّــزًا. أقنعتُهم أنّ سنّ الثالثــة والثلاثين هي أحلى سنين العمر للاحتفال بعيد ميلاد مميّز وليست العشرين أو الثلاثين أو الأربعيــن، بل الثانية والعشــرين والثالثــة والثلاثين والرابعة والأربعين، وهكذا. قلتُ لهم إنّ الرقمين المتشابهين في العمر دائمًا فــأل الخير والحــظّ السعيد. بدا أنهم اقتنعــوا بكلامي؛ فلم أكن في حاجــة لاختراع قصّة إضافية من قصصـــي الوهمية التي يحبّونها لتعزيز فكرتي.

قرّرنــا أن نحتفل بها في كافيه "لاتّــه" Latte الذي يقدّم وجبة مجانية لصاحب عيد الميلاد، بعد أن يُظهِر الشخصُ ما يُثبِتُ تاريخ ميــلاده رسميًا، وأن يكون مع صاحب عيد الميلاد شــخص واحد على الأقلّ.

اصطحبتُ نادين معي فهي تعرف كاتيا وتحبّها كثيرًا. اشـــترينا هدية مناسبة وذهبنا للكافيه. ظهــرَتْ كاتيا بتألّقها المعتاد، وعندما خلعــتْ الجَاكيت بــدتْ أكثر ألقًا في بلوزتها الســـوداء التي تظهر كتفيْها وظهرها وجزءًا كبيرًا من صدرها. لاحظتُ وجود أكثر من وَشْـــم في الأماكن العارية. لم أرَ منها سابقًا إلّا ثلاثة وُشوم: واحد في قدمها اليمنى وثانٍ في رُسغها الأيسر وثالث عند أسفل عمودها الفِقَري على شـــكل نَسر فاردٍ جناحيـــه، وهذا الأخير رأيته يوم كنّا على شاطئ العُراة. قالت إنها وضعتْ وَشْمًا جديدًا على كتفها الأيمن لغـــراب وعلى ظهرها لبومة في حجـــم كبير. أضحكني اختيارها. حكيتُ لهم عن تشـــاؤم الناس عندنا من الغراب والبومة تحديدًا من بيـــن كلّ الطيور التي خلقها اللـه! وجدتهـــا كاتيا فرصة لِتبْرَع في مرافعة تُناصر كلاهما. تحدّثتْ عن ذكاء الغراب عن كافّة الطيور، وعن جمال البومة، وأنها الطائر الوحيد الذي له أجفان مثل البشر، وكيف يتّخذها الكثيرون فـــي العالم الغربي الحديث رمزًا للحكمة؛ لذا فهي شعار لكثير من المدارس والجامعات ودُور النشر، قبل أن تكمل دفاعها؛ طَمْأنْتُها أنّني أحبّ الاثنين جدًّا برغم التراث العريق في مجتمعـــي المُحَفِّز على كراهيتهما. قالت: "حتى هنا في أوروبّا فـــي العصر الوسيط كانت البومة رمزًا للشّـــؤم أيضًا، لأنها كانت تعيش فـــي المقابر والخرائب والأطلال والقِلاع المهجورة، وكانوا يطلقون عليها (رســـولُ الموت) وما زالت تظهر في أفلام الرعب كرمز للترهيب!".

تعدّد الكلام في موضوعات مختلفة من الشرق والغرب مرة برابط ومرات بدون، كمعظم جلسات الاحتفالات في مكان عامّ صاخب. بسبب الضوضاء وصعوبة الإنصات واضطرار يوناس لتكرار كلامه بصوت أعلى، أرهفْتُ سمعي له عندما كان يتحدّث عن فيلم، ففضولي يتعاظم حينما يتعلّق الحديث بفيلم أو كتاب أو معرض أو ما شابه. قال إنه يبحث عن فيلم قديم غير معروف، فهو يريد أن يقدّمه في معهد السينما كمشروع للتخرُّج. التقطتْ منه نادين هذه الجملة، وفي لحظةِ توقُّفِ الموسيقى لثوانٍ، قالت:

"طلبك عندي يا يوناس! أودّ أن أدعوكم لمشاهدة فيلم نادِر وغير معروف في بيتي غدًا لمن يحبّ." وافق جميع المحتفلات والمحتفلين فورًا.

قضينا وقتًا طويلًا جميلًا في مقهى لاتّه أو (حليب) كما ترجمتْ لي نادين معناه عن الإيطالية، ووعدها الجميع بالذهاب إليها عصر اليوم التالي الموافق السبت لنسهر مع هذا الفيلم.

"لم أعرف منك من قبل بموضوع هذا الفيلم النادر، ما قصّته؟" سألتها ونحن عائدان إلى شقّتي مَشْيًا.

"كلام يوناس ذكّرني بفيلم ربّما يفاجئكَ انتَ أيضًا. لن أحكي لكَ عنه الآن!" قالت وهي تضحك. ابتسمتُ وكان مزاجي رائقًا. قرّرتُ أن انتظر تلك المفاجأة، ولم أُكْثِرْ من الاستفسار. احتويتُ نادين

تحت ذراعي اليمنـــى فطوّقتني بذراعها اليسرى من تحت معطفي وثَبَّتَتْ كفّها بأصابعها الدافئة عند خَصري.

وصل أغلب الصديقات والأصدقاء فـــي الموعد. ذكرتْ نادين أنهـــا عثرتْ على هذا الفيلم النادر وســـط "كراكيب" ومخلّفات في بيت "توربي" شقيق جدّها لأمها الذي تُوفّي حديثًا، فقام كاتب العدل الخاصّ -الـــذي كلّفته المحافظة- بحَصر مقتنيـــات الجدّ الموجودة في شـــقّته وإعلام الورثة بها واتّخاذ الإجراءات القّانونية لتوزيعها علـــى المستحقّين. هجم كلّ الأقارب في غزوة ضِباع نسفتْ ما في الشقة خلال يوميْن حَسْبَ قول حارسة العمارة التي صعدتْ مرات مع الأقـــارب المسعورين في حضور كاتب العـــدل. قالت نادين: "تخاطفوا محتويات الشـــقة وجرّدوها حتى من أصغر ملعقة، حين ذهبتُ إلى هناك شعرتُ أنّني أمرّ بسوق البراغيث مساء السبت بعد انتهاء البيع.

أمْر هؤلاء الضِّباع كـــان غريبًا موجِعًا. في حياته لم يزره أحد إلّا فـــي مناسبات نادرة كأعياد الميلاد في ديسمبر، من أجل إظهار وَرَع دينـــي كاذب أو للحصول على هدايا لهم أو لأطفالهم. أمّا عيد ميلاده هو فَلَم يتذكّره أحد سواي، حرِصتُ دائمًا على زيارته حاملة معي (تورتة صاخَر)، أضع له فيها كلّ سنة شـــمعة واحدة: (شمعة

واحـــدة فقط، حتى تقدر على إطفائها!) أُمازحه كلّ عام بهذه الجملة فيقهقـــه كثيرًا، وأرى في عينيه ابتهاج طفـــل صغير فأُصابُ مثله بعدوى السعادة والفرح."

"توربي" شـــقيق جدّها كانٍ يعمل في مطبعة قديمة تستعمل الحروف التركيبيـــة القديمة التي يُركّب فيها كلّ حـــرف إلى جوار الآخر حتى تكتمـــل الكلمة ثم الجملـــة ثم الصفحة وهكذا، ولمّـــا أفلَستْ المطبعة كـــان قد تجاوز الخمسين. قام مكتب العمـــل بإعادة تأهيله ليعمل في مجـــالات مملّة كطباعة أوراقِ الحوائط أو دِباغـــة الحقائب الجلدية، وهـــي أعمال لـــم تناسبه، لكنه تمكّن أخيرًا مـــن أن يجد له عملًا في مطبعة أخرى شـــهيرة اسمها (فرايتاج أوند برنْدت)، كانت وما زالت الأشهر في طباعة الخرائط، ظل يعمل فيها إلى أن حصل على معاش مبكّـــر بالكـــاد يكفيه. من حسن حظه أنه حصل على شـــقّة أبيه بعقد دائـــم مدى الحيـــاة وبإيجار زهيد، لكنّه عاش حيـــاة منعزلة مصادقًا الكتـــب والقراءة وبضـــع هوايات تحفظ له عالمـــه الأثير القديم من الانفراط مثل جمع الطوابع والصـــور القديمة، مُبقِيًا على جرامافون عتيق وتليفزيون قديم أبيض وأسود، وتليفون ثابت ضخم لم يغيّرها حتّـــى وفاته. استولوا على الجرامافون بالطبع لقيمته العالية وتركوا التليفزيون والتليفون لـــم يأخذهما أحد من ضِباع الورثة، واحتفظتُ بهما أنا كتذكار جميل منه.

تقـــول نادين: "كنتُ أحبّه وأزوره أيضًا بتقصير لكنْ على الأقلّ ثلاث مرات سنويًا، خُضـــتُ حروبًا كثيرة خصوصًا مع أبي حتى يسمح لي بالذهاب إليه، ولولا شـــعرة تواطؤ نادرة من أمّي معي؛ لمـــا أمكَنَ لي أن أراه، لكنّي قـــرّرتُ ألّا أتكاسل عن الاحتفال معه بعيد ميلاده مهما يكُن، قـــد نؤجّله لأيام أو أسابيع لكن لا بدّ لنا من

الاحتفـــال معًا بتورتة صاخَر العظيمة ذات الشـــمعة الوحيدة. كان توربي دليلي للتّعرّف علـــى الأدب الألماني القديم ولمتابعة الأدب العالمي الحديث، قـــارئ نهم فذّ رغم ضعف نظره. نصف مكتبتي التي استطعتُ إخفاءها؛ كوّنتُها من تلك الكتب التي أهداني إيّاها أو التي نصحني باقتنائهـــا، رغم إحراق أبي للكثير من الكتب النادرة بحجّة أنها مُضَيِّعة للوقت وَمُفْسِدة للعقل.

اقتـــرب من المائة وحِدّة ذهنه مشـــتعلة. مَرِضَ وطال مرضه فاتّصل بنادين تليفونيًا. رأته يمشـــي بطيئًا والموتَ يحوّم حوله سريعًا. دخل توربـــي في ذاك اليوم إلى غرفـــة نومه وأحضر صندوقًا مزخرفًا من خشـــب الأبنوس الأسود محفورًا به ورود ملوّنة بشكل محترف، وله قفل صغير. أوّل ما فتحه أمسك خُصْلة شـــعر كستنائية موضوعة في علبة زجاجية أنيقة شفافة، رفعها وشمّها بشغف العاشق وقبّلها وهو يعيـــد النظر إليها بِوَلَهٍ يستحيل وصفه ثـــم نحّاها جانبًا. أخرج بضع صور وبطاقـــات عتيقة، وأوراقًا نقدية قديمـــة حجمها كبير وبعض الطوابع القديمة المَجْزوزة من أطْرُف. بأصابع مرتعشـــة سحب بَكَرة كبيرة ملفوفة بعناية من داخل كيس شفاف من البلاستيك. وقال لها: "آخر مرة شـــاهدته فيها كان يوم 26 أكتوبر عام 1955، يوم العيد الوطني للنّمسا. ولم تَعُد أدوات تشغيل الفيلم اليوم متاحة لي بسهولة. أتمنّـــى أن أشـــاهد هذا الفيلم معـــكِ يومًا ما، ولتكـــنِ المرة الأخيرة فـــي عمري! وعلى كلّ حـــال، أهديكِ هذا الفيلم بكـــل سرور. يمكنكِ الاحتفاظ به!"

سألتْ نادين صديقًا لها يعمل بالتليفزيون في فيينّا عن إمكانية تحويل هذا الشريط إلى فيلم ديجيتال؛ فقال لها إنّ هذا ممكن بالطبع. توربي سألها مرتيْن إن كانت قد وجدتْ حلًا، وفي كلّ مرة تقول نعم، وإنّ لها صديقًا سوف يقوم بهذا الأمر، أخذتها الأيام ونَسِيَتْ دون تَعَمُّد.

"يـوم وفاته تذكّرتُ فورًا هذا الفيلم وحزنتُ وندِمتُ أنّني لم أنفّذ رغبتــه التي لم تكن بها أيّ صعوبة!" قالت نادين في غَمرة حزنها. بل الأشدّ تعاسة أنها لم تسأل صديقنا المشترك فلوريان أو تتكلّم معه في هذا الأمر في أيّ مرة؛ لم تعرف أنّ فلوريان لديه جهاز لعرض هذا النوع من الشــرائط، فأبوه من هواة التصوير وعمل الكثير من الفيديو هـــات الصغيرة للعائلة، ويحتفظ بجهـــاز قديم ربّما وَرِثَه أو اقتناه ذات يوم.

"أشــعر بتعاسة لأنّ عرض هذا الفيلم لجدّي توربي مرة أخيرة كان سيسعده بالتأكيد. بعد وفاته سألتُ أمّي عن اسمه الحقيقي فقالت لي إنّ اسمــه "تَورْبِرَانــد" Thorbrand، استغربتُ من هذا الاسم النادر، ونسيتُ أمر الشــريط تمامًا إلى أن سمِعت يوناس يسأل عن فيلم غير معروف يناسب مشــروع تخرُّجه، والآن سأريكم مفاجأة مذهلة هزّتني!"

جمعتنا نادين نحن شـــلّة الأنس والسهــر: لارا ولويزا ويوناس وفلوريان وأنا. جلسنا في شقّتها وقد جهّزَتْ للجميع قهوة إسپريسّو ممتازة فاحتْ في الشقة فتنشّــقها الحاضرون والحاضرات بآهات الإدمـــان، قدّمَتْها مع بعض سندويتشـــات التُّوسْــت، قبل أن تجهّز عرض الفيلم.

جلسنا جميعًا لنُشاهد الفيلم على شاشة بيضاء عريضة نسمع صوت تلك التكْتَكات والوشيش الذي يصاحب صوت عرض الأفلام القديمة، مثل صوت لسعات حَطَب يحترق في مدفأة، بينما تظهر كلّ لحظة تلك البقع المتناثرة التي تتبدّى على الشاشة مثل هَوام صغيرة.

الفيلم إنتاج نمساوي خاصّ، بإمكانيات قليلة لكنّه عمل احترافي واضح منذ الدقيقة الأولى في كتابة العناوين. اسم الفيلم: Das Risikomädchen (فتاة المُخَاطرة)، فيلم أُنتِجَ أثناء الحرب العالمية الثانية، وتَعَرّض مخرجُه لمحاكمة سرّية وأُعْدِمَ، وحُرِّزَ الفيلم وأُعْدِمَ أيضًا مع ما توافر من نسخ له؛ إلّا نسخة وحيدة يُحتَفَظ بها في أرشيف سرّي خاصّ. كانت هذه النسخة على مكتب أحد القادة لإرسالها إلى هذا الأرشيف، وبسبب حريق اندلع في المكتب في ذاك اليوم، تمكّن توربي من إخفاء الشريط بين طيّات ملابسه وهو يساعد في الإطفاء، وسُجِّل الشريط على أنه من "التّلَفيّات".

الفيلم يحكي قصّة وقوع الضابط النّمساوي توربراند في حبّ "يوڤانكا". توربراند أو توربي شقيق جدّ نادين كان في بداية حياته فنّانًا موهوبًا مُولعًا برسم الطبيعة والأجسام البشرية، وظهرتْ له مهارة استثنائية في رسم خرائط طبيعية للأمكنة التي يزورها.

جلس توربراند ذات مرة على شطّ الدانوب يرسُم الشاطئ المقابل كعادته. هذه المرة قرّر أن يرسُم كنيسة القدّيس "فرانتس فون أسيسي" على الجانب الغربي. جلستْ بالقرب منه عائلة صغيرة العدد، في مواجهته فتاة سمراء انبهر بجمالها، هي لم تنتبه له لانشغالها بمداعبة طفل أمامها في الثالثة تقريبًا مع العائلة، لكنّها بدت أصغر

مـــن أن يكون لها هذا الطفل فتمنّى من قلبه أن يكون أخًا لها. انهمك فورًا في رسمها خلسة. فجأة وهو منشغل برسمه وبفاتنته، هبّت ريح أطارت بعضًا من أوراقـــه ورسوماته نحو العائلة الجالسة أمامه. لم يتحرّك من الحرج والمفاجأة. قام أفـــراد العائلة ولملموا له الأوراق بطيبـــة وتلقائية. طارت إلى وجه يوفانكـــا لوحتها، حين نزعَتها عن وجهها، فوجئَـــتْ كأنّ وجهها انطبع على الورقـــة. تسمّرتْ لحظات وسط انكِبـــاب أفراد العائلة علـــى جمـــع الأوراق المتناثرة، طوتها بسرعة وأخفتها في حقيبتها دون أن تفكّر مرتين.

ستحبّ رسمته وهو لن ينساها وسيذهـــب كثيرًا للمكان نفسه؛ ربّما يلتقـــي بها، سيسعده الزمـــن بلقائها ثم سيشـــقيه بفراقها فيما بعد. سيحبّ نظرتها له وهي تركّز على كل كلمة تخرج من شفتيه وينسحر بضحكتهـــا الخلّابة وأسنانها الآسِرة، وسيتعـــوّد أن يكونَ مثلها مع الوقت يُعَبر بإيماءات جسدية، وبيديه بشكل جديد عليه لكنه سيحبّه. سيرسُم لها عشـــرات اللوحات التـــي سيحرقون أغلبها فيما بعد ولن ينجو إلا القليل.

فـــي تلك الحقبـــة الزمنية جُمِعَ كلّ الرجال من ســـنّ 18 إلى سنّ 50 لينضمّوا لِجيش "الرّايخ"، وكانوا يحاولون الاستفادة من كل مهنة أو موهبة لكلّ شـــخص بتوجيهها نحو المكان الذي يفيد مرحلة الحرب، ومن ســـوء طالعه أنهم استعانوا بموهبتـــه الفنّية في رسم وتخطيط خرائـــط للجيش، وبسبب مهارتـــه العالية ودقّته، قرّبـــوه كثيرًا من المناطق الحدودية الخَطِرة ليقوم بعمل تلك الخرائط التوضيحية لكبار القوّاد.

سيُغرَم توربراند بيوفانكا، سيرسُم لوجهها عشرات اللوحات في مرسمه الخاصّ، وسيقنعها بأن تصبح موديلًا مُلهمًا لفنّه. سيحتاج إلى ثلاثة أشهر حتى تسمح له بأن يرسُمها عاريةً، سَيُجَنُّ بجمالها، ستسمح له أن يرسُمها لكن لن تسمح له أبدًا أن يرفع عنها "غطاء شَعرها" ويراه تحت أيّ ظروف؛ لذا فلوحاته المشهورة لها -التي بَقِيَت- تظهر فيها يوفانكا بوجهها المعروف وبعشرات الأشكال والألوان من الشعر؛ أسود وأشقر وكستنائي، بل وأخضر وأزرق وأحمر وناعم ومُمَوَّج وخشن:

"أجمل إحساس للمرأة؛ حين تتعرَّى تمامًا أمام حبيبها ولا تشعر في عينيه أبدًا أنها عارية!" ستقول له هذه الجملة الرائعة التي سيخلدها هو كِتَابةً على لوحة من أجمل اللوحات لها التي رأيتها في بيت "أولريكا" حفيدة يوفانكا.

في عيد ميلاده ستقدّم له يوفانكا صندوقًا صغيرًا مزخرفًا من خشب الأبنوس الأسود محفورًا به ورود ملوّنة بشكل محترف، وله قفل صغير، سوف تضع فيه خُصْلة من شَعرها؛ خُصْلة كستنائية لشعر مُمَوَّج فاتن.

ستكون هناك لوحة واحدة من كلّ لوحاتها متعدّدة الشعر التي سيكون قد رسمها بشَعرها الذي عرفه ولمسه وشمّه وعشِقه من خُصْلة وحيدة منها، ولن يعرف أحد غيره أيّ لون وشكل شَعر لها في عشرات اللوحات هو لون وشكل شعرها الأصليّ!

استطردتْ نادين: "عثرتُ على بعض ما تبقّى من تلك اللوحات النادرة في بيت أولريكا في "فالدفيرتل" في شمال النمسا في مدينة

"هاردِيـــجَ" الحدودية التي يمرّ بها نهــر "التّايا" الذي يفصل الحدود بين تشــيكوسلوفاكيا قديمًا والنمسا. لم تتصرّف أولريكا في اللوحات وحسنًـــا فعلتْ. فقط منذ سنوات قليلة حين اكتشــفتْ أعماله سمحتْ الحفيدة بعرض القليل منها في بعض المعارض الدولية."

كانت نادين مسترسلة في الحكي ونحن كلّنا أذان فقط: "توربي الفنّان الموهوب والعاشق بلا حدود أطِيحَ به وبفنّه نحو خطوط الحرب بدلًا مـــن خطوط الفن. يقال إنه الوحيد الـــذي اطّلَعَ على لوحات "إيجون شِيلي" في شـــبابه حيث سكن توربي لفترة في (كروملوف المسمّاة أيضًا باسم كروماو) على الحدود التشيكية النّمساوية حاليًا وإنه تأثر بلوحات شيلي كثيرًا."

بعد مشـــاهدتنا لفيلم فتاة المخاطرة في ذاك المساء ترجمتْ لي نادين كلمة (ريزيكـــو Risiko) على أنها مأخوذة عـــن العربية من كلمة "رِزق"، وأنّ الترجمة الصحيحة يجب أن تكون (فتاة الرّزق) وليس (فتَاة المُخاطَرة)، وترجمتْ لي أيضًا أسماء الناس في الفيلم، قالت لي إنّ توربرانـــد تعني: (سيف اللـه) في الجرمانية القديمة، وأنّ يوفانكا من يوهانّا التي تعني (نعمة اللـه).

فوجئتُ فعلًا بالفيلم وبحكاية توربي ويوڤانكا، بل كنتُ أكثر فرحًا من يوناس الذي عثر على كنز فنّي ثمين لموضوع تخرُّجه. أكملتْ لي نادين الكثير من حكايات الجدّ المَنسية، وفي كلّ مرة كنتُ أُفاجَأ بزَخم الحكايات التي تسردها عليَّ. أحببتُ توربي مثلها؛ فهو الذي ألهمها وشجّعها لتصمد ولتكمل دراستها، بعيدًا عن تزمُّت والديها،

تقول نادين: "لولا جدّي توربي لتوقّفتُ عن دراستي ولانقطع حبل صبري مع الفنّ!"

مشـــهدان في الفيلم لن ينساهما مينا أبدًا، أثارا القشـــعريرة في بدنه وتمالَــك أعصابه حتى لا يلحظ أحد ما جرى له؛ الأوّل: قبل أن تُعرّيَ يوفانكا الغجرية شعرها الطويل جدًّا للمرة الأولى، كانت ممسكة بيدها اليسرى يد توربي وبيدها اليمنى أزاحتْ غِطاء شـــعرها، في مشـــهد جميل أضاءت فيه الشاشـــة كأنّ نافذة قد فُتِحَتْ فجأة على نهار منير؛ والثاني: في المشهد البديع الذي كان يرسُمها فيه للمرة الأخيرة دون أن يدري أنها المرة الأخيرة. قصّتْ أمامه خُصْلة طويلة من شـــعرها الداكن الغزير، وقدّمتها له كعهد وميثاق على أنها له مدى الحياة كما هو في عُرف عشيرتها.

"هل تتكرّر أحداث الدنيا هكذا؟ هل نعيش ما عاشـــه الأسلاف بتكرار جديد؟ هل هي صدفة أن يتكرّر حدث بعيْنه لشخص ما في مكان آخر من العالم، فيشعر أنه عاشه من قبل، بل يعرفه حقّ المعرفة؟"

مينـــا طرح على نفسه هذا السؤال المُركّب وهو يستعيد حُلمًا في تلك اللحظة، فيه قصّتْ شـــهْدَة خُصْلة طويلة من شعرها، قدّمتْها له وهي تطلـــب منـــه أن يحتفظ بها. لم يتذكّر متى كان هـــذا الحُلم. وهل كان حُلمًا فعلًا!

يحكـــي لنا مينا القليل ويُخفي ما لا يريده أن يظهر، وأمارس أنا حقّ البـــوح مُحتَرِمًا رغبته، محافظًا على عدم البَوْح بما يمكن أن يؤذيه، وما لن يفيد أصحاب الفضول الضارّ!

رغم حِكايات مينا التي لا يرغب في البوح بها كاملة، صار شـــخصًا ينام كل ليلة وهو يرسل آخر سَكَرَات النوم وأطراف الحُلم لواحدة فقط فـــي هذا العالم. يصحو على طيفها، ثم يَشْـــغَل نفسه طوال اليوم في محاولة صرف طيفها عنه.

قرأ مؤخّرًا في مجلّة "دير شپيجِل" مقالة عن شعور أصحاب الأعضاء المبتـورة بألم افتراضي في أعضائهم المبتورة، فقد أثبتتْ الدراسات الطبّية مؤخّرًا أنّ المخّ هو الذي يتحكّم ويرسل هذه الإشارات الكهربية التـي تتذكّر وجود هذه الأعضاء الناقصة في الجسم، التي كانت ذات يوم موجودة.

هناك بالتأكيد بَتْر عاطفي مشـابه لما يحـدث لأعضاء الجسم، هناك جزء غير مرئي من القلب، يُبْتَر ذات زمن، فيرسل ما تبقّى من القلب إشارات تذكّره بالناقص.

هل بَتَرَتْ شُهْدَة نفسها من قلبي؟

هـل كانت بالفعل شُهْـدَة؟ تلك التي رأى طيفهـا أمام منزل ومتحف سيجموند فرويد وهو يَفُكّ درّاجته، حين أُصيبَ في ذاك الوقت بشـلل مؤقّت في كلّ حواسّه، ثم بعد أن وجد نفسه أمامها حدّثها:

"لا بدّ أنه (الهذيان والأحلام في الفنّ)!"

غيـر مصدِّقة التفتتْ إليه، مرّتْ لحظة تَشَـوَّش فيهـا الزمن تمامًا وتداخلتْ الأحـداث والأمكنة، فلم نعرف هل ارتمتْ في أحضانه؟ هل قبّلته؟ هل وبّختْه؟ هل تخشّبتْ؟ هل انهارَتْ؟ هل مدّ يده وسلّم عليها فقط؟ هل تجاهَـل كلّ منهما الآخر؟ مائة سؤال أخرى بدأت بـ (هل)، لكـن ليس هناك مـا يؤكّد أيّ تفاصيل أو حتـى مختصَر تلك اللحظة الغامضة الوامضة التي تمدّدتْ عبر زمن طويل غطّى عمرهما كلّه.

سـوف تأتي شُهْدَة إلـى ڤيينا لتكمل أُطروحة دكتـوراه، موضوعها (التحليل النفسـي للفقد ونظرية العقل الباطن عند فرويد). تعرف أنّ مينـا انتقل إلـى ڤيينا منذ سنوات، وأنّ زمنًا طويـلًا مرّ تغيّرتْ فيه حياتها.

هل قَتلتْ بالفعل زوجها عُمَر بَنْهُو؟ أم هي مَحْضُ شائعات؟ أم أنّ قاتل عُمَر بَنْهُو هو مينا الذي سافر من مصر فجأةً؟

شائعــات تردّدتْ في نطــاق ضيّق مكتوم. لا يَعــرِف كلّ منهما كيف سارت حياة الآخــر خلال هذا الغياب الطويــل. المَعلومات شحيحة، أقرب للشائعات منها للحقائق.

مينــا يدرك تمامًا أنّ الوصال من رابع المستحيلات، شُهْدَة تؤمن بأنّ رَأبَ هــذا الصدع ممكن، وبأنّ ما بُتِرَ من القلب تعوِّضه رُوح سامية تُضَمِّد كلّ حبّ مجروح، والزمن كفيل بِلَمِّ الشمْل!

18

في لحظات نادرة يشـــعر "الموديل" المُحتَرف فجأةً أنه عاري الجسم وهـــو في كامل ملابسه، تباغته هذه الحالةَ دون توقّع. هذا ما انتابني وأنـــا جالس في كافيه "شپـــيرل" في الحـــيّ السادس، سرحتُ قليلا عبرِ النافذة الزجاجية أتأمّل المشـــاة، أحسســـتُ أنّني أجلس عاريًا، انخَضَضْتُ ونظرتُ تلقائيًا لجسمـــي، ومع ذلك نَزّتْ حبّات عرق من جبيني ونَدِيَ كلِ جِلْدي في ثانية. طلبتُ (واحد بنّي كبير) وهي قهوتي المفضلـــة وأنا أكمِل مطالعتي لجريدة "دي تسايـت" الألمانية. وجدت مقـــالًا غريبًا كأنّه وُضِع للتّـــوّ من أجلي، ربما كـــان هو السبب في الحالـــة اللحظية التي مررتُ بها؛ فكلّه مكتوب عن الجِلْد. بذلتُ جهدًا وتركيزًا فـــي ترجمة معاني استخدام الكلمة فـــي الأمثلة والكلام في اللغة الألمانية، فجِلْدي العاري في قاعات الفنّ له بالتأكيد نصيب من هذا المقال.

تقول الجملة الألمانية حرفيًا (يَنْسَـــاقُ خارج جِلْده) وأظنّ أنها تعني (يتهوّر)، ويقول كاتب المقال (هذا لا يَنْفُذُ من جِلْد البقرة) ظننته يعني (أمرًا صعبًـــا). وضّحتْ لي نادين لاحقًا أنّه يعني الاستياء والتصرّف

غيرِ المألوف، أمّا (لا أودّ أن أضع نفسي داخل جِلْدك) فالمقصود بها (أنّنـــي لا أرغب أن أكون في مكانك)، ثم (يتحرّك تحت الجِلْد) فهمتها (يتحــرّك خِلســـةً) وشرحَتْها لي نادين أيضًا على أنهـــا تَعني (التأثّر بالأمر والتعاطف معه).

هَلّتْ نادين في مـــداري، أحسستُ بوصولها إلى مجالي، رادار خفي يلتقط إشارتها ويُعلِمني باقترابها، صرتُ أنظر من النافذة تارّة وإلى باب الكافيه تارّة أخرى. أتلفّتُ كبندول ساعة بحركة منتظمة واثقًا من دخولها. نحن دومًا على لقاءات بلا موعد معلوم.

دخلتْ نادين تتهادى بمِشْيَتها الثقيلة الواثقة. جلستْ وبدأتْ تحكي لـــي عن يومها الذي مرّ. انتظرتُ حتى أتمّــتْ جملتيْن مفيدتيْن ثم بادرتها كطفل أنجز واجبه المدرسي:

"قـــرأتُ حالًا مقـــالًا عجيبًا يتحدّث عن معانـــي استعمال كلمة (الجِلْد) في أمثال اللغة الألمانية."

ترجمتُ لها ما فهمتُ، امتدحتْ ترجمتي وصحّحَتْ لي ما فهمتُه خطأً، ثم على غير عادة، لـــم تطلب قهوتها النّمساوية الـ "ميلانج" Melange، صاحـــتْ باستعجال: "هيّا بنا!"، بينما الجرسون المُسِنّ قد وقف شـــامخًا مترفّعًا يسألها عن طلبها على الطريقة النّمساوية العريقة المعتدّة بنفسها. طلبتُ دَفْع حسابي لاستعجالنا.

حين تقــول نادين (هيّا بنا!) فأعرفُ أنّ أمــرًا جسيمًا قد حدث أو سيحـــدث. دفعتُ حسابي وأعدتُ الجريـــدة إلى طاولة الصحف وخرجنا. على وجهي استفسار صامت، بادرتني:

"هل أنت مشغول في شيء الليلة؟"

"لا."

"سأُعِدّ لك إسباجيتّي بولونيز، ما رأيك؟"

"عظيـــم!" مقاومَتي تضعف أمـــام الإسباجيتّـــي، وتنهار أمام الإسباجيتّي بولونيز من يد نادين خصوصًا!

اليوم الجمعة، والسهر يحلو في المدينة، وكان ظنّي أنّنا سنقضيه خارج البيت، لكنْ لا بدّ أنّ هذا التعجُّل وراءه سرّ ما.

صعدنا لشقّتها، فأخذَتْ دُشًّـــا سريعًا وغيّرتْ ملابسها، خرجتْ للمطبـــخ تجهّز الإسباجيتّي، وقفتُ أدردش معها وأساعد في تجهيز المائدة. أعرف مكان الأطباق والملاعق والشموع. قلتُ لها:

"تصوّري هذا الصباح، رجل النظافة في عمارتنا بَهْدَلَ الطبيب الشـــهير الذي يسكن في الطابقيْن الأخيريْـــن، لأنه رآه يرمي بقايا موادّ بناء في حاوية القمامة العضوية!"

"من حقّه طبعًا!"

"كان حانقًــا مُتَنَمِّرًا زاعقًا، والطبيب يعتذر له وقد صار كالفأر المبلول."

"الطبيـــب لن يسمح أيضًا لرجل النظافـــة أن يفعل أيّ خطأ في عيادته أو مستشفاه!"

"آه يا نادين لو تَرَيْنَ ما يحدث في بلادنا ستتعجّبين! أوّلًا نسمّيه 'الزّبّال' أو 'بِتاع الزِّبالة'، بدلًا من أن نسمّيه (رجل النظافة)، على الرغم من أنّ الزِّبالة منّا نحن وهو الذي ينظّف، وثانيًا كلّ شــخص في منصب عالٍ مميّز في بلادنا يعتبر أنّ كلّ من تحته خدم لا يجوز لهم أن يفتحوا أفواههم!"

"هذا نظام سُلطَوي!"

"نعم سُلطَوي ديكتاتوري يحمل كلّ صفات الطغيان التي سمعتِ عنها!"

ضحكتْناديـــن وهي تتّجه لرَفّ في مكتبتها وتندمج في البحث عن كتاب ما. أخرجَتْ كتابًـــا متهالكًا مُفكّكًا ومدّته إليَّ ثم تحرّكَتْ نحـــو المطبخ. أمسكتُ الكتاب أتهجّى ببـــطء بلكنة خاطئة بصوت مسموع لها: (La peau à travers le temps)

"هذا كتاب فرنسي! ما معنى (La peau)؟"

"الجِلْد."

"يعني العنوان: الجِلْد عبر الأزمنة؟"

"نعم، الجِلْد عبر الأزمنة."

"حصيلتي من الفرنسية سبع وسبعون كلمة فقط، من بينها كلمة (الأزمنة)! هل يمكن أن تحكي لي مُختصَر الكتاب؟"

"بـــل سأقرأ لك بعد قليل مقاطع كاملة ستُدهشـــك!" قالتها وهي تضحك بعذوبتها المعتادة.

"سنأكـــل أولا ثم نعود لهذا الكتاب." قالت هـــذا ونَحَّتْ الكتاب الفرنسي بعيدًا عن مائدة الطعام. عادةً آكل بتَمَهُّل، لكنّها شـــوَّقَتْني فصرتُ ألتِهمُ الإسباجيتّي بولونيز بسرعة غريبة أضحكتْها. مدحتُ وجبتهـــا اللذيـــذة، وعُدتُ أمسِك الكتاب بين يـــديَّ. لم أنتظر سوى دقيقتيْن حتى أنهَتْ أكلها، قمتُ مسرعًا أحمل الأطباق للحوض، ثم عُدتُ للكتاب مجدّدًا.

الكتاب له غلاف لرجل يلبس صديرية ومعطفًا من الجِلْد متأبّطًا كتابًا غلافه بنّي، رافعًا قدمًا بحذاء طويل على منضدة واطئة عليها محفظـــة نقود وعلبة سجائر جِلْدية وأوراق لعب لونها غامق. كنتُ متشـــوّقًا لبداية تفسيرها ناظرًا لها وللكتاب كمن يقول (هَيّا)، لكنّها غيَّرَتْ دفة الاهتمام لتسألني عن معرفتي بانتحار كاتبة مشـــهورة هذا الأسبوع وإن كنتُ قد قرأتُ لها شيئًا، فقلتُ بمُزاح: "ألن تبوحي لي بعد هذا الاستدراج الماكر؟"

شَـــغَّلَتْ موسيقى "چاز" وجعلتْ الصـــوت خافتًا، اختارت "نينا سيمون". شـــدّتني من يدي وانتقلنا بكأسينا إلى الكنبة جوار زجاجة نبيذ (روزيه) الذي تحبّه. كعادتها تحبّ أن تضع رأسها على فخذي وهي تقرأ لي شيئًا وأنا أفعل معها ذلك أكثر منها. كنتُ شغوفًا جدًّا بما ستقول، وأخيـــرًا نطقتْ: "سبب هروبي السريع من الكافيه هو هذا الكتـــاب الفرنسي. لقد قرأته عدّة مـــرات ولا توجد ترجمة له للأسف في لغات أخرى؛ ولأنّك اليـــوم فَتَحْتَ موضوع الجِلْد؛ فقد ذكّرتني به لأنـــه كتاب كئيب ومزعج للغاية في موضوعه وتَناوله رغم أهمّيته الكبيرة، واسمع يا سيّدي:

"قبـــل أيّ كلام أو ترجمة؛ ما هو فـــي اعتقادك أكبر عضو في جسم الإنسان؟"

نظرتُ إلى حِجْـــري وأنا أزيح رأسها برفق ومكر وأنظر تحته وأكرّر سؤالها لنفسي:

"أكبر عضو، أكبر عضو!" فَهِمَتْ سَفَالَتي المُصْطَنَعة، فَغَزَّتْنِي في فخذي وقالت:

"أنا أتكلّم بجدّية!"

"أكبر عضو هو الدماغ."

"لا!"

"الرئتان؟"

"لا!"

"الكبد."

"لا!"

"القلب؟"

"لا!"

"غُلِــبْ حُماري!" قلتُهــا بالعامية وبلُغتي العربيــة، فانتظرَتْ ترجمتها بالألمانية.

"يعني في الألمانية: (Mein Esel ist schon erschöpft)"

توقفتْ عند الترجمة التي لم تفهم معناها لكنها ضحكتْ وقالتْ:

"على كلّ حال أنا أحبّ الحِمار؛ فهو حيوان صبور وجميل!"

تابعتْ نادين: "الجِلْد يا أستاذي الفاضل هو أكبر عضو في جسم الإنسان!"

"معقول؟ لم أكن أتخيّل! لكنّي قرأتُ مرة في كتاب عن القرابين في الديانات القديمة، إنهم كانــوا يقدّمون جلود الحيوانات كقرابين وليس لحمهــا، وكان لَبْسُ الناس للجلود يمثّــل تعبيرًا عن تقمُّص أرواح هذه الحيوانات! تصوّري! هناك آية قرآنية تقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(*) لم تَقُل الآية بدّلناهم جسمًا أو لحمًا أو رُوحًا؛ بل اختارت الجِلد، لأنه بالفعل أكبر ما في الجسم، والأكثر حساسية!"

قامت لتبحث عن اسم السورة في "جوجِل" ثم عن ترجمة القرآن بالألمانية. حتى وجدتْها.

ثم تابعتْ: "واو! هذا عظيم!"

كتبتْ على ورقة اسم السورة ورقمها ورقم الآية لتعود إليها لاحقًا لتعرف معناها بالضبط.

"أتعرف يا مينا، لقد ذهبتُ يومًا مع مانويل إلى مكتبة خاصّة جدًّا وسرّية، أخرَج لي في ذاك اليوم مجموعة من الكتب القديمة ملفوفة في نايلون سميك، وطلب منّي أن ألْمَسَها، شعرتُ بليونتها وبرودتها. هل تتخيّل مِمَّ صُنِعَتْ أغلفة هذه الكتب؟"

"...."

"من جُلود البشر!"

"...."

"طيّب اسمع، سأترجم لك ما عَلَّمْتُ عليه في هذا الكتاب!" وأشارت إلى الكتاب الفرنسي الذي أمْسَكتْهُ بيديها الاثنتيْن:

(*) سورة النساء، آية 56

خلال القرن الخامس عشـــر كانوا يستخدمون الجِلْد البشري في صنع طبول الحرب مـــن أجل تخويف الأعداء، وفي أواخر القرن التاسع عشـــر قَتل الفرنسي "هنري برانزينـــي" العديد من النساء واستخدم جلودهنّ، وبعد أن أُعدِمَ تمكّن أحد رجال الشرطة السرّية مـــن الحصول على جـــزء من جِلْده وقام أيضًـــا بتحويله إلى علبة سجائر!"

كانت تقلّبُ الصفحات بسرعـــة وتقفُ عند ثنيات وعلامات لها فـــي الكتاب وتُكمل بترجمة سلســـة. أحيانًا تتوقّف قليلًا للبحث عن مـــرادف لكلمة فرنسية فـــي الألمانية. لكنّها تترجـــم دائمًا بطلاقة تبهرنـــي. أعرف أنها تُجيـــد الفرنسية والإنجليزيـــة، لكن تلقائيّتها وسرعتها غير معتادة: "اسمَع هـــذا!: طلب "جورج والتون" سلْخ أجـــزاء من جِلْده لِيُغلّفَ بها كتابًا عن سيرته الذاتية. يوجد اليوم في مكتبة "أثينايوم" في بوسطُن.

وأيضًا كانوا قديمًا يستخدمون جِلْد الإنسان لتجليد روايات الرعب. أمّا بعض علب أوراق اللعب في القرن التاسع عشـــر فكانت تُصْنَعُ أيضًا من جِلْد البَشر. كما كان هناك شخصان يُدْعَيَانِ "ويليام بيرك" و"ويليام هاري" يستخرجان الجُثث من القبور يَنْبِشَـــانها ويبيعانها للأطبّاء المحلّيين، وقد قَتَلا معًا سبعة عشـــر شخصًا في اسكتلندا، وفيما بعد استُخدِمَ جِلْد بيرك لصنع علبة أوراق كوتشينة.

في عــام 1833 في "موريس-تاون" بولايــة "نيو چيرسي" قام "أنطون لوبلان" وهو مهاجر فرنسي بقتل ثلاثة أشــخاص وسرقة مقتنياتهم الثمينة، أمر القاضي أن يُسْلَخ جِلْده بعد موته ويُستَخدَم في صنع محفظة نقود.

كنتُ مصدومًا مَقطوعَ النفَس، أستمعُ دون مقاطعة:

"في عام 1876 قام صانع أحذية في نيويورك بتجريب أشــكال مختلفــة من الجِلْــد لصناعة الأحذية، بما في ذلــك جلود الأسماك وأفعى الأناكونــدا، ثم قرّر أنه بحاجة إلى مُنْتَــج أكثر نقاوة؛ فقام باستخدام جِلْد الإنسان في صناعة الأحذية.

الطبيب الهولنــدي "هنري بويرافا" كان يمتلك مجموعة غريبة مــن المقتنيات، وتفيد المعلومات بأنه كان يمتلك زَوْجًا من الأحذية النسائية ذات الكعب العالي المصنوعة من جِلْد مُجْرِم أُعْدِمَ.

خلال الثورة الفرنسية كانت جثــث الموتى تذهب إلى النفايات حيــث كان بعض الأشــخاص يقومــون بسَلْخ جلود هــذه الجثث واستخدامهــا في صنع الملابس الرجالية. كان جِلْد الرجل ذا جودة أفضل من جِلْد المرأة الليّن وغير الجيّد للاستخدام في الملابس؛ هل أُكمِلُ؟ أم أنّ هذه الجَرْعة كافية؟"

مبهوتًا كنتُ متَقَزّزًا مشـــدوهًا لا أقاطع وهي تَسرِد وتترجم من كتاب (الجِلْد عبر الأزمنة). يتحوّل كلامها إلى مشاهد في مخيلتي. شـربت ثُلُثَيْ زجاجة "روزيه" وأنا أشعر أنّني كنتُ أتابع أحد أفلام الرعب.

فجــأة وَجَّهَتْ نادين موضوع الجِلْد بحسّ المرأة الغَيُور -لكن باتّزان- إلــى ناحية بعيــدة لم يتوقّعها مينـــا. موضوع أثير لهُ لكنّه يخشـــى أن يخوض فيـــه، رغم أنه يرتاح كثيرًا ويتخفـف أمام نادين؛ كاهِنِ اعترافه:

"لــم تحكِ لي كلّ شيء عن شُهْــدَة!" بادرَتْه في بدايـــة ثُمَالَتِهِ وقد احتسى بسرعة دون أن يدري. هو يظنّ أنه قال لها أكثر من اللازم.

لم يقُل لنادين إنّ شُهْدَة ورثتْ عن أبيها تلك الرغبةَ في شهوة الحياة، ولا إنه عَشِـقَ رائحتَهــا ورُوحها، ولا إنها علّمتــه جنون الاشتهاء بغريزة موروثـــة في دمها. شُهْدَة أدركتْ ما كـــان ينتظرها وتذوّقتْ أحلى ثمار اللّذة والمتعة. كان مينا هو قِسْمَتُها التي أرادتها وراودتها. استسلمتْ له استسلام التملّك والتكامل، ليُتَمِّمَها بما ينقصها ولتخفف عنـــه وَجَعِ الرغبـــة المحرومة. للمرة الأولى تعـرف نعمة ذراعيها حيــن تعانقه وحين تطوّق بهما صدره وظهره؛ حين تريح خدّها على صدره وتُغمِضُ عينيها؛ رفاهية كفّيها في حسّهما بالدفء الناشِئ مِنْ مَسَامِّه؛ معنى وحشـــية أظافرها المُلتــذة المغروسة في جِلْده؛ تَرَف صدرهـــا المعصور المبهور؛ ارتجاف كهفهـــا السرّي الحارّ بأمواجه العاتية العازفة عن الركون لشط؛ رعشة خَصْرها وردفيها وأطرافها التي تزلزل كيانه، ثـــم فَوَران شهوتهما ولذّتهما معًا بآهات الوصول للمنتهى حين تَشهَق الأفواه متحرّرة من كلّ زفير محبوس!

كطالـــب يسبقها بعام دراسي جامعي واحد، لم يكن بإمكانه أن يطلبها للـــزّواج. رغم العراقة المندثرة لعائلته؛ العائلة التي لم تَعُد تستند في

ذاك الوقـت إلى أيّ سند مادي في زمن غنفوان "الانفتاح الاقتصادي السبعيني العظيم" الذي خطحط وحتحت بالتدريج كلّ الطبقة الوسطى؛ وعلى الرغم من تشابه عائلتها وعائلته اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا؛ إلّا أنّ وجود ترسيخات عُرفية متجذرة عن دور كل رجل وكل امرأة، كمُسَلمـات أكثر منها بديهيّات، تلك التي لا يمكن المساس بها صَعَّبَتْ التقارب بدلًا مـن أن تخفف منه؛ فالمرأة البكر في هذا العُرف تختار رجلًا يعلوها في كثير من الأمور؛ أكبر منها سنًا؛ أكثر ثراءً؛ أعلى في الدرجة العلميـة أو في الوظيفة، يفوقها حتى ترفع من شأنها، وتقِل عنـه حتى يفتخر بنقص فيها يميّزه. تلك الثوابت هي دستور نوالٍ أمّ شهْدَة. إضافة إلى قناعتها بـأنّ الرجل الذي سيكون من نصيب قرّة عينيها يجـب أن يكون من طِراز نجوم السينما الوسيمين، الشـكل عندها إلزامي وأساس لكل شيء في الدنيا!

صديقـه إلهامي وضع له الاستوديو الذي يرسُـم فيه تحت تصرّفه، ليلتقي فيه زوجته شهْدَة وقتمـا أرادا، هذا المرسم كان شقّة العائلة قبل انتقالها إلى منطقة التجَمُّع الخامس، شقّة كبيرة نسبيًا في الطابق الأرضـي من عمارة من ثلاثة طوابق، مهجـورة تقريبًا، فاثنان من السكّـان يعملان في دولتيـن عربيّتين ويعودان مـرة واحدة سنويًا لشـقتيهما. كان إلهامي يستخدم من الشقة الصالة والمطبخ والحمّام وغرفة واحدة، أمّا الغرفتان الأخريان فكان فيهما بعض الأثاث القديم المركون مغطى بملاءات لحمايته من الغبار، وهناك من كانت تنظّف الشـقة كلّ حين. هيّـأ غرفة منهما بمساعدة خادمـة عَفِيّة فجعلتها صالحـة لعريسيـن، ووضع لهمـا تسعًا وتسعيـن وردة في الغرفة بمناسبـة زواجهما. عدّتها شهْدَة ونسيَ مينـا أن يسأله عن مغزى العدد أمْ هي مجرّد صدفة. الغرفة كانت تطلّ على حديقة خلفية مُعتَنى بها، جَمَّلَها ونسّقها من أجلهما.

كـان هذا هو المكان الذي أهـدى فيه كلّ من مينا وشُهْدَة سرّ جسمه

وزوجه للآخر؛ في طقس نادر يناسب زوجين عشيقين مجنونين مفتونين ببعضهما؛ يفهمان الفنّ ويعشقانه.

كانت أوّل لوحة عارية لموديل لم يشهد مينا مثله في عمره. وقفت أمامه ذات صباح متحفزة ومستفزة في آن. كان غارقًا في رسم نافذة تنام على حافتها قطة؛ النافذة تطل على الحديقة، القطة كانت في خياله فقط. ظهرت شهدة بشعرها الغجري الملائكي الشيطاني، وبنظرتها التي تثير فيه كل مكامن الرغبة والوجد، بغلالة وردية يشفها ضوء من خلفها. أزاح لوحة النافذة والقطة جانبًا، وأزاحت هي الغلالة عن كل نوافذها. ثبّت قماشة رسم جديدة، وضرب أوّل خطّ أسودَ في اللوحة؛ تبعه بضربة بلون أبيض ثم أحمرَ، ووقف يبحث عن اللون الوردي.

شُهْدَة المنفتحة الواعية وجدتْ نفسها تتعرّى لمينا دون أيّ شعور بابتذال، بل باطمئنان ودفء واحتواء؛ شعور بحنانه وطراوة نظرته على جسمها العاري. بعينيه يلبسها أنفس سُندُس. أحسّتْ بروعة كلّ تفصيل في جسمها عبر عين عاشق مفتون متعبّد في جسمها وفي أحسن خلق لتقويمها. هذا ما رأته وأحسّته ولمسته في عين مينا المُحِبّ.

سيتذكّر مينا فيما بعد تلك الجملة العبقرية التي خلّدها توربي -عن لسان يوفانكا- على لوحة من أجمل اللوحات التي رآها في بيت أولريكا: ("أجمل شعور للمرأة؛ حين تتعرّى تمامًا أمام حبيبها ولا تشعُرُ في عينيه أبدًا أنها عارية!").

مينا كان مفتونًا بكلّ ما في شُهْدَة؛ شَعرها؛ شكلِها؛ مِشْيَتِها؛ وقفتِها؛ إيماءتِها، ثم صوتِها. صار يُنصِتُ أكثر كلّما نبَسَتْ، يعشق هذا الصوت، نغمته الكونية، الهبة التي يدرك قيمتها في حسّ فرحها وغضبِها، وبالأكثر في حميميّتها حين يتحوّل الكلام إلى حروف مقصوفة لكنّها بالنسبة له تَخرُج في منتهى الكمال، وإلى أنصاف كلمات لكنّها في

وجدانه تصل تامّة بأعذب ما نطقتْ به حوّاء منذ أوّل لذّة غَمَرَتْها في بَدءِ الخليقة من الألف إلى الهاء.

سمّى تلك اللوحة (نِيالا)، الإسم الأسطوري الذي اختارته شُهْدَة لها ذات ظهيرة حارّة وذات تعطل في طريق لن يُنْسَى. بضعُ لوحات لـ (نِيالا) كانت ضِمن تلك اللوحات التي حملها معه لأكاديميةَ الفنون في فيينّا لاحقًا، والتي لم يُعِرْها البروفسور فايسْمانّ أيّ نظرة.

سيرسُم مينا أجمل لوحات عمره في مرسم إلهامي وستظلّ شُهْدَة هي الموديل الأثير له، وسيرفض كلّ عروض إلهامي بتجهيز معرض خاصّ لهذه اللوحات في أهمّ جاليريات القاهرة، سيحتفظ باللوحات في غرفة غرامهما التي أهداها له صديقه العزيز، وسيختار عند سفره أن يحمل بعضًا منها معه. يريدها مجازًا أن ترافقه.

"هل حَكَيْتَ لي كلّ شيء عن شُهْدَة؟" تستفسر نادين.

مينا لا يعرف إن كانت قد عَرَفَتْ كلّ شيء!

نادين لا تعرف إن كان قد حَكَى كلّ شيء!

نحن أيضًا لا نعرف إن كنّا قد عَرَفْنا كلّ شيء!

ولكن ...

لا يعترف مينا لنادين أنه أخفَى عن شُهْدَة حكاية رَكَنَها في الصندوق الأسود، حين سألته شُهْدَة في المَرسَم عن ثلاث لوحات بديعة وبالغة الإتقان لموديل نسائي عَارٍ، أدركتْ فورًا من خطوطه أنها من رسمه الـذي لا تخطئه عيناها، لَكِنّه لن يبوح بزمن اللوحات ولا بصاحبتها. هو جزء من خفايا صندوق مينا الأسود.

كـان مينا متأثرًا بكرّاس شِعر وجده في بيت والد صديقٍ حميم له من مدرسته الثانوية، كرّاس مُهْمَل ضَعْضَعَتْهُ الشـمس وغضّنتْ غلافه

فلم يدرِ لِمَن كان، احتفظ الدفتر بسطوره لأنه كُتِبَ بقلم "كوبيا". راق له، حتى وجـد نفسه متأثرًا به ذات حُمّى، فسكب المرض من لسانه تهذُّجـا من تلك الأشعار: "يا فتاةَ رزْقي تَروّي في خَطوكِ .. وَاسْكُبي لي وَلَهــا كَدلَقِ الرَّسِيلِ". كرّرها حتى حفِظها ودوّنها على حائط دار جـدّه المهجور من الداخل؛ تلك الدار التي جعلها ملاذه الخفي، وجنّة رسومه ومقبرتها.

رآها تسير عصرًا، زلعة فوق رأسها كأنّها تحمل تاج ملكة فرعونية، الشـمس تَشِـفها وتُخفي تضاريسها عنه. جسمها مستقيم مشـدود ليّن كالبان، الـرأس ثابت لا تتحرّك منه سوى عينَيْن، النظرة منهما فتنـة بلا غَمْد كسيف بلا غِمْد. مـن الخَصْر حتى القدمَيْن تبدو كعود قمـح يتميَّس مع مداعبـات النسيم. في ذهابها نحـو النهر تكاد لا تـرى لقدميها آثار على طين الضفّة الطامي، حين تملأ زَلعَتَها وتعود يتبدّى أثر خطواتها على الطمي. ضحكتها الغَنِجَة بلا قصد تَلفِتُ سَمْع العابرين، تلتوي نحوها أشدّ الأعناق ثباتًا، وتهتزّ لها أمضى النفوس وَرَعًا، فتسمع أصوات مَنْ يتعوّذ ومَنْ يُسَبحِن ومن يُشْعِر ومن يفتح فمه هِجاءً أو يصمتُ:

- أعوذ بالله! (تقولها امرأة تحسدها)/

- سبحان الله! (يقولها بائع خضر مارّ)/

- يا منجّي من المهالِك يا ربّ! (يقولها متديّن حديث أطلَق لِحيته قبل شهر)/

- الله! الله! (يقولها أستاذ الرياضيّات)/

- يا حفيظ! (يقولها وَلْهَانُ يتمنّاها ويدّعي التقوى)/

- فَوَدَدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنّها .. لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغرِكِ المُتبسمِيييي..... (يصـرخ أستاذ اللغـة العربية الجالس يحتَسي الشـاي تحت شجرة كافور، وهو يمدّ الياء بمبالغة كمَلسوع)

- غَرّاءُ فَرعاءُ مَصقُولٌ عَوارِضُها * تَمشي الهُوَيْنا، كما يمشي الوَجِي الوَجِلُ (يردّ عليه شاعر القرية حَمَد النيل أبو شهوة)

هــي تتقبّل كلّ الأقوال ببراءة طفلة روضــة، وتفسّر كلّ ما يقال من باب الدعوات الطيّبات. تحيّي الرجال بجسارة، والشباب بلحن تجاهد فــي حياديته وخفوته دون لحظ عيْنها في عيْن، وتحيّي النساء بدلال النساء مــع النساء. بكل الحــواسّ، وبمرح عمرهــا المُزَلزِل تقف لمداعبة الصغار بلكنتها الغريبة المحبّبة. هي في السادسة عشــرة، سِنّ الفِتنة المُربكة وضحى الشباب.

الطريــق للنّهر منحدِر تنزله في يُســر، لكنّها الوحيدة ضمن رفيقات النهــر التي تصعــده أيضًا في خِفّة، ولولا دَلْدَقَــة الماء على شعرها وبَلَلٍ يهديها لظنّنا أنها تحمل زَلْعَتها فارغة، فالماء اللعوب المتواطئ يَشِــف ملامح الثنيّات الفاتنة ويود تَبيين الخافيات البارزات. ومهما رَمَــتْ أطراف طرحتها على صدرها، تظــلّ حَلَمَتاها تانقتين بفضول الغريزة وتواطــؤ الماء. تخفي بزوغ صدرها -فــي مقابلة كلّ ذَكَر- بكفّها وساعدهــا، إخفاءً لا احتفاءً وتحيّي القــادم في خَفَر خالٍ من الميوعة.

الوحيــد الذي حين تراه عن بُعْدٍ يبدأ وضوح آثار قدميها على الرمل، ويصير لها وزن. ومــا بين بطء وتعجل تَختَلِج المسافة ويرتبك عِقْد المسير، تهتزّ الزَّلعة على رأسهــا، فيندلِق الماء فائرًا، يلطف صهد الصدرِ ودبيب القلــب. تخفُتُ تحيّتها للعابرين. لا تحيّيه. تهديه لحظًا عجولًا تخطِف فيه صورته، تُلصِقها بمقلتيها وتتغبّش صورة كلّ ثابتٍ ومتحــرّك أمام عيْنيها حتى أعتاب بيتها. هو يمــرّ بها صَموتًا كظلّ سحابة تحبو، كلّ جسمه يُحَمْلِق فيها ويطبعها إلّا عيْنيه.

اسمها مَليحة.

فــي هذه القرية القريبة من القاهرة فــي محافظة القليوبية التي كان

لجدّه بيت مُهمَل فيها يذهبون إليه نادرًا. عشِـق القرية وأهلها ويظنّ أنّـه استقى الكثير من الإلهام منها ومن طبيعتها ومن أهلها. في هذه القرية يعشـقون خرساء الأساور، أمّا هو فـلا، محبّته لصليلها يَهُزُ وجدانه بأماني لا تصمُت.

في الحُمّى التي أصابت مينا تذكّر أنه أوقَفها في الطريق وأنزَل عنها حِملها، ثم رفعها وطار بها ماسكًا كفّها المرتعشة، مرتعشة من البَلَل. حضنهـا وهبط بها على جبل اسمه عيْـن الرب وخلع عنها ملابسها المُبتلّة فاستعادت دِفئها.

ممّـا لم يذكـره مينا لأحد أنه أخفى لوحاته التـي رسمها لمليحة في حوش الرمل في بيت مهجور لجدّه في ريف بعيد. تعوَّد أن يبقى هناك لساعات طويلة يمارس ضـلالًا في عُرف الناس، وإيمانًا في عُرفه، عبر صلواته ونُسُكه وتولّهه في خطوط الجنون التي أدمنَتْ يداه على ارتكابها، وتلك الأحجار التي جلبها ليوهم أهله أنه يُعيد بناء بيت جدّه بنفسه. رأوه مخبولًا يُضيّع وقته وجدّه ميسور له القدرة على تشغيل مائة عامل لبناء أو ترميم هذا البيت.

كان يدفن مليحة، يدفن لوحات رسمها لها في صحن الدار المهجور. محفوظة في بلاستيك. كان المدفن تحت لوح كبير من الصاج، وطبقة سميكة من الرمـل. كلّ هذه الأوراق التي كان يحملها أوهمَتْ الناس أنه بصدد عمل تصميم جديد للبيت. صمّم تصميمات وهمية بألوان لم يَفطِن لها أحد سوى جُمعة المَوّان، هو الذي قال: "هذه ليست ألوان حيطان، هذه ألوان رسّامين مُشَعوِذين! هل أنت منهم؟"

في هذا اليوم هَبَشَـتْهُ الحُمّى، وكان في طريقه لبيت جدّه المهجور، أحسّ بوجهه كرغيف خبز خرج توًّا من الفرن، سخونة شديدة بدأتْ مـن الأذنين، هل السبب هو بزوغ مليحة قادمـة نحوه من بعيد، أم هي مبادئ الحُمّى التي تنتابه من وقت لآخر دون سبب معروف. في العـادة يكرّ للبيت عائدًا كلّما أحسّ بالحالة. هذه المرة، أسرَع الخُطى

نحـو بيت جدّه. يسمع الناس يحيّونه وكأنّهم يتكلمون من تحت ماء. أصواتهم بعيدة مكتومة. يركض أو يتمهّل لا يتذكّر إلا ضباب الطريق. هل وقفتْ مليحة في هذا اليوم وحيّته أم هُيِّئَ له؟ هل اصطدمتْ بعَتود الحاجّ برهان في هرولتها العشوائية، كل الأشياء تبدو له كهلاوس.

دخـل بيت جدّه وأغلق البوّابة الصفيـح بالقُفْل وأخرَج اللوحات من تحت مدفنها وعلّقها بمسامير على الحوائط. كان أوّل معرض له، هو مشاهده الوحيد، تأمّله بفرح وحيرة.

خبطات مليحة مميّزة يعرفها، فتح وهي مرتجفة من جراءة حضورها ومـن تلَصّص العيـون وترصُّدها. أدْخَلَها وخـرج يدور حول البيت ليكتشف مدى العيون ومسافة الفضوليّين.

عـاد وعرقه ينِزّ وهي ملهوفة تحتضنـه. عرقه يصُبّ على صدرها فيَبْتَـلّ ثوبها المَلِيس وتشرَئبّ الحَلَمَتان، أم ما يراه هو تلك اللوحة التـي على الجدار؟ هل يرى نفسه هـذا الرضيع الصغير الذي تُلقِمه ثديهـا وهي تنظر له بحنوّ؟ مستحيل؛ فالنظـرة ليست حنوًّا؛ النظرة شهوانيةٌ مستمتعة، والوجه ليس لطفل. هي عيْناه اللتان في اللوحة أو الشاخصتان إلى صدرها، قبضة اليد اليسرى على الثدي الأيمن لها ليسـت قبضة رضيع. هل أنفاسه التي كانت تعلو أم لُهاثها؟ أم صوت الريح في الخارج؟ أم ما يحدث هو مجرد هذيان وأحلام قادمة؟

أيـن كان؟ أفي بيت جدّه المهجور؟ أم فـي بيت إلهامي؟ أم في شقة سيلفيا؟ أم عند نادين؟ أم في قاعة فنّ عاريًا تَشْـكُهُ الأقلام والألوان على ورق وقماش؟

بَقِيَتْ له لوحات ثلاث حملها أيضًا معه في ترحاله، مَليحة والرضيع، مَليحـة حاملة الزَّلعة، ومَليحة النائمة في حِضنه كنومة بنت لوط في حِضن أبيها!

أظنّ أنّ هناك الكثير في صندوق مينا الأسود. حتى الكشف هنا لم يكن مكتمِلًا. معظم الأسئلة يلد ملامــح إجابات فَحَسْبُ؛ هل حَبَلَتْ شُهْدَةُ؟ وهل تخاذل مينا وتركها؟ هل أجهضَتْ جنينًا؟ لماذا افترقا وكيف؟ هل تعارفهــا على عُمَر بَنْهُوِ كان خيانة منها؟ ما سبب سفره الساكِت أو هروبه العاجل؟ كيف عَرَفَتْ بمكانه؟ أكانت صدفة؟

19

[غرق اليوم أكثر من 300 شخص في زورق مكتظ بالمهاجرين الأفارقة غير الشرعيين قبالة جزيرة لامپيدوزا بجنوب إيطاليا]

اكْتَمَل الخبر والفزع!

نهشني القلق والجنون، لم أستطع الاتّصال بالأهل في هذا الوقت المبكّر فــي القاهرة لأتأكّد من سفر رمسيس، فرغم فزعي وانعدام صبــري تمامًا لم أرغب في إثارة رعبهــم أو قلقهم. لم يكن أمامي سوى التصرّف بما تمليه عليَّ ظروف الخوف وضغط الوقت. منذ اكتمال الخبر في جملة مفيدة وصورة رمسيس أو "الحاجّ رمسيس" لا تغيــب عن ذهنــي، لكنّها صورة مزعجة لهواجس مشوّشــة لا أستطيع إيقافها، تتوارد كشــريط سينمائــي لتخيُّل أسوأ الابتلاءات للغائب وتمنّي النجاة له!

سمّيناه "الحاجّ" لأنّ أمّي حيـــن ذهبتْ للحجّ مع أبي، كانت في شـــهر حَمْلِها السادس، وقالت جدّتـــي والمخضرمات معها، بما أنّ الجنيـــن قد أدّى معها كلّ مناسك الحجّ، فهو بالضرورة حاجّ أيضًا، وبهـــذا التصق به لقب "الحاجّ" منذ لحظـــة ولادته، فاكتسب بذلك احترامًا دينيًّـــا مبكّرًا التزم به كلّ الأقـــارب والمعارف والجيران والشرير قبل الطيّب.

رمسيس هو أخي الأصغر. تَفْرِق بيننا عشر سنوات كانت كافية لأكون له مثل خـــال أو عمّ صغير وليس كأخ كبير، فحين وصلتُ إلـــى بدايات مرحلتي الثانوية كان هو في روضة الأطفال. أُحضِره منها بنفسيْ كوليّ أمره، ثم فيما بعد عيّنتُ نفسي عن طَوع ورضًى مسؤولًا عن تسجيله في كلّ أنشطة مدرسته الابتدائية وشراء أدواته المدرسية وتجليـــد كَرّاساته وكتبه، ومساعدته في حلّ واجباته، بل حضور اجتماعات أولياء الأمور، والأهمّ من ذلك تخصيص وقت لمشاركته في ألعاب ذهنية مبتعدًا عن البدنية المرهقة. حُرِمَ رمسيس من مباهج الطفولة وشـــقاوتها اللذيذة، فلم يخرج للشّارع لِلَّعِبِ مع أقرانه ولم يشـــارك في حصص الألعاب فـــي المدرسة أو في أيّ نشـــاط بدني ولو خفيف، حتى أغلب الرحلات المدرسية حُرِمَ منها خوفًا من بذلِـــه لمجهود إضافي دون رقابة، أمّا أمّي فكانت تتجنّبُ تعنيفه أو توبيخه رحمة بقلبه الصغير.

في هذا الفجر الغربي وهذا الهدوء الغريب، أشـــعر بقلبي يختلج بشـــدّة فيرُجّ كلّ جسمي كأنّي من الداخل قد صرتُ قلبًا ضخمًا ولا أحشاء أخرى غيره داخلي.

وأنا في الثالثة عشرة -حين كان رمسيس ينام- كنتُ أضع أذني برفـــق على صـــدره وأستمع إلى دقّات قلبه. كمـــا كنتُ رغم سنّي الكبيرة نسبيًّا أُلصِق رأسي بصدر أمّي لأستمع لدقّات قلبها وأقارنها بدقّـــات قلبه. كنتُ أفعل هـــذا مع كثيرين خِلسة، ومـــن كان ينتبه لتصرُّفي الغريب هذا كان يُبعدني مُستَغرِبًا أو يتهكّم على غموض هذا السلوك منّي إلّا أمّي، فهـــي الوحيدة التي كانت تستقبل رأسي المُستَلقي على صدرها بقُبلة حانية؛ بل بحِضن حاوٍ بهيج.

"ثُقب في القلب!"

هذا ما قالـــه الطبيب عن حاجّ رمسيس وهو ما زال في الثالثة، يوم أُغميَ عليه وهو يلعب في الحضانة مع أقرانه. نقلناه للمستشفى غائبًا عن الوعـــي وأطرافه تُفَرْفِر كَفَرخ مذبوح. طلب منّا الطبيب بعد ذلك الذهاب به لكشـــف أشعّة سينية ورسم قلب، ثم أعلن لاحقًا أنـــه مصاب بثقب في القلب وعلينا رعايتـــه رعاية خاصّة وإبعاده عن أيّ مجهود بدني؛ خفيفًا كان أم عنيفًا، ومتابعة علاجه، وحَتْمية إجراء عملية جراحية له في القلب حين يبلغ العاشرة.

ظلّ رمسيس حبيسًا لأوامر الطبيب، ورهينًا لصرامتنا في تنفيذ

التعليمــات، فكنا عليه أخْرَسَ من سجّــان أريب. صار مع الوقت شخصية منطوية معزولة، يشعر بعجزه أحيانًا، وبتعجيزنا له دائمًا. غابت عنه شَــيْطَنة الطفولة وحلاوة سنينها إلّا فيما نَدَرَ. كان يبالغ في شــقاوته إن أفْلَتَ من الرقابة، كأنّه يعوّض صرامتنا التي حُبِسَ في زَنزانتها. عوّضناه عن هذه الحراسة والتضييق برفق وتهاون، صار بدوره يستغلّهما مــع الوقت ليَتَنَمّر مرة ويتمرّد مرات، وكنّا نغفــر له كلّ سهو أو عمد؛ ففي قــرارة كلّ منّا إحساس أشيان بأنه سيضيع منّا ذات ساعة قريبة قادمة.

أخطأ الطبيب الأهوج في التشــخيص، فعَيّشَنا ما يزيد عن سبع سنــوات في حالة استنــزاف أعصاب. استغلّ لقــب دكتور -الذي كنتُ أتشــكّك فيه كثيرًا- وما يجلبه له من احترام الناس ليُمْلي على الجميع قرارات ونصائح وخُزَعْبَلات ليس فيها من الطبّ شَــعرة، في شــخصيّته شــيء مشــوَّه وخبيث، فهو يُبَحلِق في نساء وبنات العائلــة ببجاحة ومراهَقــة أكثر من اهتمامه بالكشــف الجادّ على المريضة منهنّ، وحين كنَّ ينتبهنَ لهذه اللسعات المتلصّصة يختفينَ من أمامه، فيما بعد ودون اتّفاق لم ترغب واحدة من نساء أو بنات العائلة أن تكشف نفسها عليه أبدًا.

لم يكن عند حاجّ رمسيس ثُقب فــي القلب "ولا بِخزَنون"، قبل سنّ العاشرة بقليل عرضناه على طبيب آخر، فأجرى له عدة تحاليل وفحوصات وشخَّصَ الأعراض وأثبَتَ أنّ رمسيس لا يعاني من أيّ

مرض، وأنّ إغماءاتـــه القديمة قد تكون حدثتْ بسبب خبطة عادية على رأسه سبَّبَت له ارتجاجًا في المخّ، وربّما يرجع أمر الاضطراب إلى سوء في التغذية وأنّ لُهاثه المتكرّر من أيّ مجهود بسيط يُشـــبه أعراضًا مماثلة تحدث لكثيريـــن. وعلى الرغم من معرفتنا ببراءة حاجّ رمسيس من "عَيْـــب الحاجِز" المسمّى بـ"ثقب القلب"، إلّا أنّ تصرّفاتنا معه كانت قد تجذّرتْ فينا، عاملناه كإبريق بلور هشّ.

"الله يِسَامْحَكْ يا دكتور مَنْسِي!"

قالتها أمّي بحُرقة قلب وأعادتها جدّتي وأبي، ودَعَتْ عليه خالتي بكلمتها الشهيرة:

"اللـه لا يُوفَّقَكْ ويِجْحِمَكْ يا بعيد!"

وشتمْتُه أنا.

كنتُ في أشدّ الحاجة إلى نادين، لكن التوقيت المبكّر جدًّا والحرج جعلاني أتغاضى عن الاتّصال بها رغم فداحة الخبر، وفضّلتُ أن أترك لها رسالة صوتية بعد ساعتين من ذاك التوقيت.

سارعتُ تلقائيًّا إلى جهـــاز الكمبيوتر لأحسِب المسافة من ڤيينّا إلـــى لامپيدوزا، وجدتها حوالي ألفيْ كيلومتـــر وتحتاج لأكثر من عشرين ساعة بالسيّارة. لم تكن لديَّ سيّارة، فكرّتُ فيمن سيُعيرني

سيّارته وانّني ربّما لا استطيع تحمّل هذه المسافة سائقًا وحدي دون رُفقـــة وانا في غَمرة هذا الانفعال، ثــم إنّني وجدتُ نفسي سأحتاج لوقــت طويل حتى أصل لأقصـــى مكان في جزيـــرة صقلّية عند "بورتو إمبيدولشـــه" ثم سفر آخر بطيء عبر البحر مرورًا بجزيرة "لينوسا".

انتقلتُ للبحـــث عن طيران سريع إلى هناك مهمـــا كان مكلّفًا. وجدتُ رحلـــة وحيدة من ڤيينّا إلى "پاليرمو" عبر زيورخ ثم روما علـــى الخطوط السويسريـــة، مدّتها إحدى عشـــرة ساعة ونصف (ثماني ساعات منها ترانزيت في زيورخ) لأكون في روما مساءً، وفـــي مطار روما لـــديَّ ساعتان ونصف ترانزيـــت، ثم من روما إلـــى لامپيدوزا ساعة بالضبط. يعني لو تحرّكتُ الآن فورًا سأكون في لامپيدوزا فـــي التاسعة والنصف مساءً. تجـــاوَز سعر الرحلة الخمسمائـــة يورو، لكن لم يكن هذا وقت التفكير في أيّ قيمة للمال أو البحث عن رحلة أرخص.

أنجزتُ كلّ شـــيء عن طريق الإنترنـــت وحصلتُ على تذكرة إلكترونية. كيف وجدتُ نفسي في المطار، لا أدري! في يدي حقيبة متوسّطة لا أتذكّر ماذا وضعتُ فيها!

أخرجـــتُ من جيبي صورة رمسيس التـــي لا تغيب عن ذهني. صورتنا معًا؛ هو في الوسط بيني وبين إيزيس، نزعتُها من الألبوم

العائلــي قبل خروجي. كذلك آخر رسالــة منه، حفظتُها من تكرار قراءتــي لها كما اعتدتُ مع كلّ رسائل العائلة. ربّما أردتُ أن أرى عبر حروفه الأخيرة مسار أفكاره ومصيره. استجمعتُ من ذاكرتي طفولتــه وأيامه. ما إنْ بدأتُ أتذكّر يومًا من تلك الأيام القديمة حتى اهتــزّتْ الطائرة وانتفضتْ ونَفَضَتْ معهــا ذكرياتي. كانت أختي الكبــرى إيزيس تتراءى لي في آخر مشــهد قبــل الاهتزاز. كنتُ ممسكًــا برسالة منه، مــن رائحته، لم أقدِر علــى قراءتها في هذا المشهد المتعاظم في الاضطراب!

قارنتُ حالــي وطريقة سفــري وسرعته قديمًــا بسفر هؤلاء المستضعفين على نُعــوش الموت البحرية. كانت الطائرة قد بدأتْ تأخذ مسارهــا، من هذا العلوّ وعند هيمنة الزُّرقة وجَحافلِ البياض صرتُ أستعيد صور هــؤلاء المعذّبين في الأرض، الذين يهجّون -مثل نمل على صفيح ساخن- من القارّة الأمّ التي لم تَعُدْ أمًّا ولا أبًا، يفرّون إلى أيّ مكان آخر آملين في جنّات الشمال. هروبًا إلى نعمة الحيــاة، لتَنزَلِق أقدامهم من بَرٍّ صَلبٍ إلــى بَحرٍ رَخْوٍ، ومن مَوتٍ جافٍ إلى مَوتٍ مُبْتَلٍّ!

منذ بضع سنوات وأنا أنتقل بيُسْر لأيّ يابسة على الكوكب، بعد أن تحوّلــتُ إلى كائن آخر حامل لجــواز سفر عابر للحدود وفاتح للقارّات، جواز سفر أوروبي أو "سوپر پاسپورت" لغير المغضوب

عليهم من النمل المفزوع؛ هذا النمل المُشَرَّد الذي أصبح يطلق عليه "المهاجرون غير الشرعيّين"!

بين السماء والأرض امتلأتُ بخليط من المشـــاعر المتضاربة، تركيبة نادرة من الأسى والشـــجن والتذكُّر والشفقة والكآبة والحَنَق والتعاسة والغربة والكَرْب والوَحشـــة والغمّ والترقُّب والتوقُّع، أتت مجتمعـــة لها مرارة سماء كُحلية خالية من آلِهة الإنقاذ وبحرٍ أبيضَ متوسّط بلون الخَواء والعدم.

غـــادرتُ الطائرة في مطار زيورخ متعجّـــلًا مُزيحًا الناس من أمامي بضيـــق، مُهَروِلًا كمَن يريد أن يلحـــق بطائرة أخرى على وَشَـــك الإقلاع، بينما أُدرك تمامًـــا أنّ أمامي ثماني ساعات حبيسًا في هذا المطار. أوّل ما فعلتُ، ذهبتُ إلى أقرب كافيه وطلبتُ قهوة إسپريسّـــو، وسألتُ الجرسونة أن تغيّر لي بقية الحساب من اليورو إلى عمـــلات معدنية صغيرة من الفرانـــك السويسري كي أُجري اتّصالًا هاتفيًّا.

أيقظتُ نادين. صوتها نعسان ومريح. قالت: "صوتك متغيّر!"

"من قلّة النوم. أنا الآن في زيورخ."

"هـــذه مُزحـــة صباحية مضحكة، هـــل خطفتـــك ملكة جمال سويسرية؟"

"لا امزح يا نادين!"

"قُل لي بمشـــيئة الربّ: ماذا تفعل فـــي زيورخ في هذا الوقت؟ ولمـــاذا؟" صحا صوتها ليغرق في القلـــق وفي إطلاق كلّ الأسئلة الممكنة بسرعة البرق.

حين شرعتُ في سرد الحكاية الطويلة، طلبتْ منّي أن أذكر لها فورًا رقم هاتف الكابينة التي أتّصل منها لتعاود الاتّصال بي حالًا، ومن حظّـــي أنّ الكبائن في أوروبّا مـــزوّدة بأرقام خاصّة مكتوبة داخلها ويمكن استقبال مكالمات عليها.

اتّصلتْ بعد ثلاث دقائق مـــرّتْ عليَّ بطينة طويلة، سردتُ لها الحكاية المزعجـــة بجُمل مختصرة غير مترابطة. عاتبتْني أنّني لم أتّصـــل بها لترافقني، قالت كلامًا رطّب من حُرقتي. ختمتْ كلامها بأنهـــا سترتّب أمورهـــا فورًا لتكون معي وستلحـــق بي في أقرب فرصة. أخذتْ منّي عنوان وتفاصيل المكان ورقم التليفون الإيطالي الذي هاتفني فجرًا.

عدتُ للكافيه وطلبـــتُ قهوة "إسپريسّو دابِـــلّ"، جلستُ ساهمًا في أقصى ركن شـــاعرًا بإرهاق وتَشَوُّش. أخرجتُ الصورة أنظر إليهـــا مستعيدًا ذلك اليـــوم الجميل الذي تجمّعنا فيـــه معًا للاحتفال بحصول إيزيس على درجة الماجستير، وقفنا أمام نافورة الجامعة ليصوّرنـــا أبي بالكاميرا التي أهداهـــا لإيزيس في ذاك اليوم. كنتُ

في السابعة عشرة في أناقة واضحة وفي غُرّة الرجولة، إيزيس في الرابعة والعشرين في قبعة و"روب" التخرُّج بابتسامة وسْعَ العالم، ورمسيس آخِر العنقود في السابعة يتقدّمنا بشقاوته بخُطوة ممسكًا بيدينا ويشدّنا للأمام.

رحتُ فيما يشبه النعاس. أيقظتني الجرسونة بلطف وسألتني إن كنتُ أريد أن أطلبَ شيئًا آخر. طلبتُ زجاجة ماء، شربتُ نصفها وذهبتُ للحمّام. كنتُ مثل مُسرنَم وأتصرّف كإنسان آليّ. قمتُ وبحثتُ عن مكان هادئ بعيد وعلى مقعد عريض مريح وسّدتُ حقيبتي تحت رأسي ورحتُ في النوم مستعيدًا يوم تخرّج إيزيس وأيامًا أخرى هنيّة مع الحاجّ رمسيس.

فجأةً قمتُ مذعورًا أنظر إلى الساعة، غير متذكّر أين أنا ولِمَ أنا في هذا المكان. لمّا استجمعتُ ملامح ذاكرتي، لم أتذكّر موعد إقلاع طائرتي إلى روما. كلّ شيء يمرّ بي بدا مثل فيلم عبثيّ؛ فيلم لا أشاهده؛ بل أقوم فيه بدور رئيسي دون أن أدري. حملتُ حقيبتي وركضتُ وأنا أستجمع ذاكرتي المُهلهلة وأتصرّف برعونة وِفقَ أيّ معلومة تصل لمخّي، ركضتُ حتى وجدتُ أوّل شاشة معلومات عن السفر، وقفتُ أمامها ألهثُ. تدريجيًا استرجعتُ ملامح ما يحدث بعيدًا عن هذا الفيلم العَبَثي الذي يَطِنّ في رأسي، فبحثتُ عن رقم بوّابة إقلاع طائرتي.

كــان عليَّ أن أنتظر ستّ ساعات ونصفًا. يعني كلّ ما نِمتُه كان ساعة واحدة يتيمة، ظننتُ أنّني قد نِمتُ فيها نَوْمة أهل الكهف.

قُبَيْلَ نومي كنتُ أتحايل على نفسي لا أريد الغوص في تشاؤمات عــن حال رمسيس. كنــتُ أراجع غربتي؛ أختبــر زحام الكلمات والمعاني التي مررتُ عليها كثيرًا خلال عمري بلا مراجعة، سألتُ نفسي: "أليست الغربــة والهجرة والوحشـــة والرحيل والارتحال والترحال والنزوح كلّها كلمات لمعنًى واحد، أم هي حالات مختلفة؟ هل عشــتُ أنا كلّ هذه الأحوال؟ ولو كانت كذلك ففي أيّها عشتُ؟ وأيّها ما زال ينتظر؟

هل كنتُ أجرِّبُ نفسي بصدق وسْط الأقلّية التي أنتمي إليها دون أن أتّكِئ على المجاملات؟ هل كنتُ أدّعي العِزْوة البعيدة للأهل في حــالات اقتراب الاكتئاب دون عِزْوة حقيقية قريبة؟ فالمسافة حقيقة ماثلة وهُوّة ردمها مستحيل، وهل نظرتُ بوَعي في تلك المرآة التي يحملها لي المختلف عنّي وتمعّنتُ في نقده لي؟ هل نظرتُ بشجاعة فارس؟ وهل كنتُ أواجه قِلّتي وكثرتي وفقري وغناي وكلّ ظنوني، ولا ألصق نفسي بمرآة من يشبهونني فقط أو بالمرايا المادحة؟"

أُمسِكُ الآن الرسالة بين يدي بإحساس الفقد والافتقاد والشــجن. أتطلّــع لحروفه وطريقة كتابتــه، وخطّه المتعجّل الــذي يُخاصِم

السطور ويعوم فوقها ثم يقطعها مائلًا لأسفل. حين أرى خطّه يرنّ صدى صوته في هذه الكلمات، أعرف تمامًا كيف ينطقها؛ فما يكتبه هـو تمامًا لسانه الحقيقي؛ لذا كانت الرسالة حقيقية وقريبة، مفرحة وموجعة في آنٍ؛ رسالة من رسائل كثيرة احتفظتُ بها ضمن كمّ كبير وصلني من كلّ أفراد العائلة، ثروة نادرة تلاشتْ في السنوات الأخيرة عبر الرسائل الإلكترونية ووسائط التواصل الافتراضية الأخرى.

بقلم حبر أخضر غامق كتب لي رمسيس هذه الرسالة الأخيرة، الرسالة الوحيدة التي تقاعستُ قليلًا في الردّ عليها، أو في الحقيقة أخّرتُ الردّ عليها عامدًا.

أخي الغالي وأبي الروحي مينا

صباحك خير أو مساك خير.. أيها الملك مينا المبجل..

مشتاق لك مشتاق لك مشتاق لك.. مش بعدد السنين ولا عدد الشهور.. بعدد الثواني والله العظيم.

كلنا بخير والوالد زي ماانت عارف صحته مش ولابد لكن حالته حاليا مستقرة.

نفسي آجي عندك يا مينا بقى.. أنا زهقت من حالنا هنا اللي

بنبات فيه بنصبح فيه.. كمان ما باقيتش طايق لا الجامعة ولا المحاضرات ولا المذكرات المملة.. وبعد التخرج مفيش أصلا أي أمل لأي شغلانة.

صديق لمنير صاحبي بيحاول يقنعنا إننا نسافر لليبيا عن طريق البر.. فرص الشغل هناك أفضل رغم إنها مهينة أحيانا.. بعض الأصدقاء قدروا يروحوا على اليونان وإيطاليا بالمراكب وأمورهم سلكت.

عارف إنك نفسك إني أكمل ليسانس اللغة الإيطالية الملعون دا.. طب وبعدين؟ آخرتها حاشتغل مرشد سياحي ودي شغلانة عمري ما فكرت فيها!!

ارضى عني بقى يا ملك وافتح لي السكة أكون عزوة ليك في بلاد البرد دي.. على فكرة صورتك الأخيرة بالهدوم الشتوية.. البالطو والكاب والجوانتيات والجزمة الشتوي عجبت الكل إلا ماما.. قالت البلاد دي بردها مر.. مش عارف جابت المصطلح الرهيب دا منين.

كان هذا هو الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل:

ماما بتبعت لك أحر السلام والكلام وبتسأل امتى حتنزل، بتقول

انت نسيتنا خلاص وبقيت خواجة.

بابا بيبعت لك السلام وبيتمنى تكون أمورك ماشية على ما يرام وبيقولك خليك عندك واتجوز واحدة حلوة وهاتها وتعالى زرنا بس وارجع تاني!

ايزيس مرابطة عندنا اليومين دول في حملها التاني الصعب.. أو يمكن بتتدلع علشان ماما تعشكها شويتين.. وتهرب من بيت عماد جوزها المسافر دلوقتي في عقد لعمان لمدة تلات سنين زي ما انت عارف..

عم البنجي المكوجي تعيش إنت مات قبل أسبوعين، عارف إنك حتزعل عليه لأنك كنت بتحبه مع إنك ياما اتخانقت معاه على قمصانك اللي بترجع لك كل مرة مكرمشة ومعببة.

والسلام ختام

أنا باكتب لك معظم رسايلي بخط إيدي لأني عارفك بتعز الرسايل بخط الإيد..

رجاء أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد النظر في التماسنا المقدم أعلاه والنظر بعين الشفقة لأحوال رعيتك في مملكتك المصرية الواسعة.

نقدم لكم خالص الولاء والاحترامات والتبجيلات وابوك السقا ماتـ..

محبة كبيرة قد الديناصور الأخضر

الملك الصغير رمسيس

أو (الحاج رمسيس سابقا وميدان رمسيس مستقبلا)

لـم تكن مجرّد رسالة من رمسيس، بل جرّتْ تلك الكلمات معها لمينا عمرًا طويلًا وحنينًا وشجنًا. كلّ الرسائل التي تصله من العائلة يجمعها في "دوسيه" ويعود لها كلمـا مَضَّهُ الحنين ليعيش معهم مجازًا في بيـوت من ورق رغم المسافة. يكتـب ردوده على كلّ رسالة بأخرى مكتوبة بخط يده، ويعشـق هذا المشوار إلى مكتب بريد الحيّ، حين يرسـل رسالة ويسأل في كلّ مرة موظف البريد سؤالًا لا يتغيّر: "كم سيستغرق وصول هذه الرسالـة لمصر؟" ويسمع الردّ نفسه بانتباه كبير أملًا أن يقلّ وقت وصولها مرة ولو يومًا أو يومين.

كان عليَّ أن أنتظر ستّ ساعـات ونصفًا. لكن الآن بعد قراءة الرسالـة أكثر من خمس مرات؛ سيكون عليَّ أن أنتظر عشـرات الساعات، فالنوم الآن موجِع والصحو كاسِر ومؤلم، رمسيس ماكِث في ذهني لا يغادر ولا أريده أن يغادر، أستجمِعُ من ذاكرتي طفولته وأيامـه، تتخلّل الذكرى ملامح إيزيـس أو "وِزّة" كما كنتُ أُدَلِّعها دائمًا. يختلط عليَّ ما تذكّرته في الطائرة قبل أن ترتجف في الفضاء

مثل طائر مُبْتَـلّ ينفُض عن نفسه البلل. حُلم بعيد يمرّ بمحطّات ما داخلي، انقطع أيضًا أثناء فزعي في الاستيقاظ، نعم كان هناك حُلم مــا، أم كان كابوسًا؟ أغلقتُ عيْنيَّ فــي محاولة التركيز في ملامح الحُلم المتقطّع الغامض، الحُلم الذي قُصِفَ بصحو مخضوض.

كنــتُ أرى رمسيس رضيعًا في حِضــن أمّي المستندة على جذع شجرة جُمَّيــز مثمرة، الشجــرة ضخمة مورقــة وفَيْئُها مُمتدّ والجوّ قائظ. أمّي تركتْ رمسيس وقامت مبتعدة لسبب غامض. رَفَس بقدميه في الهواء قليــلا، ثم أحسّ بوحدته فصار يصرخ، لم أسمع صوته، لكنّ فَتْحَهُ لفمه وإغماضــه المُكَرمِش لعيْنيــه وانتفاضته كانت كلّهــا واضحة. اتجهتُ نحوه فارتطمتُ بزجاج سميك أوجَع جبهتي وأنفي وركبتي. حاولتُ أن أجــد مدخــلا آخــر لكــن دون جدوى، جــدار الزجــاج كان هائلًا وسميــكًا. رأيــتُ أمّي بعيدة تسير في اتّجاه عكســي لمكان وجوده وتمدّ يديهــا أمامها كأنّها معصوبة العيْنَيْن أو عمياء، لم أتيقّن إن كانت تسمع، لكنّــي أكاد أسمــع صَريخ رمسيس مــن شدّة انتفاضاتــه وفمه المفتوح ووجهــه المُتَغضّــن. رأيته يُدَبدب بقدميه في جــذع الجُمَّيزة، فتساقطتْ عليه حبّاتها بغــزارة؛ حبّات لونها جُمَّيزي، مزيج مــن البرتقالي والبُنّي والبنفسجــي والــوردي. خشيتُ عليه، لكنّه بــدا مطمئنًا هادئًا وضاع منــه الهلع وأخذته سكينة، كان ينظر إليّ كأنّه يراني، فأشرتُ إليه ليَأنَس بوجــودي وتحَركــتُ يمينًا ويســارًا وقفزتُ أداعبــه، لكــنّ عيْنيه كانتا تتحــرّكان في كلّ الاتّجاهات بلا تركيز ولا يراني. اقْشَعَرّ بدني وأنا أرى ذئبًــا يقترب منه يعاينه من علــى بُعد مترين. ضربــتُ الزجاج السميك

بقبضتـيْ يـديَّ وقدميَّ وركبتـيَّ وكلّ جسمي لإبعاده. بـدا أنّ الذئب أيضًـا لا يراني. اقترَبَ من رمسيـس. عاينه بعيْنَيْن تلمعان ثم شمّه ولعق خـدّه. صرخ رمسيس بزعيق حادّ، فتراجع الذئب للخلف خاسفًا ذَنَبه بـين قائمتيه ثم هرول بعيـدًا. رأيتُ رمسيس ماسـكًا بقبضته الصغيرة حبّـة جُمّيز يقرّبها من فمـه، ويحاول أن يَقْرُمهـا بأسنان صغيرة تلمع. استغربـتُ أن تكون لرضيع مثل هذه الأسنان. عُدتُ أبحث بعيْنيَّ عن أمّـي، وكان الليل يدخل أسرع من المعتـاد ويُظلِم المكان وأنا في منتهى الجزع.

هــذا ما كان، ربّما انطمستْ بعض ملامـــح الحُلم أو الكابوس. صــرتُ أقلّب في معانيه وفي محاولـــة إيجاد تفسير مقنع للأحداث الغريبة، متنَقّلًا داخل المطار من مقهًى لمِقعَد لمَمْشًى لحمّام لمقهًى، والوقت متورِّم ثقيل لا يمُرّ.

جلستُ فـــي صالة إقلاع الطائرة قبـــل الموعد بثلاث ساعات. اشـــتريتُ جريدة "الحياة" وبَقِيـــتُ أتصفّح فيها لأشـــغِل ذهني أو بالأصحّ لأشـــتِّتَ ذهني. كنتُ أقرأ كلّ مقال ثلاث مرات حتى أفهم ثُلُث فهـم. وأنظر إلى الساعة التي تزحف ببطء، كأنّي رأيتها فعلًا تعود للوراء، تسير عكس اتّجاهها. مع الوقت تجاهلتُ شاشة الصالة والرحـلات التي تسافر منها. حين وقفتُ أسأل الموظّفة عن موعد فتح باب الطائرة، أمسكَتْ تذكرتي ونبّهَتْـني إلى أنّ بوّابة الخروج تغيّـرَتْ قبل ساعـــة. اضطررتُ لأن أركض لمسافـــة طويلة وأنا ألعن المطارات وشركة (إيزي جيت) على وجه الخصوص. كنتُ

الوحيد والأخير الذي وصل للطّائرة، وأظنّ أنّني سمعتُ نداء اسم "مينا سولي مان" يتردّد من ميكروفونات المطار أثناء ركضي، لكن الهذيان والأحلام والكوابيس والإرهاق لم تجعلني -حتّى- أتنبّه لاسمي.

كنتُ آخر راكب على هذا النوع من الرحلاتِ الرخيصة التي لا تمنح راكبها مقعدًا برقْم محدّد، بل يجلس كلّ راكب في المكان الشاغر المُتاح، كأنّك في ترام أو باص، صحيح أنّ الأمكنة بعدد الركّاب لكنها بدون رقْم معروف لأيّ راكب، فعلى الكلّ أن يجلسوا كيفما اتَّفَقَ. حين وصلتُ متأخّرًا بالطبع، كانت الطائرة ممتلئة، وفي بحثي المتعجّل لم أجد لي مكانًا، بينما صوت قائد الطائرة قد بدأ يعلن عن معلومات الرحلة قبل الإقلاع. قامت المضيفة باستعجال نِصفُهُ تَذَمُّر وَنِصفُهُ ابتسامة إجبارية، قالت: "مستحيل، لا بدّ أن يكون لك مكان" تأكّدتْ من تذكرتي وسارت معي تبحث عن المكان المُفتَرَض أن يكون خاليًا. في الصفّ قبل الأخير "انْجَعَصَ" راكب وضَع حقيبته على الكرسي الذي بجانبه. استأذنتْ منه المضيفة بشيء من الحِدّة المهذّبة قائلة إن هذا مكاني وعليه أن يُخلي حقيبته منه. نظر لنا ببلادة ومدّ يده لحقيبته ببطء، فأخذتْ منه الحقيبة بتعجّل وضيق والابتسامة الإجبارية لا تغادر وجهها ورفعتْ الحقيبة إلى الكابينة العلوية فوقنا، وهو ينظر لنا كأنّنا عصابة من أعدائه القدامى.

"هل أردتني أن أقف في الطائرة لتستريح شنطتك المبجّلة على الكرسيّ!؟"

بسبب بَلادَته المُزمنة قلتُها له بخشونة وتهكّم حين جلستُ، وانتظرتُ أن ينطق بحرف معترضًا أو يُخرِجَ زفرة حانقة، لأصُبّ نَكَدِي المركون في رأسي إلى أمّ رأسه؛ لكنّه صَمَتَ لحسن حظّه وحظّي.

طارت الطائرة على ارتفاع منخفض. الدنيا في هذا العُلُوّ ما زالت في شَفَق. مع مرور الوقت كان الغَسَق يلوح في الأفق الغربي البعيد، بل كنتُ بالكاد أرى ملامح أفريقيا عن بُعد. هبطتُ في مطار جزيرة الآلام؛ مطار لامبيدوزا.

خرجتُ من المطار وطلبتُ من سائق تاكسي واقف يُدخّن أن يأخذني إلى مكان الحادث الفظيع الذي حصل في الجزيرة. لم يفهمني. حادثني بإيطالية سريعة وخَلَطَها بكلمات قليلة من الإنجليزية، فهمتُ منه بضع كلمات متناثرة: هُوتِيل، بَنْسِيونْ، أدْرِسّ. شرحتُ له بإشارات عشوائية اخترعتها في هذا التواصل العبثي، فردّ عليَّ بإشارات أكثر عشوائية. لم يفهم ألغاز تشويحاتي، وأنا لم أفهم طلاسم تشويحاته. وطأة الكابوس زادت عليَّ. أخيرًا فَهِمَ منّي بالكاد وبتوجُّس كلمة (پورتو porto) وأنّني أريد أن أذهب للميناء، قلتُ:

"آيْ آمْ چورْناليسْتْ!"

وجدتُ أنّ هذا هو الحلّ الأمثَل للخروجِ من شَلل التّواصل، وأنا على كلّ حال لا اكذب على محكمة أو منظّمة رسمية! ردَّ عليَّ:

"چورْناليسْتا giornalista؟ أُوكيه أوكيه!"

فهـم أنني صحفي وفتح لي باب التاكسي فورًا، لكن هل يا تُرَى سيذهب بي إلى الميناء حيث موقع الكارثة، أم سيطير بي إلى أبعد هوتيل او بنسيون؟

20

بدت كجزيرة نيلا متلألئة في أجزاء كبيرة منها. لم أعرف الاتجاهات بعد. لكني أشم رائحة يود البحر النفاذة. السائق يثرثر معي بالإيطالية وأنا غائص في عتمي الداخلي، كل دقيقة أقول له (سي سي) فيستمر في الثغو. أنزلني بالقرب من مكان حادث الفجر. المكان مغلق بشريط بلاستيكي طويل لمنع دخول العامة. حملت حقيبتي وسرت بين عربات إسعاف واقفة تتوهج بأنوار متقطعة، وأخرى تطلق "صفاراتها" لفتح الطريق، وعربات بوليس حركتها عصبية مثل كلاب متأهبة للهجوم والعقر، وأشخاص يسيرون ببطء كأشباح يتجولون وآخرون متعجلون كأن زلزالاً ضربهم.

ركضت إلى أول ضابط توسمت في وجهه طيبة، حدثته بالإنجليزية عن الاتصال التليفوني الذي تلقيته من إيطاليا، وعن

أنّنـــي جئتُ من ڤيينّا بحثًا عن أخي. ردّ فورًا (no, vietato)، فهمتُ أنها ربّما تعني (لا، ممنوع) أظهرتُ له رقم التليفون الذي حادثتني منه السيّدة في الصباح، عيْن منه بدت لي رؤوفة والأخرى بوليسية شــرسة، ركّزتُ على الأولى وهو يأخذ منّـــي الورقة التي سجّلتُ عليها الرقم. تركني وتوجّه إلى ضابط آخر. نظر إليَّ هذا الآخر من بعيد نظرة فاحصة سرعان ما فَتَرَتْ، وانشـــغل مع محادثة تليفونية دون ردّ على زميله صاحب العيْن الرؤوفة، الذي لم يرتدّ إليَّ مرة أخرى وبَقِيَ منشغلًا هناك.

اقترب منّي شخص ملامحه عربية شمال أفريقية. ربّما يكون قد وجد في ملامحي ما يجمعنا شكلًا أو دمًا فبادرني:

"عَالسلامة..لا باس.. إمْنين يا خويَ؟"

"أهلا بيكْ، أنا مِن مَصر!"

"شنُوّا تَعْمِل؟ إنْتِ مْتَرجِم؟"

"لا."

"وَقْتَاشْ جيتْ لِهْنِا؟"

"حالًا وَصَلْت!"

لهجته تونسيـــة عذبة أعرفها وأفهمهـــا، فصديقي باهي بَكُّوش تونسي مـــن "جِرْبَة" يمتهن الجزارة في ڤيينّا ويسمّيه الجميع باهي

الجزّار، أعرفه منذ سنوات. يكلّمني كثيرًا بلهجته التونسية السريعة، وكنتُ أفاجئه كلّ مرة بجملة تونسية صحيحة تعلّمتها، أو أكون قد بحثتُ عنها وسألتُ أصدقائي التونسيّين حتى أجيد نُطقها من أجله. كان يَبَشُّ لرؤيتي كأنّه يرى في المكان الغريب صَدَى بلاده في لساني، لم أجد أحدًا يفرح بسماع لهجته مثلما كان باهي الجزّار.

كُدتُ أُكَلِّم هذا الشاب ببعض الكلمات التونسية لكنّي أجّلتُ الكلام لوقت آخر. اسمه بِنْ شَاذْلي عرّفني بنفسه وقال إنه مترجم عن الإيطالية.

اختصرتُ له حكايتي الطويلة ورحلتي الأطول. استغرَبَ من أمر الاتّصال التليفوني في الفجر، ورأف بحالي المُرهَق الباحث عن أخ مفقود أو ميّت وسْط هذا الصيد الوفير من الجُثث.

على مسافة بعيدة من الشاطئ كانت هناك أضواء خافتة بعيدة وكشّافات مُسلطة على مكان الحدث ونُباح كلاب بوليسية. الشرائط الفوسفورية العَريضة تلمع على سُترات وبنطلونات وخوذات رجال الإنقاذ والعمّال وقمصان الكلاب. على الشط يبدو عدد كبير لكُتَل بيضاء مرصوصة في نظام جوار بعضها البعض. سيتضح لي في اليوم التالي أنّ هذه الكُتَل المتراصّة لم تكن إلا لجثامين الغرقى ملفوفة بملاءات بيضاء، تظهر من بعض اللفائف القصيرة أقدام ومن البعض الآخر أجزاء من سيقان، وأحيانًا ذراع فالتة متخشّبة رفضتْ الانصياع للكَفَن الأبيض على الأرض الغريبة، فاستعرضَتْ متمرّدة بأصابع متشنّجة كأنّها تتوعّد بالإدانة.

أردتُ أن أركض من بين الجميع وأنسلّ من بين شرائط منع الناس من الاقتراب، لأفحص وجه كلّ جسد ملقًى على الشــاطئ. حذّرني بِنْ شَــاذْلي من التهوّر فوقفتُ ملجومًا مشلولًا. تمنيتُ أن أفتّش كل سيّارة إسعــاف خارجة، معاينًا لوجه كلّ من نجا. أحسستُ ببرودة أعصاب الجميع وأنهم يتحرّكون وفق فوضًى منظّمة ويتعاملون مع الحدث بسَأم أوروبي مزمن، كأنّ هذه الجثث المتناثرة مجرّد صيد سَيُنقَل لمكان آخر أو نفايات سَتُعْدَم.

قــال لي بِنْ شَــاذْلي لا تتكلّم سوى معي وكلّ مــا تسمعه منّي رُدَّ فقط بكلمة (ســي sì)، سأُدخِلك معي. كان مترجمًا معروفًا لهم فــي هذا المكان وطبيعة عمله تتيح لــه أن يدخل ويخرج بسهولة. أدخَلنــي معه وهو يكلّمنــي بالإيطالية وأنــا أردّ عليه كما نصح: (سي، سي sì, sì).

المنظــرِ عن قرب مفجع يَفطِر القلــب. الجُثث المتراصّة على طول الشــطّ أكثــر بكثير ممّا رأيتُ وظننــتُ. مصيبة الفجر تعود لترنّ فــي أذني [**غرق اليــوم أكثر من 300 شخــص في زورق مكتظ بالمهاجرين الأفارقة غير الشرعيين قبالة جزيرة لامبيدوزا بجنــوب إيطاليا**]. ها أنــا الآن في جزيرة الكارثــة الإنسانية، بل الكارثة اللا إنسانية، أقف كالأطرَش في الزَّفّة، مُطَأْطِئًا حائرًا وسْط تلك الكشّافات والأوامر والعصبية واللغَط والبكاء والصياح ونُباح الكلاب.

ذكّرني الوضع بفيلم نمساوي شـــاركتُ بدَور صغير في مشاهد قليلة منه قبـــل سنوات على بُحيرة "نُوْيْ زِيدْلَر" في شـــرق فيينّا. كان فيلمًا بوليسيًا عن عصابة تُهرِّب المخدِّرات في نُعوش حقيقية، على أنّ من فيها نمساويّون تُوفُّوا في حوادث سير، وبطرق خدّاعة استطاعوا استخراج جوازات سفر نمساوية مُزوَّرة وعناوين حقيقية داخل النّمسا، ولأنّ الجُثث ينبغي ألّا تتأخّر كثيرًا فقد نقلوها بتعجّل مُصطَنَع في عربات لنقل الموتى. نقلوا معها أيضًا بعض المرضى الوهميّين بسيّارات إسعاف متعجلة لمَن عبروا الحدود بصورة غير شـــرعية وحالتهم المُصطَنَعة لم تسمح باستجوابهم. النُعوش كانت آتية من شرق أوروبّا عن طريق المجر. كان المشهد الذي شاركتُ فيه ليليًا.

اختاروني في البداية طبعًا كمُهَرِّب، فَسَخِرتُ ممّن اختارني وقلتُ لهم أنتم أسوأ من العنصريّيـــن وَتَدَّعُون الفنّ. الصورة لديكم دائمًا نمطية وَتُرَسِّخُون لمَن هم على شـــكلي وشاكِلتي ليكونوا مجرمين داخل المجتمع الأوروبي النظيف العفيف. يومها أنْصَتَ لي مساعد المخـــرج. ضحك وغيَّر بالفعل دوري الصغير في التهريب لأكون شخصًا يكتشف الخدعة ويبلغ الشرطة بحيلة المهرّبين. كانت هناك تحضيرات ضوئية تشبه تلك الكشّافات الساطعة، وأوامر وعصبية وصياح كلّها شـــبيهة بتلك الموجودة أمامي الآن في الواقع، تمنّيتُ لو كنتُ أُكمِل مشـــهدًا قديمًا من الفيلـــم النّمساوي، وأنّ هذه الجثث

المرصوصة هي مجرّد كُومْبارس يقومون بأدوار موتى.

-

أحسستُ بدُوخة وخَنقة وقِلّة حيلة وكان عليَّ أن أتَّبِع تحذيرات بِنْ شَاذْلي حتى لا أوَرِّطه وأوَرِّط نفسي. جاءني وقال لي إنه سوف يوفّر لي قائمة بأسماء كلّ الأشخاص الغرقى ومن وجدوا معهم بطاقات شخصية أو بيانات تفيد بهُويّاتهم، وعلينا في صباح اليوم التالي أن نذهب بسرعة لمكانيْن: معسكر اللاجئين الناجين من نُعوش الموت وثلّاجات الموتى الموجودة في عَنبَر خلف المستشفى العامّ.

مرّ وقت كئيب بأفكاره وهواجسه، مظلم وظالم لهذه النُعوش المُرَصّصة، مزعج بالصياح والنُباح والعصبية، بارد من ليل وبحر وعتمة، مرهِق بسَحبِه كلّ الطاقة الإيجابية من جسمي.

أخذني بِنْ شَاذْلي معه في سيّارته الصغيرة إلى الفندق الذي ينزل به. ونحن عائدان رأيتُ أفرادًا ممّن أُنْقِذُوا وقفوا في الميدان مع مجموعة من ناشطي حقوق الإنسان، أشعلوا بعض الشمعات ورفعوا بعض الشعارات المكتوبة ووضعوا بعض الصور التي التقطوها في طريق السفر والموت أو تلك التي حملوها معهم فَبَقِيَتْ وراح من فيها.

بنْ شَاذْلي أقنع المسؤول عن الفندق بتوفير غرفة لي. قال المدير لا توجد سوى غرفة مزدوجة، وقبل أن يحاول بِنْ شَاذْلي أن يقنعه بإعطائي غرفة منفردة، كنتُ قد وافقتُ فورًا، متوقّعًا وصول نادين في اليوم التالي.

اتّفقتُ معه أن نلتقي في بهو الفندق لنشـــرب شيئًا، بعد أن أغيّر ملابسي وآخذ دشًّــا سريعًا، لكن ما إنْ صعـــدتُ إلى غرفتي حتى هَوَيتُ على السرير هامدًا مُغَيَّبًا شـــبه ميّت سامعًا لغطًا وعائشًا في تهيّؤات لا أدرك معناها، تأتي من حُلم عميق: رنّات تليفون، زعيق نَوارس، صَخَب سارينات سيّارات إسعاف، أرى رمسيس يضحك، هدير محرّكات طائرات، شاشـــات مواعيد إقلاع طائرات، مراكب محطّمـــة، كلاب تنبح، أضـــواء ساطعة، رمسيـــس يتكلم، عتمة، زجاجات مياه بلاستيك طافية على الماء، زجاجات نبيذ مهشّـــمة، رمسيس يبكي، ثم خَبْط على أبواب. قلقتُ على جَلَبة طَرْقات عالية على باب غرفتي. كالعادة قمتُ مذعورًا أنظر حولي مستغربًا المكان والأثـــاث، جاهلًا الوقت منزعجًا من الخَبْط، متمنّيًا لو استطعتُ أن أعيد إغماض عيْنيَّ غائصًا في نوم هادئ، وأن أفتحهما على مشهد أجمل، وأصوات أكثر أُلفة. لا أدري لماذا تصوّرتُ للحظة أنّ أخي رمسيس هو الذي يَخْبِط على الباب!

فتحتُ الباب لأجد بِنْ شَاذْلي ومعه عامل مُسِنّ من الفندق مُنحَنٍ

على باب غرفتي في يده مفتاح يبحث عن خُرم الباب بيد مرتعشة ونظر ضعيف خلف نظّارة سميكة، قال لي إنه اتّصل بي مرات من تليفون غرفته ومن تليفون الاستقبال دون جدوى، ثم عاد مخضوضًا من عدم ردّي واصطحبَ العامل بالمفتاح الرئيسي وطرق على الباب مرات وَخَشِيَ عليَّ. اعتذرتُ له عن الإرهاق الذي اغتالني، واعتذر هو عن إزعاجي وأراد أن يتركني للنّوم، قلتُ له إنّني سأنزل معه قليلًا، وإنّني أرغب في الاتّصال تليفونيًّا بڤيينّا.

نزلتُ معه وسألتُ موظّف الاستقبال عن إمكانية الاتّصال الدولي وقيمته، كان لا بدّ أن أُحادث نادين لِأُعلِمها بالأحداث. رغم تأخّر الوقت كنتُ متأكّدًا أنها ستسهر دون نوم. لمّا سمعني بِنْ شَاذْلي، عرض عليَّ أن أتّصل من هاتفه، وأقنعني أنه يتّصل عبر كود رخيص للخارج. اتّصلتُ بنادين واختصرتُ كلّ ما حصل منذ وصولي في جُمل مقتضبة. أعطيتها اسم الفندق ورقم تليفونه ورقم تليفون بِنْ شَاذْلي للتّواصل في حالة الضرورة.

طلب لنا بِنْ شَاذْلي زجاجة نبيذ أحمرَ. توقّعتُ طعمًا غير هذا الطعم المُرّ، كانت المرّة الأولى في حياتي التي أشرب فيها نبيذًا مُرًّا لهذه الدرجة، ربّما مرارة الأحداث عَلِقَتْ بحَلْقي وَبَقِيَتْ. حكى لي عن حياته في تونس ومعاناته، وعن إقامته في إيطاليا ومكابدته ومعيشته في العديد من المدن بها: روما ونابولي وباري، إلى أن انتقل قبل ستّ سنوات ليعيش في پاليرمو ليمارس عمله في مجال

الترجمة الفورية.

لـــم أدرِ متـــى ولا كيف صعــدتُ إلى غرفتـــي. أكملتُ نومتي المحتضــرة، واستيقظتُ مبكّرًا وتوجّهتُ فورًا مع بِنْ شَـــاذْلي إلى الشــاطئ أو بالأصحّ إلى "شـــادِر الموتى". حين اقتربتُ من الشطّ مــررتُ على كمّيـــة من القوارب كنتُ قد مـــررتُ عليها في الليل وتَبَدّتْ لي هياكل مُعتمة لم أتحقّق منها. الآن أراها مهشّـــمة مكدّسة كحيتان نافقة، تبعث على الشفقة، أرى عليها كلمات عربية، بعضها مكتوب بخطّ جميل أو خطّ ساذَج. قال لي بِنْ شَاذْلي:

"هَذولَ مَقْبرة القَوارِب!"

القـــوارب كأنّها كانت في غزوة وانهزمـــتْ كلّها، عليها كلمات عربية: (الصبر/ نورماندي/ رضوان/ تَبارَك/ اللـه معنا) وكلمات أخرى. بضعة قوارب مطّاطية كانت مربوطة بحبال تكاد تنخلع من الماء بفعل الريح.

كنتُ مسرعًا نحو الشطّ أكاد أنكفئ على وجهي، أرغبُ في نزع الغطـــاء عن وجوه الجثث؛ أن أعثـــر على وجه أخي رمسيس. بِنْ شَـــاذْلي يُحِسّ بي ويَحُثّ معي. وصلنا. تركته يتقدّمني. لون الموت يغطّـــي المكان: كِمامات بيضاء على الأفـــواه، قُفّازات بيضاء في الأيدي، جثث ملفوفة في أكفان بيضاء، وبحر لَفَظَهم زَبَدُه أبيض.

قبل أن نقترب من "شادِر الموتى" برز قارب وحيد مغروس في رمل الشطّ ممتلئ بالرمال والماء، عليه جملة (خَلّيها على الله)، تتناثر فيما حوله وداخله خِرقات ملابس وبقايا أحذية وصنادل وشباشب وزجاجات مياه فارغة وعلب عصير وعلب سجائر وولّاعات وأطباق كرتون طافية، وشرائط كاسيت شريطها البنّي خرج هائشًا مثل فرو خروف، وعشرات من سُترات النجاة البرتقالية والصفراء التالفة.

وصلنا بالقرب من مكان الأمس. بضعة غوّاصين يعملون بهمّة كبيرة لإخراج الجثث من البحر. لم يكن مسموحًا أن نقترب، وقفتُ أتلظّى في مكاني. تكلّم معهم بِنْ شَاذْلي ثم أشار لي أن أتْبَعَه إلى مكان الناجين من الكارثة، قال إنه سيتوصّل لقائمة بأسماء الجثث التي وجدوا معها بطاقات هُوِيّة، وبالفعل كان اللاجئون عبر البحر يحملون دائمًا هُوِيّات ملفوفة بعناية في حافظات من البلاستيك لحمايتها من المّاء، ربطوها على صدورهم أو صدورهنَّ أو في جيوب مُحكمة داخل ملابسهم.

مرّ الوقت كئيبًا مميتًا لي ونحن نرى الغوّاصين بزيّهم الأسود المطّاطي يخرجون من الماء كسِباع بحر، يشدّون جثّة بملابس ملوّنة. تخرج ليفحصها شخصان يرتديان كِمامات وقُفّازات بيضاء، ثم يخلع مساعدان حذاء الميّت ويثبّتان بطاقة بلاستيك صغيرة

يُحكِمان ربطها على إصبع قدمه اليسرى ويغطّونه بملاءة بيضاء.

هل كان عليَّ أن أصرخ مع كلّ مُنْتَشَل من الماء؛ أن أكشف وجهه وأزيح وأضرب كلّ مَن أمامي وكلّ مَن يمنعني عن هذا الفعل. كنتُ واقفًا أنظر وألْفُ دمعة حارّة تَخِرّ داخلي تكويني. ألوم نفسي أنّني لم أردّ على رسالة رمسيس وأبدأ ألْفَ جملة تعيسة بكلمة (لَوْ)!

لو كنتُ كاتبتُه وأقنعتُه بالبقاء!

لو كنتُ أحضرتُه بالفعل وليعِش تجربته كما يريد!

لو كنتُ عُدتُ للقاهرة ولو لأسبوع!

لو كنتُ حذّرتُه من السفر على أيّ نعش مائيّ!

مضي الوقت ثقيلًا حتى الظهيرة، حتى تغيّرتْ الوردية التي تقوم بعملها، وكان على بِنْ شَاذْلي أن يذهب لمعسكر اللاجئين للتّرجمة وكان عليَّ أن أرافقه. ما إنْ اقتربنا من مكان كبير حديث البناء، يبدو مثل سجن كبير بأسواره العالية، وما إنْ سُمِحَ لنا بالدخول كمترجمين، حتى سمعنا صيحة امرأة أفريقية غاضبة تَسُبّ بلغة إنجليزية كلّ شيء وكلّ شخص وكلّ إنس وجِنّ وإلَه، وهم يحاولون تهدئتها: "هذه معاملة حيوانات أيّها الخنازير الحُثالة! أيّها العنصريّون! أين حقوق الإنسان؟ وأين الأمم المتّحدة ومنظّمات الكذب والاستغلال؟"

وقفتْ إلى جوارها امرأة تحــاول مساندتها. ردّتْ عليها -وهي لم تطرح أيّ سؤال- بإنجليزية واضحة أفريقية اللكنة، وهي تقصِد أن يسمع الجميع كلامها: "ساقونـــا إلى هنا وجرّدونا من ملابسنا، لنقف عرايا أمام الجميع. رشّونا بخراطيم المياه ثم بمُطهِّرات كأنّنا بهائـــمُ منقولة، لم يُفرّقوا بين النســـاء والرجال، عارٌ عليكم! سينتقم منكم الربّ!"

التقينا بشابّ اسمه أيّوب المصري، مراهق نحيف قال إنّ عمره ستّة عشـــر عامًا، على وجهه هلع الدنيا، وواضح من هذيانه أنه ما زال مشـــدوهًا في صدمته. ظلّ يكرّر كلّ جملـــة مرتين، أو ينتقل فجـــأة لحديث آخر في كـــلام غير مترابط لكنّه يَكُـــبّ لنا مأساة لا نقدر علـــى استيعابها! قال إنه انتقل من قريـــة اسمها (مَنْفا) قريبة من الإسكندرية، سافر منها العشـــرات لأوروبّا، حتى بدأ التضييق والقبـــض على من يُمسكون بهم. اكتشـــف المهرّبـــون والسماسرة والمُرَحِّلون ثغرة يَنفُذون منها فـــي قانون الاتّحاد الأوروبي؛ فمَن هم أصغر من ثماني عشرة سنة يُعتبَرون قُصَّرًا أو أطفالًا، وقانون الاتّحاد الأوروبي يمنع ترحيل الأطفال، على اعتبار أنهم معرّضون للخطر في بلدانهم؛ لذا يُسمَح ببقائهم ومنحهم اللجوء ثم إدماجهم في برامج تعليمية.

يُكمِل أيّوب أنّ أهله دفعوا للسّماسرة والوسطاء مبلغ ستّة وثلاثين ألف جنيه مصري نظير تسفيره لأوروبّا، وبسبب عمليّات النَّصْب المتكــرّرة، لم يدفع أبوه المبلغ نقــدًا، بل اتّفق على أن ينتظر حتى يتأكّد من وصــول ابنه لبرّ الأمان والاتّصـــال بالأهل أنه قد نجا. وقّع أبوه على إيصـــالات أمانة بهذا المبلغ الباهظ، عبر وسيط من القرية الذي يتعامل مع المهرّبين مباشرة أو أحيانًا تكون هناك عدّة مراحل: وسيط أوّل (مِلَمْلِمَاتي) ووسيط ثانٍ (مِجَمَّعَاتِي) ثم سمسار ثـم مهرّب ثم مالك القارب. ثم يتــمّ تجميع عدد مناسب من الأنفار للشّحن البشري، قال أيّوب:

"كنّـــا مائة وعشــرين من (مَنْفـــا) والقرى المجـــاورة، اتّجهنا للمخزن، والمخزن هو مكان تجمُّع الشباب المسافرين، وكانوا من لاجئي سوريا وفلسطين والسودان وبعض دول أفريقية أخرى فيهم كثير مــن النساء والأطفال. السمسار يرتّب طريقة شــحن الأنفار حتى صاحب المركب.

نقلونا بسيّارة لنقل الخضــروات وغطّونا بجوالات من الخَيْش وحِزَم بَرسيم وتِبْــن. أخذوا كلّ متعلّقاتنا الشــخصية، فلا ملابس ولا طعــام، أعطوا لكلّ منّا زجاجتيْ ماء ورغيفيْن فقط حتى يقلّلوا مــن الاضطرار للتّبــوّل والتبرُّز أثناء تهريبنـــا، ومنعوا استعمال أيّ أغطيــة، ثم ركبنـــا قاربًا مطّاطيًّا على أربــع نَقْلات للوصول

إلى المركب الراسية في عرض البحر، فالرادار لا يلتقط مكان القوارب المطّاطية، والقوارب المُنتَظِرة هي قوارب صيد مُرخّص لها بالتحرّك في المياه الدولية، بعد ذلك نقلونا إلى ثلّاجات أسماك مُعطّلة.

صاحب المركب يُبْلِغ عن قَرْصَنة مركَبه حتى إذا ما تعرّض المركَب للتّوقيف أو للغرق يكون بريئًا من أيّ تهمة لنقل شحنات غير مشروعة. أمّا المعاملة فهي من أسوأ ما يمكن تخيُّله أو توقّعه؛ شتائم بذيئة بإهانة الأمّ والدين وتهديدات بالرمي في البحر في حالة إظهار أيّ امتعاض، وقد حدث بالفعل أن تُوُفِّيَ شابّ ورموه أمامنا عمدًا كدرس ترهيبي عملي، ولك أن تتخيّل صدمات مثل هذه على نفسيّاتنا! علينا ألّا ننطق باسم صاحب المركَب ولا باسم السمسار الذي يكون في الغالب معنا، لأنه يحاول أن يَكِنّ في صورة لاجئ، وأظنّ أنه يستعمل اسمًا مستعارًا!

لمّا اقتربنا من الشاطئ الإيطالي بعد عذاب الموت والبكاء الصامت والبرد والقَيْء والرعب، أنزلونا في ثلاث مجموعات على ثلاثة قوارب من المطّاط، أعطوا واحدًا منّا مسدّس إشارة لأنّنا وصلنا ليلًا. رأيتُ بنفسي كيف انْخَرَمَ أحد القوارب واندلع الهلع والصراخ، وغَرَقَ مَن غرِقَ وتَشَبَّث البعض بالقاربيْن الآخريْن، رأيتُ الموت بعينيَّ، رأيتُ من يحاول إنقاذ شخص برفعِه ومَن قد

أصابـــه الرعب فصار يضرِب من يتشـــبّث بالقارب ليُبعده. لحسن الحظّ أنّ خَفَر السواحـــل تحرّكوا لإنقاذنا ونحن في منتهى الرَّمَق. وجدتهم يسألوننا مَن مِنّا مِن سوريا؛ كنتُ أعرف أنّ السوريّين لهم الأولوية فرفعتُ يدي. فسألني المترجم:

"إنت من سوريا؟ من وين بسوريا؟"

"مِن الشّام!" رددتُ عليه.

كانـــت هناك مفوضية سامية لشـــؤون اللاجئيـــن تهتمّ بتسهيل الإجـــراءات للسّوريّين. سألونـي عن عمـــري وقاسوا حجم العظام وتأكّدوا مـــن تقدير عمري بدقّة فعلًا، لكنهـــم عرفوا بسهولة أنني لستُ سوريًّا.

حَكَـــى آخر اسمه بلال من قرية اسمها (سِرْبَال)، قال إنه جرّب السفـــر بهذه الطريقة أكثر من أربع مرات. مرة عبر ليبيا في رحلة استمرّت أربعة أيام، هلك عدد كبير منهم بسبب قلّة الماء. اقترب منّا شابّ آخر قال إنه وصل بلا مشاكل كبيرة واستطاع أن يهرب داخل إيطاليا، لكنّه عمل في مطعم بأدنى أجر ولم يستطع تسديد ديونه في مصر، فاضطرّ للتورّط في أعمال غير مشروعة يتزعمها إيطالي لا يعرفه شـــخصيًّا، كَسَب منها في المرة الواحدة ما كان يكسبه في شـــهرين، لكن قُبِضَ عليه ورُحّلَ ثم عاد مجـــدّدًا بجواز سفر آخر واســـم آخر. بل قال إنه في المرة الأولى توجّه مركَبهم حتى وصل

للشَّـــاطئ، أنزَلوهم بسرعة ليقفزوا على شـــاطئ إيطاليا يرقصون رقصة النجاة والفرح، ليطوّقهم حَرَس السواحل من كلّ جانب وهم يسبّونهـــم بالعربية. كانوا قد داروا حول أنفسهـــم حتى عادوا إلى الشواطئ الليبية مرة أخرى وليس إلى إيطاليا.

مراكز استقبال اللاجئيـــن كانت عبارة عن عنابر كبيرة مقسّمة إلى مبنييْن منفصليْن أحدهما للشّـــباب الذكـــور وآخر للعائلات أو للأطفال والنساء. منعوا التصوير. العنبر ضخم ذو سقف عالٍ جدًّا يشبه عنابر نقل البضائع في الموانئ، على أرضيّته مراتب إسفنجية فُستقية اللون خفيفة الحِمْل. أوّل ما كانت تقوم به السلطات هو الكشف الطبّي على اللاجئين خوفًا من وجود أمراض وبائية حملوها معهم، ثم يُقَـــدَم لهم بطاقة تليفون برصيد خمسة يـــورو للاتّصال بذويهم وأهلهم من تليفونات ثابتة معلّقة داخل جدران الملجأ.

اتّصلتْ نادين من مطار لامپيدوزا على رقْم بِنْ شَـــاذلي تُعْلِمُني بوصولها. أعطاني التليفون فأكّدتُ عليها اسم الفندق وعنوانه مرة أخرى. قلتُ لها سأعود للفندق لألقاكِ. سألني بِنْ شَـــاذلي إن كانت صديقتي إيطالية، فقلتُ له لا، إنها نمساوية. قال إنها حادثته بإيطالية واضحة.

في غرفـــة الفندق أحسستُ أنّني أسير حـــول العالم في الاتّجاه

المخالف لكلّ الناس، بلا سبب وجيه. يكون الشيء الذي اريده قريبًا منّي، لكنّي أدور في اتّجاه مخالف حتى أصل إليه بعد زمن طويل، أو أصل بعد فوات الأوان، وربّما لا أصل أبدًا. سهوْتُ في افكاري وأنا في غرفتي مُرهَق حدّ الموت يُجافيني النوم، وقد مللتُ من متابعة الأخبار باللغة الإيطالية التي لا أفهمها ومن تلك التكرارات المُمِلّة للأحداث نفسها. في البداية تسمّرتُ أشاهد على امل أن تقع الصور المبثوثة من حادث الغرق على وجه أعرفه، او أن يكون هناك توثيقًا ما لأسماء المنكوبين يريحني. ظللتُ أقلّب في القنوات بحثًا عن لغة سهلة لي؛ حتى وقعتُ على قناة تتحدّث بالألمانية في موضوعات متعدّدة.

شدّني موضوع القناة الألمانية الغريب الذي ذكر في عنوانه العريض: (ساعة الكونغرس في "بوليڤيا" تدور في الاتّجاه المعاكس) والتقرير يفيد بأنّ المسؤولين في بوليڤيا قد غيّروا اتّجاه دوران عقارب الساعة المعلّقة في واجهة الكونجرس، لتدور في الاتّجاه المعاكس مع تغيير موقع أرقام الساعة بالطبع. وقد صرّح وزير الخارجية هناك بأنها الآن تُعتَبَر (ساعة الجنوب) واستنكر أن يكون البوليڤيون تابعيْن وغير مبدعين! وهم شعب عائش في الجنوب.

وفّرتْ بوليڤيا ساعات يد للوفود الأجنبية المشاركة في قمّة

مجموعـــة الدول الـ 77، أسمتها وكـــالات الأنباء الأجنبية (الساعة اليسارية). بعد انتهاء التقرير التليفزيوني كان هناك استطلاع لآراء الناس، لم يهمّني كثيرًا فقد سرحتُ فيما كنتُ فيه قبل لحظات، وفي دوراني الذي يشبه "الساعة اليسارية البوليڤية".

سرحتُ في كلّ شيء يدور، وفي فكرة كلّ دوران عكسي. راح ذهني لصورة الراكضين في الأولمبياد؛ إنهم فعلًا يركضون عكس اتّجاه الساعة؛ الأرض أيضًا تدور حول نفسها عكس اتّجاه عقارب الساعة؛ القمر يدور حول الأرض بالطريقة نفسها؛ والأرض والقمر وبقية الكواكب تدور حول الشمس كذلك في الاتّجاه العكسي نفسه؛ الحُجّاج في الكعبـــة يطوفون أيضًا عكس اتّجاه عقارب الساعة. لم أحِسّ أنّني وقعتُ على كشـــف فريد بقدر مـــا أحسستُ أنّني أنتمي لتلك المجموعة الشمسية، وأنّ هناك جاذبًا ما يسحبني لأغني خارج سرب حركة الناس ضمن قِلّة تُشبِهني!

فاجأتني نادين بحديثها السلـــس بالإيطالية، لم أتوقّع ذلك، رغم علمي بمفاجآتها اللُّغوية. كانت هذه أيضًا من المفاجآت التي تخبئها لـــي كلّ حين ثم تَظهَـــر منها عفويًّا. أعرف أنهـــا تجيد الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، إلى جانب لغتهـــا الألمانية، لكنّنا لم نتطرّق للحديـــث عن لغات أخرى تجيدها. اكتشـــفتُ أنّني لم أسألها سؤالًا

بسيطًـا يطرحه الجميع، خاصّة حين ينطق أحد ما لغة أجنبية دون توقُّـع، وهي قد سَبَقتْ ذات يوم بترجمـة ممتعة عن الفرنسية من كتاب (الجِلْدُ عبْر الأزمنة)، لكنّي ببساطة لم أوجّه لها هذا السؤال: "كم لغة تجيدين؟".

كانت عونًا لـي في حضورها. كنتُ في حاجـة لوجودها إلى جواري. وصول نادين شـحنني بطاقة جديدة. حلّتْ لي الكثير من المشاكل الصغيرة التي واجهتني مع صعوبة اللغة، ولولا مساعدات بِنْ شَـاذْلي قبلها لكنتُ ضائعًا في هـذا المكان. حِضنها وحده كان كافيًـا، كأنّها غسلتْ رُوحي من كَدَرها. أظـنّ أنّني ابتسمتُ للمرة الأولى منذ ساعات طويلة. بمجرّد أن رأيتُها شـعرتُ كأنّها نزَعَتْ قِناعًـا يابسًا لَصِقَ بوجهي لساعات. شـربتُ معها قهوة في الفندق وحكيتُ لها باختصار شديد ما يحدث.

طلبتُ منهـا أن تستريح في الغرفة علـى أن أعود بعد الظهر لترافقنـي، لكنّها أبَـتْ وأصرَّتْ على أن تكـون معي منذ اللحظة الأولـى. رافقتني في الوقت الحاسم في بقية المشـاوير في جزيرة لامبيدوزا، المشاوير التي فَجَعَتْ رُوحي.

21

منير هو صديق رمسيس الحميم، لا يكاد يفارقه إلّا عند النوم، طيشهما من طينة واحــدة؛ يبدأ هوسهما بمباريات كرة القدم، وتزويغهما من المدرسة لحضور مبارياتها في "استاد القاهرة"، ولا ينتهي بالذهاب إلى سينما أو مواعدة فتيــات لتَزجية الوقت ونسج حكايات يفتخران بهــا أمام أقرانهما أو تدبير مقالب للجميع بلا استثناء. في دراستهما يحصلان على درجــات متفوّقة دائمًا وبسهولة؛ لــذا يساومانِ بهذا التفوّق لنَيــل مزيد من الحرّية لممارسة كل ما يُتاح لهما من شيْطنة وطيَشــان. يتماثلان تمامًا في أغلــب الحماقات، ومن يراهما للوهلة الأولى يظنّ أنهما شقيقان. يتشــابهان في الملامح والإيماءات ولون البشــرة، حتى في طريقــة الكلام؛ وإن كان منيــر مَزّاحًا ضَحاكًا بلا انقطــاع حتى في أشــدّ أوقات الضيق. هو أكثــر سِمنة وأقصر قليلا مــن رمسيس وشعره أطول وأنعم يَعقِفُــه أحيانًا في خُصلة فوضوية كبيرة.

"مِشْ مُمْكِنْ! دَا شَبَهْ رَمْسِيس الخالِق الناطِق!"

كان هذا تعليق أمّي علـــى لقطة خاطفة لكاميرا التليفزيون التي مــرّت سريعًا على جمهور فريقي الإسماعيلـــي والأهلي. سمَّرَتْها اللّقطة في مكانها ثم أجبَرَتْها على الاقتراب من شاشـــةِ التليفزيون ببـــطء، بينما أحضر أبي نظّارته الطبّية -بالرغم من انعدام اهتمامه بكرة القدم- ليتحقّق من الخبر، فصار وجها أمّي وأبي يتمدّدان نحو الشاشـــة بشـــكل كوميدي؛ وجه من اليمين ووجه من اليسار، بينما خفَّفتُ أنا من الفضيحة الحمقاء بقولي:

"المَاتْش دَا فِي الاسْمَاعْلِيَّة.. فِعلًا بِخلَق مِنِ الشَّبَهْ أرْبِعِين!"

قلبُتهـــا وأمّي قد وقفتْ بكلّ محبّة وحسن نيّة وقليل من التربُّص، تنتظـــر عودة الكاميرا على هذا الذي يُشـــبه ابنها، أما أبي قد ثبَّتَ نظّارته على عيْنيه وركّز على الشاشة وتحجَّر مكانه كتمثال، بينما كنتُ أدعو كلّ الآلِهة والشـــياطين ألّا يعود المصوِّر إلى مدرّجات جمهور الأهلي مرة أخرى. ويبدو أنّ الآلِهة استجابتْ لدعائي فسجّل الإسماعيلي هدفًا في تلك اللحظة، فاشـــتعلتْ المدرّجات بانفعالات النصـــر المجنونة وانتقلـــت الكاميرا لنقل هِيـــاج وفرحة جمهور الإسماعيلـــي، فارتحتُ على مَضَض، متخوّفًـــا من عودة الكاميرا لجمهور الأهلي لإظهار مشاعر الحزن التي كَسَتْ الوجوه.

متأخرًا جدًّا ذاك المساء عاد رمسيس، فنبّهته عند الدخول للشّقة بطريقتي التي يعرفها وهو ذكي في تَلَقّي الإشارات:

"كانْ فيه ماتْش النّهارْدا في التّليفزيون.. وكانْ فيهْ واحِد بِشْبَهك بِالملّي وسْطْ الجمهور!"

"أكيد جابـر فنارة لاعب الاسماعيلي.. الكُـل بيقول كِدا!" ردّ الماكر سريعًا.

"لأ، دا كان م الجمهور مش م اللّعيبة.. شـبهك بالزّبط وواقف بيهيّص!" كرّرتْ مؤكّدًا وأنا أبرّق لـه تحذيرًا. تدخّلتْ أمّي ناسية كلّ شـيء فابنها ماثل أمامها بوسامتـه وصحته، فماذا تتمنّى أكثر من ذلك! بينما وقف أبي علـى مسافة محايدة يراقب الجميع ويقيّم الموقف كما لو كان رجل مخابرات محنّك.

"لكن الماتْش فـي الاسماعليّة.. وأنا لو ركِبْتْ بْساطْ الريحْ مِشْ ممْكنْ حالْحق لا أروح ولا اجي! ومين فيهم اللّي كِسِبْ؟"

الداهيـة عرف كيف يفْلت مـن الورطة. عاد أبي لجريدته التي ينْصّصها ولا ينتهي منها قبل أن يخْلد إلى النوم، ظلّ يهزّ رأسه أفقيًا باستنكار للأخبار التي تُغضِبه، ورأسيًا لما يروق له من كتابات، ثم يتلوهـا علينا بصوت مرتفع، ولا يهمّه إن كان هناك من يستمع أو لا، يكفيه أن يُحسّ بحركة أيّ شخص بالقرب منه.

نظـر رمسيس لأمّه مبتسمًا ابتسامته المحتالة محتضنًا إيّاها من جانبها: "طابْخالْنا إيه النّهارْدَا يا سِتّ الكُلّ؟"

بعد يومين من حكاية مباراة الإسماعيلي، أتى رمسيس إلى البيت منزعجًا، وأنا أوّل من يُحِسّ بقلق رمسيس بعد أمّه، فهو يبدأ بقَرض أظافره بتوتّر ثم بهَرْش جِلْـد رأسه بعصبية، ولا يستطيع التركيز و"يوَهْوِه" على كلّ سؤال يُطْرَحُ عليه: "هَه؟!"

"حَصَلْ إيْه؟ إحْكِي لِي، إنتَ هَبِّبْتْ إيْه، شَكْلَكْ عَامِلْ مُصيبَة!"

سألته. لا يستطيع أن يكذب عليَّ أو بالأصحّ لا يقدر أن يخدعني. ابتسـم ونظر لي نظرته الزائغة التـي أعرفها وابتعد بتثاقل، وهذا يعنـي أن أتبعه لمكان لا أذن فيه تَتَنَصّتُ على حوارنا. انتقلتُ معه إلى الشـرفة. حكى لي هامسًا إنّ أبا منير قد وبّخ ابنه توبيخًا شنيعًا كـاد يقترب من الضرب للمرة الأولى في حياته؛ بعد أن اكتشـف وَشْـمًا أعلى ذراعه، كُتِبَ عليه حرف (R) اللاتيني مشقوقًا بسهم كيـوبيد، والكارثة كانت مُركّبة، فأبوه ضابـط البوليس ظنّ جملة ظنون خاطئة ومعقّدة، أوّلها أنّ ابنه يتعاطى المخدرات، فالوَشْم في عُرفه هو سلـوك المنحرفين الرِّعاع الأوباش كما كان يسميهم في نَفَس واحد. سأله أبوه باستنكار ساخر:

"وِمين دِي صَاحْبِةْ الـ 'R'، يَا مِستَر 'M'؟"

ولما تلجلج منير فـي الردّ قليلًا، راح ذهن أبيه لأفكار متطرفة مزعجة. وشاط عقله ظانًّا أنّ هذه الـ 'R' هي أوّل حرف من اسمي أنا (رمسيـس)، وأنّ ما بيننا وضع يتعـدّى الصداقة لحالات أبعد فِسقًا.

وحتى يُغلِق رمسيس على أخيه مينا أيّ شُبْهَة أو رِيْبَة، قال له إنّ منير شَــغَف بفتاة بدوية اسمها "رابعة"، وأنه تَوَلّه بوَشْم فتّان على ذقنها وآخر على كفّ يدها، وذهب لشخص معروف بدقّ الوَشْم في "كَفْر الشُّــرَفا"، وطلب من الوشّام أن يَشِمَ له قلبًا داخله حرف 'R' اللاتيني مشقوقًا بسهم كيوپيد، وقد كان.

كعادة مينا حين يسترسل في حكْي الذكريات مع نادين، يحبّ أن يكون مستلقيًــا واضعًا رأسه على فخذها وهي جالسة. يُحِسّ أن في الحياة أشيــاء تستحق أن تُعاش وفي استعادتهــا إحياء لرُوحنا ولكل جميل مــرّ بنا. حكى لها حكايات كثيرة لــم تعرفها عن رمسيس؛ ابنه الذي لم يُنجبْه، وجرّه الحديث ليشــمل حكايــات فرعية عن العائلة. ترجم لها رسالة رمسيس التي قرأها لنفسه أكثر من عشــرين مرة في أقل من عشــرين ساعة. هَدَأتْ من خاطره ومَحَتْ تَشــوُّشه، قبّلَتْ رأسه بحنوّها المعتاد.

ما حكاه لها كان جديدًا ومختلفًا، بالتأكيد بسبب تلك الظروف الغريبة والمكان البعيد الغريب. يدها التي على رأسه تمنحه الإحساس بطمأنة الأمّ أو بأمــان الوطــن أو بهما معًا؛ يدها التــي تحفظ رأسه وتحفظ حكاياتــه. لم تسأله كثيرًا ولم تقاطعه، فقــد أوفى بحديثه عن أخيه، لكنهــا للمرة الأولى تُحِسّ أن تهَدُّج صوته أعمق وأكثر شجنًا؛ تهَدُّج لا يخرج من حنجرته هو بل يصدُر من كلّ جسمها.

سرتُ متثاقلًا خلف دليلي مسحوبًــا مثل تَيْس حَرون. يد نادين في يدي، تُشــعِرُني بأنني أسير في عِزوَة أسرة كاملة، يدها وحدها كانــت بمثابة أكتاف تسند كتفيّ وأيادٍ كثيرة تحمي ظهري وتُدعّمه.

لا أدري كيف كان سيبدو حالي في غيابها!

الطريق طويل داخل هذا المعسكر الذي أطلقوا عليه "أوسْبيداليه" ospedale التي تعني "مستشــفى". من الواضح أنها شُيِّدَتْ حديثًا، فرائحـــة الطلاء ومواد البناء نفّاذة. مشــينا فـــي ممرّ طويل ضيّق أرضيّتــه إسمنتية، جانــب منه جدار مرتفـــع والجانب الآخر من الأسلاك الشـــائكة، يُطِــلّ على البحر الأزرق الواســع. كأنّ الدنيا تحوّلتْ من رحابة هذا البحر إلى جدار صادّ عالٍ لا يسمح بالعبور إلـــى هذه القلعـــة المخفية. مدّ دليلـــي يده لكلّ منّـــا بكِمامة بيضاء وقفّازيْن أبيضيْن. خَجِلْتُ من ارتدائها فأمسكتها في يدي ومشـــيتُ في صمت.

أشعر أنّني أتحمّل ذنب رمسيس وسفره نحو الموت بتلك الطريقة المهينة. لم يكاتبني أنه قـــد جهّز نفسه بالفعل لمغامرة مروّعة مثل هذه. صحيح أنـــه لَمَّحَ لرغبته بضع مرات قبـــل فترة طويلة لكنّه تخلّـــى عنها، ليعود لها في رسائله الأخيرة بإلحاح متكرّر على أمل السفر إلى أوروبّا؛ الجنّة الموعودة.

صوت مـــوج البحر وتلاطمه على الصخـــور القريبة وصوت النـــوارس الزاعقة يختفي رويدًا وحواسّي معه تغيب، لا أكاد أسمع شيئًا ولا أشـــعر سوى بقُرب نادين. كأنّي أقف خلف زجاج عازل للصّوت. نتبع هذا الرجل البديـــن سريع الخطوات وهو يسعى في

الممـرَ الطويل بأنفاس لاهثة وخفّة لم أتوقّعها. كان مثل وحيد قرن يعرف بَرَارِيَهُ ويطأها بدبّاته الواثقة.

أستعيدُ سيرة رمسيس وألف سؤال ينهشــني، أوّلها: ماذا سأقول لأمّــي في القاهرة؟ كيف سأبلغهم بالخبــر حين أعثر عليه أو على رُفَاتِهِ؟ ظلّت الأفكار والأسئلة تكويني، إلى أن وصلنا إلى قاعة كبيرة بــاردة في نهاية آخر ركن من هــذا المعسكر الساكِت ذي الطاقات الصغيرة العالية. حين دخلتُ إلى تلك القاعة الواسعة تعثّرتْ عيْناي بعتمة مباغتة. شــعرتُ بقشعريرة كأنّي عارٍ في عزّ الشتاء. رائحة اليود كانت أكثر نفاذًا ممزوجة برائحة أسماك متعفنة!

حين استطاعت عيْنــاي التخلُّص من عماهــا المؤقّت، اتّضح المشهد: قاعة واسعة مستطيلة وباردة جدًّا بفعل أجهزة تبريد معدنية ضخمة تَبْرُز بأشكال قبيحة على الجدران. أرض مكتظّة ومصفوفة بلفائف مومياوات تظهر في ثلاثة ألوان: بنفسجية وبيضاءَ وصفراءَ. سأعرف لاحقًا أنّ هذه الألوان تعني أنّ البنفسجي للبالغين، والأبيض للبالغات، والأخير للقُصَّر والأطفال.

كنــتُ قد سمعتُ من الموظّفة رَقْمًــا وأنا في المكتب الخارجيّ: (R-437). تشاءمتُ من سماع حرف R في هذا المكان، ظلّ الرجل ينظر في الأرقام المعلّقة في أصابــع أقدام الجثث المتراصّة، وأنا خلفــه أتأكّد مــن الرقم. ينتقل بسرعة بينما أكــاد أخور في سيري

الحزيـن في طريق الأموات هذا. إحساس بغيض يهجس لي بكون الحرف المذكور هو أوّل حرف من اسم صاحب الجثّة. نصل أخيرًا إلى صاحـب الرقم (R-437)، يكاد قلبي يَثِبُ من صدري وصوت نَهْجِي يَرُجُّ كلّ جسمي. أحِسّ بدفء جسم نادين يحتويني؛ بحِضنها الكامل؛ بقطرات دافئة تتساقط على صدري.

يفتح الغطاء من عند الرأس. أشارفُ على الانهيار من المنظر؛ وجه منتفخ وسواد عريض حول العيْنَيْن يشـوّه الملامح، والماء قد جعل الجسم متورّمًا عند الوجنتين والرقبة بادئًا في التفسُّخ. ملامح الوجه تَغِيمُ حين تَسِحُّ عيْنيَّ بدموع ويتغبّش كلّ المشـهد. ثمّة بقعة غامقـة تلوح أعلى كتفـه كأنّه تلقّى ضربة عليهـا. أخاطبُ دليلي بالإنجليزية أثناء إغلاقه سَحّاب هذا الكَفَن:

"لحظة من فضلك! هل يمكن أن أرى هذا الجزء من الكتف؟"

يعيد ضبط قفّازيه الأبيضيْن بإحكـام على يديه متأكّدًا من عدم وجود أيّ جزء عارٍ من بشـرته ويفتح بحـذر. يُثَبِّت كمامته أكثر فتظهـر فقط عيْنان ناعستان وجبهة عابسة فلا أعرف هل العبوس من إشـفاق أم تبرُّم! يتركني أمد يدي وأعرّي كَتِفًا باردة لذاك النائم في الأبدية!

حين أمسح دموعـي وأركز في البقعة الغامقـة المتورّمة عند الكتف يظهر جليًا في منتهى الوضوح: وَشْـمٌ في شكل قلب داخله حرف 'R' مخترقًا بسهم كيوبيد.

"رَامْسِــسْ أبْدول مَاجِيــدْ سُولِيْ مَانْ، نُومِيــرُو دِي پاسَاپُورْتُو R00566773"

فتــح الدليل الإيطالي الذي يرافقني دفتره ثم فتح فمه، بينما بكاء نادين المكتوم وشهقاتها الفالتة تصلني في تهَدُّج يرُجّني.

للحظة تخيّلتُ كيف كانا يفعلان الشيء نفسه ويتشابهان حتّى في ارتداء الملابس وتسريحة الشَــعر. أيكون رمسيس قد قلّد منير في رسم الوَشْم؟

إذا قُــذِفَ بك إلى بحــر فجأة وَأُجْبِرْتَ علــى البقاء تحت الماء لفتــرة حرجة؛ فإنّ أوّل ما ستفعله حيــن تَقِبُّ فوق الماء هو سَحْبُ هذه الشــهقة المتحشرجة العميقة، إنها شهقة الموت والحياة في آنٍ، هل جرّبــتَ مرة أن تبقى تحت الماء لوقــت أطول من الاحتمال؟ هل عشتَ هذا الذعر الذي ينبئ بمغادرة الحياة وهذا الحمد بالعودة إليها؟

الاسم صحيــح، هو اسم أخي، لكنّ المُسَجَّــى أمامي هو منير. أعرف شــقيقي رمسيس من بين ألف شخص ولو من ظُفر خُنْصُرِهِ فقط. لقد حصل منير بشكل ما على جواز سفر رمسيس، وخرج من مصر أو من ليبيا بجواز سفر رمسيس، مستغلًا الشبه الكبير بينهما. لكنّ نَدْبَة رمسيس فوق عيْنه اليمنى التي تميّزه لا أثر لها. الشَــعر طويل ملفوف ووَشْــم حرف الـ 'R' مُختَرَق بسهم كيوپيد؛ علامتان

لانتفاء تامّ لكون المُسَجَّى في البياض أمامي هو رمسيس!

قمــتُ بكافّة الإجراءات المطلوبة لإعادتـــه إلى مصر على أنه أخـــي. أجريتُ مكالمة تليفونية وأنا في شـــبه سعـــادة ونصف غَمّ. اتّصلْـــتُ لأسأل الأهل بحذر عن رمسيس آمـــلًا أن يكون موجودًا بينهم ويردّ، فاجأتني إيزيس بخبـــر سفره منذ أسبوعيْن مؤكّدًا لهم أنه وجد عملًا مجزيًا في ليبيا، ذاكِرًا أنّ شقيق رُوحه منير سيرافقه، وأنه قد كتب لي رسالة عن عزمه على السفر شاكرًا لي ما أرسلته له من نقود!

أكملتُ إجـــراءات الاتّصال بالسفارة المصريـــة ووافقتُ على التعهّدات المطلوبة ووقّعتُ على عشرات الأوراق ودفعتُ الرسوم وانسحبتُ إلى الفندق مشارفًا على العمى والشلل.

في المساء كنتُ منهوكًا أتابع نشرات الأخبار على كلّ قناة كانت تنقل هذا الخبر المأساوي. نادين تترجم لي ما يقال من اللّغات التي تجيدها. قال صيّاد من الجزيرة في لقاء قصير معه:

"لـــم نعد نصطـــاد أسماكًا، نكاد نرفع في كلّ شـــبكة أو صِنّارة جثّة غريق، حتى الأسماك لم تعُد تَأبَهُ بطُعْمِنا الزهيد؛ فالبحر اكتظّ بوفرة من الطعام وصار مائدة بشـــرية لكـــلّ الكائنات البحرية بلا رحمة!"

قال آخر: "لقد صرنا متخصّصين في صيد الجثث لا الأسماك!"

قال ثالث: "نحن جزيرة صغيرة، عدد سكّانها لا يزيد عن خمسة آلاف فرد. كنّا نعيش على السياحة منذ سنوات، الآن ومنذ هذا الربيع العربي الملعون في 2011 نزح إلينا أكثر من خمسينَ ألفَ لاجئ. إنها كارثة! المسافة بيننا وبين تونس مائة وأربعون كيلو مترًا. كفى! أغلقوا الحدود! صَوِّبوا على كلّ قدم تقترب من حدودنا! نحن إيطاليّون ولا نريد شيئًا من أفريقيا الوَسِخة!"

قال أخير: "كعادتنا في أوروبّا ندفن رؤوسنا في الرمال. في البرلمان هناك من يطالب بزيادة الدعم المالي من الاتحاد الأوروبي لمجابهة مشكلات لامبيدوزا، لكن لمن تذهب هذه الأموال؟ والبعض الآخر يقوم بتحويل المصيبة إلى استعراضات بهلوانية ثقافية؛ ممّا جعل أهل الجزيرة يستاؤون، فكلّ من يقومون بهذه الأعمال المظهرية مرتزقة إيطاليّون ليسوا من لامبيدوزا!"

27 أغسطس 2015

أقلّ من عامين بشهر؛ بالضبط ثلاثة وعشرون شهرًا، ومينا يبحث عن خبر عن أخيه رمسيس؛ عن أتفَه معلومة أو حتى عن شائعة؛ يبحث حتى عن جثّة له مركونة في أيّ ثلّاجة أوروبية. يرى أنّ الجثّة نعمة في نهاية مطاف الشتات والترحال. هي النقطة في نهاية سطر

الحيــاة. التلاشي التامَ بلا أيّ بقايا أمر مؤسف وعبثيّ! لديه إحساس لا يريد أن يصدّقــه ولا يرغب في تجاهله؛ إحساس بأنّ رمسيس لن يستقرّ في ليبيا ولو مُنِحَ أموال قارون. رمسيس سيخترق كل الموانع لينتقــل إلى الفردوس الذي على الضفة الأخــرى، أو على "الناصية الأخرى" كما قال "يوسّا"(*).

في الوقت المبكّر نفسه الذي اعتاد أن يستيقظ فيه مينا يوميًا للذهاب للحمّام بعد أن تقرُصه مثانته المواظبة، يقوم ليفتح التليفزيون تلقائيًا متجاهــلًا البرنامج المكــرّر من ليلة الأمس، متابعًــا شريط الأخبار المتحرّك الذي يلهث أسفل الشاشة.

[شاحنة... المجر... النمسا... غير شرعية... جثث...]

تكــرّ سبحة الأخبار كالعــادة ليلتقط منها بمتابعــة بطيئة هذا الخبر. تسمّرتْ عيْناه لمتابعــة ظهور الخبر مرة أخرى. يتعجّب: لماذا تأتي الكــوارث دائمًا عند الفجر؟ لماذا دائمًـــا هذا التوقيت "الزّبالة" الذي لا توجد فيه نشــرة أخبار حيّة؟ دائمًا نشرات أخبار ميّتة تأتي بأخبار الموت! ذهب ركضًا للمطبخ لِيُشــغّل الراديــو. تذكّر أنه عطلان منذ شهور ولم يفكّر في تصليحه أو تغييره. عاد للشريط اللاهث المتحرّك الذي كان يُعلن عن الخبر المأساوي:

[العثور على شاحنة تحمل أكثــر من خمسين شخصا، عبرت المجر إلى حدود النمسا عند قرية پارندورف بطريقة غير شرعية. تركها السائق وهرب وبداخلها جثث مختنقة لم تعرف بعد جنسيات ال...].

(*) ماريو بارغاس يوسا، Mario Vargas Llosa كاتب بيروفي (من البيرو) حصل على جائزة نوبل في 2010، له رواية بعنوان "الفردوس على الناصية الأخرى"

خبر في منتهى القسوة يبعث أملًا موجعًا لا يفارق مينا ولن يفارقه أبدًا: أن يعثر على رمسيس؛ على جثته وفي أسوأ الأحوال على رفاته. اتّصل بصديقه "ارمين" الذي يعمل في هيئة الإذاعة النمساوية. لم يقلقه، لأنه يستيقظ يوميًا في الثالثة والنصف فجرًا ثم يستقل دراجته ليذهب إلى الاستوديو. قبل أن يسرد مينا عليه موجز الخبر، زوّده ارمين بكل البيانات والتفاصيل المتاحة لديه.

"ارمين، أريد أن أذهب إلى مكان الكارثة فورًا! هل يمكنك مساعدتي؟"

"... .. .."

"سأقول إنني مترجم، ربما ضمن الضحايا أحد من العرب. ألا تسمعني؟"

"مينا، يمكنني أن أترك عملي بعد ساعة ونصف. قبل ذلك مستحيل! سآخذ سيارة "ماريا"! هي في إجازة هذه الأيام لحسن الحظ ولا تحتاجها."

"عظيم. أين سنلتقي؟"

"هل يمكنك أن تأتي إلى "الجازوميتر"(*)؟"

"طبعًا طبعًا!"

(*) جازوميتر Gasometer هو حاوية الغاز في فيينا التي أُنشئت قبل أكثر من قرن وأعيد تجديدها في بداية القرن لتكون مركزًا سكنيًا وترفيهيًا ومَعلمًا شهيرًا من معالم فيينا

"إذًا نلتقي هناك في تمام السادسة!"

أغلق مينا الهاتف فورًا، خوفًا من أيّ تغيير في كلام أرمين. ذهب للحمام وَطَسَّ وجهه بالماء لعدّة مرات ولوقت أطول من المعتاد، فبدا للحظة كمن يَلْطِمُ وجهه ويَنْدِبُ متواريًا بغَسْلِهِ. كان يفكر بشعور متناقض في أخيه المفقود، يتمنى أن يجده ولو جثة ولا يتمنى في آن؛ فالجثة نعمة. نعم! في مثل هذه الأحوال يصبح هذا الرُّفاتُ نعمة أفضل من التلاشي بلا أثر!

التقيا عند الجازوميتر كما اتفقا. قال أرمين إنّ الطريق ليس طويلًا إلى مكان الكارثة، أقلّ من خمسين كيلومترًا، ثم بدأ يسرد عليه بعض تفاصيل الحادث من منبع الأخبار وفقًا لوظيفته:

"عثروا على العربة وهي شاحنة مُبَرَّدة لنقل الدجاج عند قرية "بارْندورف" الواقعة في مثلث الحدود بين المجر والنمسا وسلوفاكيا، مكدّس بها واحد وسبعون جثة للاجئين (تسعة وخمسون رجلًا، ثماني نساء، أربعة أطفال)، ومن الواضح أنها دخلت بالأمس عبر الحدود وتُرِكَتْ هناك على الطريق السريع، وقد تَفَسَّخَتْ الجثث حسب تصريحات الأطبّاء الشرعيّين بعد أن اختنقتْ."

لم أنطق، كنتُ أستمع وأنظر ساهمًا وذهني قد ذهب إلى رواية غسّان كنفاني (رجال في الشمس). برزتْ لذهني قصيدة ربّما هي لطَرَفَة بنِ العَبْد؛ قصيدة مدرسية قديمة، وجدتني أهمس وأعزي نفسي بآخر شطر منها:

"ما أشبه الليلةَ بالبارحةِ! ما أشبه الليلةَ بالبارحةِ!"

تابع أرمين سرد الحادثة بصوته الذي أعرفه، فخُيِّلَ لي أنّني أستمع إليه في الراديو.

"درجة الحرارة كانت قد تعدّت 35 درجة مئوية، والمساحة المتاحة داخل الشاحنة لم تكن أكثر من ثلاثة عشر مترًا مربعًا، ولك أن تتخيّل ما فعله الخمسون محشورين في هذه المساحة الضيّقة داخل هذا الجحيم! وقد حاول هؤلاء المنكوبين عبثًا فتحها من الداخل كما بيّنت آثار خدوش الأظافر ولم يكن هناك من مقصّات بائسة وأقلام وعُملات معدنية. لكن الشاحنة الثلاجة كانت زنزانة مُحكمة الإغلاق."

وصلا إلى القرية في وقت قصير نسبيًا. نزل أرمين وقال له: "انتظرني دقيقة!" عاد بعد بضع دقائق تمدّدت لمينا مثل دهر ثقيل وقال له: "للأسف فقد أتوا بمترجمين معهم وهم الآن بصدد الفحص الدقيق."

أراد مينا أن يكون فقط قريبًا منهم. يعاين الجثث من بعيد ربّما يرى وجهًا يعرفه. وبينما هو غارق في أفكاره المغمومة بادره أرمين: "ادخل السيارة والبس هذه بسرعة!" قالها ووقف وظهره على زجاج السيارة ليخفيه وهو يرتديها. نزل مينا من السيّارة وهو يرتدي زيًّا برتقاليًا بخطّين فضّيّين يلمعان أمام أقلّ انعكاس ضوئي في الظلام. سلّمه قفّازين سميكين. فبدا مينا مثل عمّال الإنقاذ والمساعدين، فقط حذاؤه الرياضي بدا غريبًا ضمن هـذا الزيّ، لكنّ العصبية والأوامر لم تدع وقتًا أو تفكيرًا في تفاصيل المنهمكين في الإنقاذ والمساعدة، فعيون رجال الشرطة ورجال البحث الجنائي موجّهة نحو الموت المتدفّق من الشاحنة!

لم تكن سحنة مينا المختلفة ملفتة للنّظر، فكثير ممّن يعملون كرجال نظافة في السنوات الأخيرة قد أصبحوا من جنسيّات مختلفة ومن

كافّة الأشكــال والألوان، والمُلفت للنّظر أنّ هــذه الوظائف الخدمية -كالتنظيــف والحراسة وبيع الجرائد وتوزيــع الإعلانات المطبوعة وأكشــاك بيع الشــاورمة وأبي فروة والبطاطــس المحمّرة- لا تثير حفيظة النّمساويّين ضدّ الأجانب في الأيام العادية، فقط في أيام الحشد للانتخابات يصبحون في عيْن زعمــاء التّيارات المحافظة واليمينية المتطرّفة أنسب موضــوع لاستمالة التّابعين أو أفضل إعلان مجّاني لإثارة استيائهم!

حشر مينا "الكاب" البرتقالي في رأسه، فاكتملتْ هيئته كرجل نظافة شبــه رسمي أو رجل زبالة، لا يهم، المهمّ أن يكون قريبًا. ولو سَهَوْا عنه لسَرَح ينبش في الجثث مثل معتوه.

لحسن الحظّ وجّه له أحد المسؤولين أمرًا بأن يقترب ويزيح صندوقًا ضخمًا مع زميل. أعطاه كمامة بلاستيكية وكأنّه نظر باستغراب لحذائه الرياضي لكنّه صَمَتَ؛ فالموقف طارئ ولا يحتاج لإبداء ملاحظات أو أيّ انتقادات معطّلة.

كان هناك من يصوّر من عــدّة زوايا ومسافات بكاميرا كبيرة الحجم تبــدو عتيقة من فتــرة الأربعينيّات. كان يصوِّر مــا تبقّى من الجثث التي لــم تُنقَل، حين اقترب منها بدت مُهانة مُهْمَلة مُتَفسِّخة مَرْدُومة ومَحْشــورة في عُلبة سردين ضخمة بأسماك كبيــرة الحجم. هنا يد متورّمــة بكَدَمات غامقــة، وهناك يد بأساور وأظافــر مطلية حديثًا وبينهما قبضة رقيقة لرضيع تثير الوجع.

مينا كان طوال الوقت أكثر المقتربين من العربة وأكثرهم مطًّا لرأسه داخلها، كان يَنبش بعينيه باحثًا عن شخص بعينه، لا يتمنّى أن يجده هنا ويتمنّى أن يعثر على نعمة جثّته أو فضل رُفاتِه لو قُضِيَ الأمر.

نقلوا الجثث منفردة في أكياس بلاستيكية سميكة، معلّقين في أصابع الأقدام أرقامًــا ورموزًا كالعادة. حاولوا الاحتفاظ بكلّ صغيرة وكبيرة

تتعلّق بالجثـــث، بينما وقف موظّف يسجّل الأرقام والبيانات لكلّ جثّة في خـــط غليظ على بطاقـــة يعلّقها في الكيـــس البلاستيكي السميك ويسجّـــل بقلمٍ خاص رقمًا عليها في دفتره. كان يكتب تفصيلًا موجزًا لموضـــع الجثّة وأرقام الجثث الأخرى القريبة منها وموقعها بالضبط داخل شاحنة الدجـــاج، ويحتفظ بالهُويّات وجوازات السفر والأوراق والوثائـــق التي يجدها، كل واحدة بمفردهـــا في كيس بلاستيك عليه رَقم؛ رَقم عارٍ مشـــؤوم هو ما تبقّى بعد كلّ هذا العمر وكلّ هذا السفر المُهين المُميت.

ظلّ مينا نشـــطًا كبرغـــوث، مبالغًا في الانتقـــال والمساعدة. محاولًا أن يتغاضـــى عن جثث النساء والأطفـــال والمسنّين وسط هذه الكتل الهلامية التي يفكّونها من تعشّـــقها الموجع ببعضها. هدفه كان جثّة شابّ في العشرينات على جبهته نَدْبَة قديمة فوق عيْنه اليمنى تظهره فـــي وسامة محارب جَسور من العصور الوسطى، رغم أنّ الإصابات في العادة تُظهر تشويهًا. ربّما كان مينا هو الوحيد الذي يراها علامة وسامـــة أو فَروسية فـــي أخيه. يتذكّر أنهم كانوا فـــي سنّ الخامسة عشـــرة يتبارون بالقفز من سطح طابق أوّل تحت التشييد في أسفله كومـــة عالية من الرمـــل. رآهم رمسيس الصغيـــر فقلّدهم في حَماة طفولية ساذجة. لم تسعفه قوّته بالقفز ليصل إلى الرمل، فَهوَى على ألواح خشب شجّت جبهته.

لم يصل مينا لجثّة، ولم يعد حتى بِخُفّيْ حُنَيْن!

في اليوم التالي نشرت جريدة يومية صورة جثّة متحلّلة تحت عنوان (صورة العار)؛ فتلقّتْ العديد من الانتقادات لانتهاك الميثاق الصحفي. أرادت أن تُظهـــر حجم المأساة لما يحدث. يقـــال إنه جانَبَها التوفيق لكـــن اتجاه هذه الجريـــدة يؤكّد أنها تعمّدَتْ. لم يكـــن مينا يعرف أنّ الشاحنة نُقِلَتْ إلى وحدة الطبّ البيطري في "نيكلس دورف" من أجل الفحص!

لم يرتَح بعـد أن حُدِّدَت هُوِيّات سبعين من أصل واحد وسبعين جثّة، وشمِل ذلك تسعًا وعشـرين عراقيًا وواحدًا وعشرين أفغانيًّا وخمسة عشر سوريًا وخمسة إيرانيّين. نُقِلَت جثث معظم الضحايا إلى بلدانهم الأصلية ودُفِنَ خمسة عشـر شخصًا في النّمسا؛ فأصبح من الواضح أنّ هناك شخصًا وحيدًا لم تُعْرَف هُوِيَّتُهُ!

اقترحَـت الهيئة الرسمية للجالية الإسلامية دفن الضحايا المُشْـتَبَه فـي كونهم مسلمين في المقابر الإسلامية في فيينّا، أمّا من لم تُعْرَف هُوِيَّـتُهُم فقد أُحِيلُوا لمقبرة پارندورف.

شخص وحيد لم يتمّ التعرّف على جثّته! أيكون هو رمسيس؟

هلِ سيتعذّب هكذا لسنـوات قادمة حتى يتوصّل يومًا ما لنعمة وجود جثّة؟

سـؤالان بقيا دون إجابة ليُعَفِّراهُ للأبـد بمزيج لا يفارقه من المرارة والحُرْقـة والكآبة والأسَى والوجع والبؤس والنَّكد والغضب والسُّخط وكلّ التعاسة!

خـــبر

الصّندوق الأبيض

كلّ منّا له صندوقه الأبيــض الذي يسجِّل فيه تاريخه المُعلَن؛ مواقفــه الذكية ونجاحاته، انتصاراته وصعــوده، فِطنَته ونباهته ولذّاتــه البهية ونزعاتـــه البريئة الظاهــرة وانسجامه ومحاسنه ومآثره.

كلّ منّـــا يرغب من حين لآخر في استعادة جزء مسجَّل داخل صندوقه الأبيض، جزء يعزّز لذّاته النفسية المُعلَنة، ويرغب في آنٍ في إضافة مُحَسِّنات ليست منه أو له.

الصندوق الأبيض صندوق يمكن التحكُّم فيه من خلال حكاياته المرنة المتراصّة المترابطة بزَهْو. يمكن محو ورتق وتبديل وإظهار وإخفاء كلّ مرفوض أو مُشـــتَهَى، فعِصمة الإظهار والإخفاء جزء منها بيد صاحب الذكريات وجزء بيد قَدَرية لا سلطان له عليها.

سعيد الحظ هو من يتمكّن من حفظ كلّ ذكرياته الجميلة في الصندوق للأبد، بتطعيمها بالبَهي وبالتباهي بها وبما حَبَتْهُ به الحياة!

لكلّ صندوقه الأبيض الظاهر المُتألِّق، صاحب الصندوق هو فقط من يستطيع استحضاره، أمّا ما حكاه للآخرين أو ما اعترَفَ به أو ما عرفوه صدفةً عن سهو منه أو عن عمد؛ فهو حتمًا من الصندوق الأبيض، فما يخرُج من الصندوق الأبيض يصير إلى صناديق أخرى لها كلّ الألوان الشفّافة إلّا الأسود!

22

"أنا فيل!" قلتُها لنادين

"وأنا أعشق الأفيال!" شَدَّدَتْ على كلمة "أعشق" وهي تضحك وأكملَتْ:

"ولا تنسَ، أنا ديناصورتك الأثيرة!"

مع نادين بدأتُ فعلًا أشعر بأنّني مثل فيل أنعَمَتْ عليه الطبيعة. أحِسّ بأنّني أتواصل معها بموجات عالية تحت صوتية. أستشعر وجودها في مجال واسع، ربّما مائة متر أو ألف أو ما يزيد. حين تدنو من مداري، أظلّ أتلفّتُ حولي متوقّعًا ظهورها في كلّ لحظة، وبالفعل تبزُغ في الأفق بعد زمن يقصُر أو يطول. هي هِبَة ربّانية أو شيطانية أو مزيج منهما معًا حُبِيتُ بها.

تستطيع نادين أن تحتويني بصورة لا مثيل لها؛ بحِضن أمومي لا يُبـــارى يُهَدْهِدُني ويُحوّلني لطفل أليـــف، وبمجرّد أن ترسل لي ذبذبـــات أمومتها، أتصرّف بحسّ بريء غريـــزي، ثم بإمكانها أن تحوّل هذا الاحتضان إلى حِضن مثير يهيّج مشاعري في اتّجاه غير بريء؛ مثير بشـــفافية، وشـــهواني بعذوبة، وهي لا تتصرّف بهذه الطريقة اعتباطًا وإنّما تدرك بحساسيّتها حالتي وحاجتي.

ظللنـــا طوال سنوات نسيـــر معًا متوازييـــن كقضيبي قطار لا يبتعدان. في البدايات كنتُ أخشـــى الاقتراب الأرعن حتى لا يجْنَح قطارنـــا الهادئ عن مسيرته. وأُجْزِم إنها كانت مثلي حريصة على مسافة الأمان والاطمئنان التي بيننا، فعشنا معًا زمنًا لا يجوز قياسه بالشـــهور ولا بالسنوات، بل بلحظات السعـــادة والانسجام التي لا تُنسى. ربّما بُعد المسافة بيني وبين شُـــهْدَة حاليًا قد رمّم شـــيئًا من الشـــرخ القديم، فصرتُ أتذكّر محاسن محبّتي لها وأيضًا كلّ لحظة هنية لن تُنسى معها، لكنّي لـــم أعُد أتوقّع من الزمن جَبْر ما كُسِرَ. تلك المحاسن هي مجرّد حنين جميل لا أغرق فيه بالوجع.

نادين مرّت بتجربة حياتية قاسية، نتائجها تشـــبه نتائج مينا وأوّلها الافتـــراق عن الحبيب ومقامه. اختلفا فـــي مكان الابتعاد، هي عادت لوطنهـــا وهو نأى عن وطنه، كمـــا اختلفا في تذكّر محاسن محبّة كلّ منهما لحبيبه. هـــي أصابها حنين موجع لم تتخلّص منه تمامًا، وهو

ما زال على عهده في الذكرى الطيّبة الممزوجة بقليل من الأسى، لكنّ الزمن كفيل بأن يَجْبُرَ ما كُسِرَ فيها.

نشــأتْ في عائلة كبيــرة العدد، ثمانية إخوة وأخــوات، لولا نباهتها وهِمّتها لأرهقها التعليم بسبب صعوبة مواظبتها على الدراسة مثلما حدث مع كلّ أخواتها وإخوانها الثمانية، لكن لحسن حظّها أنّ قوانين البلاد تَفرِض الاستمرار في تعليم إلزامي لتسع سنوات. أكمل إخوتها الفترة النظامية الإلزامية بمنتهــى المعاناة، وبلا مواظبة، وبرسوب متكــرّر وإهمال شديد في الملبس والمظهــر والصحة والنظافة، مع إجبارهم علــى أشغال مرهِقة داخل المنــزل وخارجه. أكمل الثمانية الفترة الإلزاميــة بعُسر وكراهية، خرجوا منهــا بالكاد قادرين على جمع مــا تيَسّر من القــراءة والحساب. حَظْرُ القــراءة داخل البيت كان "فَرَمانًا" لا يتغيّر، أما المشــاركة في أيّ نشــاطات ترفيهية بعد المدرســة فكانت بديهيًا من المُحرَّمات. كــان الأبوان متجذّريْن على قناعة راسخة متزمّتة بأنّ التعليم شيطان يُفسِد العقول.

ميولهــا الفنّية بانت منــذ الصغر؛ صوت شجــي وحساسية مرهَفة للموسيقى وموهبة فطرية في الرسم، لكن سرعان ما وُئدَتْ مواهبها المتعدّدة ونبوغها الملحوظ. تحسّر عليها كلّ معلّميها وكلّ من اكتشف فيها نبوغًا مُهدَرًا. تعرّضتْ مرارًا للتوبيخ والضرب من الوالدين بعد أن اكتشــفاها متلبّســة بالرسم أو الغنــاء أو أيّ لهو طفولي بريء.

لن تنسى عقابها البدني والنفسي المُبالَغ فيه من أبيها وهي في الخامسة حين اكتشفتْ مُتعة "البَلْبَطة" بقدميها في بركة خلّفها المطر في حَوْش البيت، وأكملتْ أمّها التقريع وهي تخلع عنها ملابسها المبتلّة بِلَوْم وَتَبْكيت، كأنّها أفسدتْ فستان فرح الدنيا. لمّا اكتشفوا في المدرسة الرضوض الزرقاء والكَدَمات التي باح بها جسمها لكلّ عين، كان على ناديـن أن تختلق سببًا مقبولًا مثل وقوعها من على سلّم البيت أو ارتطامها بحائط أثناء لعبها وركضها.

ادركتْ في وقت مبكّر أن عليها أن تنجز أعلى الدرجات حتى تحتفظ بأدنى موافقة من والديها على انتظامها في المدرسة. تَعِبَ المعلّمون والمعلّمات تباعًا في إقناع والديها بضرورة مواظبتها على الدراسة، دون جدوى. الحلول لم تكن يسيرة والقرية نائية لا يصلها أيّ مَدَد اجتماعي أو نفسي صادق لحماية هؤلاء الأسرى الصغار. أخوتها كانوا يغيرون منها لتفوّقها وموهبتها وثناء معلّميها الدائم رغم اضطرارها للغياب المتكرّر. كانت تعمل مثل أخواتها في البيت وخارجه في تلك الأشغال الشاقّة التي لا تنقطع، لكنّها وجدتْ بَصيصًا من نور وتعويضًا رُوحيًّا من خلال القراءة والولع بالفنّ، بَثّه فيها شقيق جدّها لأمّها "توربي" الحنون؛ الذي كانت تناديه دائمًا باسم "أوبا توربي"(*)!

(*) تعني Opa أو Opi: (جدُو) في الدارجة الألمانية، ومعناها Großvater، التي تعني (الجَدّ). وتحوّلتْ إلى كلمة Großpapa في القرن التاسع عشر

استطاعت أن تحوز شهادة الثانوية العليا بتفوّق مبهر. حاولت بعدها إقناع والديها بأن تنتقل لڤيينا وأن تتقدّم للجامعة، لكنّ رفضهما التامّ لم يكن صادمًا ولا مفاجئًا. كان لديهما فكرة عبقرية حمقاء بأن يساعداها في فتح دكّان صغير للخردوات في القرية لتبدأ به حياتها. لم يكن أمامها إلا خياران: إمّا الانصياع لمشيئتهما أو التمرّد. اختارت الأخير بالطبع، تقول:

"ليس هناك في الحياة أصعب من أن تصطفي دربًا يُرمِّم رُوحك، لكنّه في الوقت نفسه يكسر قلبك!"

شقيق جدّها لأمّها توربي. حاول مرات أن يؤازرها فيما تسعى إليه، لكن باءتْ محاولاته بالفشل، بقيتْ منها فقط شعلة مفرحة في قلب نادين ساعدتها على التمسّك بطموحها.

هربتْ من البيت وجاءت إلى ڤيينّا كنازحة داخليًا بسبعة عشر ربيعًا وحقيبة وحيدة فيها شذرات من عمرها وذكرياتها الشحيحة، وغُصّة فادحة. ساعدتها سرًّا مُدرّسة الموسيقي بمدرستها في القرية. أوصتْ عليها شقيقتها التي تقيم بالعاصمة. استطاعت نادين أن تحصل فيما بعد على منحة دراسية وتمكّنتْ بعد ثلاثة أشهر من الانتقال إلى بيت الطالبات، ثم صارت تعمل بجانب الدراسة كنادلة في العديد من المطاعم والمقاهي التي ترحّب بالعمل الجزئي بشكل غير ثابت، أو بالعمل المُستَتِر في صورة ما يسمّونه (شُغل اسوَد)؛ أيّ عمل

بلا تسجيل رسمي ولا تأمينات ولا أيّ حقوق للعامل. أسعدها أن يكون لها في تلك المدينة الواسعة قريب وحيد هو توربي، الذي يحبّها حقًّا ويتمنّـــى لها الخير. تزوره بلا انتظام، لكنّها لا تنسى أبدًا عيد ميلاده مهما كانت الأحوال.

قُبِلَتْ بالجامعة لدراسة علوم اللغة الإنجليزية الأمريكية، إضافة لعلوم اللغــة الألمانية، وأثبتتْ فيها نَجابة سريعــة كالعادة. تعرّفتْ في تلك الفتــرة على شخص غريب الأطوار مثــل غرابة أطوار حياتها اسمه "ياكــوب"، تُميّزه لِحيَة طويلة كَثّــة ومختلفة عن أيّ لِحًى تعرفها. لا تدري ما الذي ساقهــا للاهتمام به، فهو مختلف عن كلّ الزملاء من حولها، له سلــوك مهذّب وطباع خجولة، شديد الانطواء وفيه شيء خَفي يُشبه التزمُّت. لا تدري تمامًا ما حدث، تقول:

"أردتُ أن أجْبُــر شرخ قلبي بحبّ، ولم أكن أدري أنّني أصيبه بكَسْر مُضاعَف!"

ربّمــا أحبّته لأنّ فيه ملامح من حياة تركتهــا خلفها ولم تتركها، أو ربّمــا لأنّ ملامح من محاسن قريتهــا توسّمتها فيه. لا تدري السبب الحقيقي ولا ترهق نفسها بالبحث عنه. انْجَذَبَتْ له في تجربة تخالف شخصيّتهــا وعقلانيّتها المعتادة، ربّمــا أرادت من خلال تلك العلاقة شيئًا ونقيضه: أن تنأى من خلال ياكوب عن ذكرياتها العائلية الأليمة وأن تتدانـــى أيضًا من خلاله نحو ذكريــات قريتها السارّة. فكّرتْ في

خَلْق عائلــة جديدة مختلفة صغيرة مترابطــة متآلفة تمسح بها آلام الماضي.

معًا أنهيا الدراسة، فسافــرَتْ معه إلى موطِنه؛ إلى منطقة قريبة من "لانكِسْتَر" في ولاية "بِنْسِلْفانيا" بأميركا، منطقة زراعية شاسعة حيث تعيش عائلته. كان قد حدّثها مِرارًا عن نشــأته وعادات وتقاليد أهله وعــن هذا الترابط المجتمعي الفريد. أحسّتْ أنّ جنّة بانتظارها هناك، فانساقتْ معه في تلك الطريق.

ياكــوب ينتمي لأسرة أصولها من منطقة الألزاس السويسرية، لجأتْ إلى لانْكِسْتَر في أوائل القرن الثامن عشر هربًا من الاضطهاد الديني فــي أوروبّا آنذاك وبسبب إعدام الكثير منهم ووَصْمهم بالكُفر. كوّنوا هنــاك مستوطنات تعيش فــي عزلة وفق قوانيــن وأعراف خاصّة بهم. لديهم ما يشــبه مجلس الشورى أو الفتوى طبقًا لتعاليم إنجيلية يعتبرونها "الأحكام الإلهيــة الأصلية". ياكوب كان يتكلّم بلغة قريبة جدًّا من الألمانية، وهي اللّغة التي يتكلّمون بها وَيَتْلُونَ بها صلواتهم، رغم انعزالهــم عن المجتمع الحديث من حولهــم. ربّما هذا ما جعل نادين تبحث عن ماضيهــا عبر أصول غائرة في التاريخ وبعيدة عن مكانها، لكن قريبة منها في آنٍ.

حين وصلتْ نادين إلــى لانْكِسْتَر، عاشت كواحدة ضمن الأسرة دون اختــلاء بياكوب. لم يكن قبولها أمرًا يسيرًا داخل هذا المجتمع الجامد

المُنغَلِــق على نفسه. كـــان عليها أن تستبدل أسلوب حيـــاة مُستَجَدّ بأسلــوب حياة قديم. على الرغــم من أنها عرفتْ مـــن ياكوب أكثر مـــن هذا قبل قدومها، لكن ليس مـــن رأى كَمن سمِع، والتجريب في نهاية المطــاف إمّا أن يكون تهذيبًا أو تعذيبًا. نظريًّا كانت قد تفهّمتْ ما سمِعَتْه منه لكن عمليًا استغربتْ تمامًا من عدم استعمالهم للكهرباء ورفض قيادة السيّارات واستخدام العربات التي تجرّها الأحصنة بدلًا منها، واندهشَتْ من رفض استعمال النقود.

في مكان بعيد من رُوحها ظنّتْ أنّها ربّما تنتمي لجذور هذه العِيشَـــةِ تاريخيًا وليس ذهنيًا، هناك ما يُشـــابه سلـــوك أهلها، وأوّلها أنهم لا يؤمنون بإلحاق أطفالهم بالمدارس.

اضطــرتْ نادين في لانكِستَر إلى ارتـــداء زِيٍّ محافظ فَضْفَاض طويل الأكمـــام لا يَشِـــفّ، ووضعتْ حجابًا أبيض علـــى رأسها لكونها غير متزوّجة؛ فالمتزوّجات يرتدينه أسود، وعرفتْ سرّ طول لِحيَة ياكوب التي خمّنـــتْ -قديمًا خطأً- أنها اختيار شخصـــي حُرّ أثناء إقامته في فيينّا، لكنّهـــا أدركتْ الآن إنها كانت من التعاليم المُتّبَعة لديهم بإعفاء اللِّحيَة وحَفّ الشـــارب؛ ففي عرفهم واعتقادهم أنّ الشارب تعبير عن شكل ونمط عسكري، وهو مكروه لديهم. فُوجِئتْ أنّ الموسيقى مُحَرَّمة والتصوير محظور، يَمحون وجوه الدُّمَى التي يلعب بها أطفالهم وفقًا لسِفرِ الخروج الذي ينُصّ على تحريم التماثيل والتصاوير:

(لا تَصْنَعْ لَــكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فــي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلا تَعْبُدْهُنَّ؛ لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ.)

اكتشــفتْ نادين أنه لا يمكنها امتلاك هاتــف أو حتى استعماله، وأنّ من يخالف تعاليمهــم يحقّ عليه ما يمكن تسميته بالتكفير والتفسيق والتبديــع، ثم الهَجْر. يرفضون الضمانــات الاجتماعية لإيمانهم بأنّ أمور الحياة كلّها قضاءٌ وقَدَر. لا يشــربون الكحوليّات ويرفضون أيّ معاشرة جنسية قبل الزواج، ولا يسمحون للنّساء بقيادة العربات ذات الأحصنة بمفردهنّ إلّا في حالات نادرة تشــترط وجود نساء أخريات أو بالغين معهنّ، ولا يستعملون الكهرباء، وعِوضًا عنها يستخدمون مصابيح الكيروسيــن، ووفق تعاليمهم لا يسمحون بتصويرهم، وفي الكنيسة يُفَــرَّقُ بين الرجال والنساء، كذلــك ممنوع تدريس التربية الجنسية أو تّدريس المواد العلميــة أو الجيولوجية، وتحديدًا نظرية التطوّر، فضلًا عن ذلك فالمرأة لا تغادر بيتها دون غطاء رأس.

قضتْ نادين ثلاثة عشر شهرًا في لانْكِسْتَر، أعجبها في بداية وصولها الترابــط العجيب والقوي لهذه الطائفة، التــي أرادت أن تستمد منها طاقــة قديمة تعينهــا على ما يستجد، لكنّها وجــدتْ أنّ الدنيا تضيق

بهـا في هذا المكان أكثر ممّا تصـوَّرتْ، وأنّ طاقتها تُهْدَرُ، وهذا ما لـم تكن تتخيّله أبدًا من هذه الحيـاة الجديدة. صارت حياتها مُبَرْمَجة بصرامة في دَور ثابت معروف سلفًا، وإنّ ما كان محظورًا عليها في بيت طفولتها بشكل عشوائي يتكرّر هنا تدريجيًا بشكل مُمَنْهَج وأكثر تَعَنُّتًا.

"يا شجرتي، يا شجرة الحُوْرِ البيضاء، لا تَنسيني!"

كلّمـا أثقل عليها الزمن والاغتراب، كانت تـردّد تلك الجملة. حَلُمَتْ بالشـجرة ألف مرة. هذه الشجرة مثّلتْ لها رُوح محلّ ميلادها وحبلًا سُرِّيًّـا يربِطها بالوطـن، فرغم استبداد وجَوْر والدهـا؛ إلا أنه ترك حَسَنــة وحيـدة خلّف بها ذكرى رحيمة دون أن يـدري، ذكرى يلوذ بها أصحاب الرُوح الشـفيفة مثـل نادين؛ ففي يوم مولد كلّ طفل من أطفاله، كـان يزرع شجرة حُور بيضاء في الغابـة القريبة من بيته الريفـي المتواضع. يسمّيها باسم الطفـل، ويرعاها أكثر من رعايته لأولاده، ويُعرِّف كلّ طفل بشـجرته ليرعاها فيما بَعْدُ بنفسه. تسامقتْ تلك الشـجرات الفاتنة لأكثر من عشرين مترًا في الغابة بشكل مُلفِت. القرية كانِ اسمها "قرية الحُور" Birkendorf. احترَم الناس شَطَحاته التي رأوها صنيعًا جميلًا، ولم يَخطِبْ أحد واحدة من حُوره.

فرح الإخوة والأخوات بالشيء الوحيد الذي امتلكوه افتراضيًّا. نادين كانت علاقتها بشـجرتها أكثر حسّيـة، كانت تذهب عندها لتحكي لها

نجاحاتها وأفراحها أو لتشـكو لها آلامها. عَشِـقَتْ لِحاءَها الأبيض الأملـس المائل للخضار في أجـزاء، أو للأبيض الرمادي في أجزاء أخـرى. شَغِفَتْ ببُقَعِه الداكنة التي كانت تراها حروفًا سَتَتَكَشَّـفُ لها بأسرار في المستقبل. أوّل ما رسمتْ في حياتها كانت شجرة الحُور، وآخـر ما رسمتْ قبل سفرهـا كانت شجرة الحُـور ببُقَعها المُلْهِمة. تراها، فترى سيرة حياتها تخُطُّها شجرتها على لِحائها.

قرّرتْ الرجوع إلـى فيينّا، وهي في قراراتها صارمة، خصوصًا أنها كانت قد بدأَتْ تشـعر بتكرار آلام قديمة ونزيف وخَسارة سريعة في الـوزن ونَوْبات حُمّى متكرّرة. كانت تُحيل ذلك في كلّ مرة إلى تغيير المكان واضطراب النفس.

أوّل ما فعلتْه حين عادت إلى فيينّا، أنها كشفتْ عند طبيب متخصّص؛ فوجدهـا تعاني من مرض تأخّرتْ في الكشـف عنـه. النتيجة كانت استئصال الرحِم.

ناديـن متصالحة مع نفسهـا وفي حياتها، مـرّت بتجربة تَعِسة في طفولتهـا وصباها، ولا تستطيع بعد أن تمرّدتْ في أوّل طريق شبابها وبدايات قَهرِها أن تخضع الآن أو تَتَبَرَّم، فهي تكره الشَّجَبَ المظهري والرثاء المجّاني.

أثنـاء العلاج خَفَّ شَعـر نادين تدريجيًا، ثم قَلَّ، ثـم غاب. لم يهمّها

أن تسير في الشـــارع بلا شَعر، وصدق قول شُهـــدَة عن عينَيْ مينا (فيهمـــا طيبة أصيلة وعذوبة نبيلة لا تغيب). كانـــت عيناه مُطَيِّبَتَيْن لهـــا مُبَلسِمَتَيْن؛ عينان تعالجان رُوحهـــا. تريان جوهرها، فاستغنتْ بصـــدق بصره عن كلّ عيون الطريـــق، بل عن كلّ عيون العالم؛ عن كلّ تلك النظرات الحادّة والوقحة والمُستَغرِبة والفضولية والمتسائلة والمُشـــمئزّة والبذيئة والمذعورة. بمجرّد أن ترى مينا وَتَلْثُم بعيْنيها بسمته، تستشعر حِضن رُوحه. كان يعيد إليها كلّ ما فقَدَتْه في يومها المُضْني وَسْطَ خَلْقٍ مِلْءُ عيونهم نار لا ترحم.

ستضطـــرّ نادين مـــع الوقت أن تغطّي رأسها بكثير من الإيشـــاربات والطاقيّات وغيرها من أغطيـــة الرأس؛ فقط لتخفيف لَسَعات العيون الوقحة.

في صندوق مينا حكاية رمادية منقوصة التفاصيل بعد وصول شُهْدَة إلى فيينّا، عن تحقيقه لرغبتها بأن يرافقها إلى أوبرا فيينّا لتشاهد معه باليه بحيرة البجع لفرقة "البلْشـــوي" الروسية في عرض "ماتينيه" حـــيّ؛ وعن دعوتـــه لها بعد العرض لتناول ألـــذّ آيس كريم في محلّ "تيشـــي"(*)؛ وعن إهدائه لها دُميـــة ثمينة ونادرة من البورسلين في

(*) محل Tichy تيشي أو تيخي، يُعدّ أشهر محلّ للآيس كريم في النّمسا، يُسمّى على اسْمَي مالكَيْه الزوجين كورت ومازيانّه تيشي أو تيخي، مقرّه في الحيّ العاشر منذ عام 1955

شكل عروس ذات شَعر أسود طويل؛ وعن هديته المفاجِئة: لوحة لها رسَمها في فيينّا من الذاكرة تظهَر فيها واقفة بشـعرٍ مُنسَدِل يغطّيها حتى قدميْها ويُخفي خلفه شخصًا آخر!

شُهْدَة شخصية مميّزة، ولم ينبهر بها مينا من فراغ، بل لجملة أشياء جعلتهــا تتربّع ذات يوم على عرش قلبه بلا منازع، منها تلك المنحة التي وُهِبَتْ لها؛ فقد حَبَتْها الآلِهة والشـيّاطين بتاج في هالة سوداء فاتنــة: شَعرها. لا تبالغ فــي الاهتمام به، ومع ذلـك يفيض سحرًا وإغراءً، لو تركته حرًّا فهــو فتّان، لو عَقَصَتْهُ فهو مُبْهِر، ولو لَمّتْهُ كيفما اتُّفِقَ فهو أفتَن، لو ظهر منكوشًا مُبَعْزَقًا من أثر نوم فهو مُغْوٍ. لا تنكــر غِبْطتها بكلّ العيون السارحة علــى بهائها، لكنّ عينَيْ مينا على شَعرها لهما امتِداح مُتَفَرّد يرفع على هامتها تاج ملكة.
ناديــن ستتعرّف أخيرًا على شُهْــدَة، وسترى شخصية استثنائية كما حكى عنها مينا مــرات، وسترى شُهْدَة في نادين شخصية فَذّة تمامًا كما حَكَى ووَصَفَ مينــا عنها. العلاقة المُتميّزة السريعة التي جمعَتْ الثلاثــة معًا صنعها مينا بغير قصد. لم يكن يعلم أنّ فضول كلّ منهما للتّعرّف على الأخرى سوف يسير في اتّجاه لم يكن في الحسبان!

عمل نادين كمحرّرة أدبية لدى إحدى أكبر دُور النشر في النّمسا جعل

لهـــا اسمًا مرموقًا ووضعًا ماديًّا مريحًـــا، كان أغلب ما تكسبه يذهب لأخواتها وعائلتهـــا. والدها الذي أُصِيبَ بالصّمم وصار أكثر عصبية وكرهًـــا لمن حوله، والـــذي قَبِلَ بكلّ ما يصله مـــن ابنته من أموال؛ رفـــض أن يَصْفَحَ عن خروجها عن طَوْعِهِ ذات يوم عند هروبها إلى فيينّا، وستظلّ نَدْبَة وجع لها لا تغيب عنها.

كانت تكتب بانتظام مقالة أدبية مميزة عن لوحة فنّية تختارها بذكاء، تنشـــرها في إحـــدى كُبْرَيات المجلّات العالمية تحـــت عنوان: (ما لَمْ نَرَه) تختار فيها لوحات مشـــهورة يعرفها معظم الناس، وتشرح فيها بمنتهى البراعة ملامح دقيقة مبهرة أو وقائع تاريخية تخصّ الرسّام أو زمنه صاحبَتْ رسم اللّوحة، كـــان هذا يضيف أبعادًا جديدة لما لَمْ نَـــرَه بالفعل في اللّوحة. أمّا لوحاتها هـــي التي رسمتها فلم تكن أبدًا بالمتواضعة، وأجملها ثلاث لوحات لمينا عاريًا، لكنّها فضّلتْ أن تظلّ في ظلّ الهِواية والخَرْبَشـــة المُحِبّة للفَـــنّ، واختارت أن ترسم بالقلم مقالات من أبدع ما أضاء سماء الفنّ.

للمرة الأولى في عمرهـــا الطويل، تتفِق شُهْدَة مع متخصّصة تجميل مشـــهورة فـــي فيينّا، معـــروف عنها رفضهـــا التامّ لاستخـــدام أيّ مستحضـــرات كيميائية وتستعمل بـــدلًا منها ـ عن عِلم وخبرة ـ كلّ ما هو طبيعي. كان على الخبيرة أن تقوم بالاعتناء بشَـــعر شُهْدَة يوميًّا ولمدّة أربعين يومًا متواصلة، حتى نوع طعامها حدّدَتْهُ لها، خصوصًا

ما عليها أن تمتنع عن تناوله لضرره بالشَعر. شُهْدَة هي التي حدّدتْ هذا الوقت بأربعين يومًا، اتَّبَعَتْ فيه كلّ الوصفات الطبيعية ونبذتْ كلّ الممنوعات عن طِيب خاطر كي تجعل شَعرها يتشكّل من رضى قلبها ورُوحها، أصبحتْ تتأمّل شَعرها في كلّ مرآة أو سطح عاكِس بشــكل لم يسبق لها أن فعلته طوال عمرها.

وقفتْ شُهْدَة في صباح يوم الأربعين أمام المرآة بشُــموخ ملكة تملأ عيْنيها بتاجها.

في صباح اليوم الأخير؛ موعدها المقرّر، تجلس باعتدادها المعروف عنهــا، بينما كانت الكوافيرة تَجِزُّ لها شَعرهــا بالكامل كما اتّفقا منذ البداية، لم يستغرق الأمر أكثــر من أربعين دقيقة، تخرج من عندها بإيشارب تغطّي به عُرْيَ رأسها.

خلال بضعة أيام تجهّز الكوافيرة "الباروكة" المطلوبة بالبهاء نفسه الذي كــان قبل الجَزّ؛ بهاء عطاء الــرُوح والقلب. تعود للبيت تضع الباروكة الهدية في صندوق أبيض بشــريط أسود؛ هي قُربان العمر الجميل!

مساء الجمعة يكون الموعد الذي وعدتْ فيه مينا ونادين بلقاء خاصّ يجمع ثلاثتهم. تستغربْ نادين حين تفتح الباب وقد تعوّدتْ على رؤية هــذا التاج الباهر الــذي يزيّن راس شُهْدَة. المفاجــأة تُخرِسها حتى عــن التحية أو مبادلة البسمة ببسمة مثلهــا. الماثلة أمامها في تلك

اللّحظة- في إيشارب أزرق منحسِر يظهر غُزّي رأسها وقرط لؤلؤي في أذنيها- هي فعلًا شهْدَة. تحمل صندوقًا أبيض مربوطًا بأناقة بشريط أسود عريض.

موسيقى جاز جاذبة تنبعث من الداخل برفق. تقول شُهْدَة بعد أن تُقَبِّل نادين وتدخل: "أعشق هذه الموسيقى!" تتمايل مع الموسيقى وتَلِفّ حول نفسها برشاقة الصِّبا التي لم تفارقها، وأيام الباليه الهنية، ولا تُنْزِلُ الصندوق من يديها. تَمُدّ يدًا لتقرأ اسم الأسطوانة من على الغلاف بصوت مسموع. (The Dukes meet the Earl: Blues-rock favorites) ثم تكتب الاسم في مذكّرة هاتفها.

تقول نادين إنّ مينا اتّصل يعتذر لتأخّره لنصف ساعة. تبتسم شُهْدَة وتضع الصندوق بينهما على المائدة المنخفضة وتخلع إيشاربها الأزرق، فيظهر رأسها عاريًا لامعًا بلا شَعر. تسألها نادين في جزع:

"حبيبتي! هل أنتِ بخير؟"

"نعم بكلّ خير، لا تقلقي يا حبيبتي!" تُكمِل وهي تفتح الصندوق الأبيض: "هديّتي لكِ، شيء من قلبي ورُوحي!"

تصمتُ نادين عاجزة عن فهم ما يحدث، بينما ترفع شُهْدَة الهدية بين يديها كَمَنْ يقدّم قُربانًا.

تسيطر رُوح موسيقى الجاز على الغرفة بضوئها الخافت المريح. تفتح نادين الهدية بأصابعَ هادئة وعينَيْن متعجّلتين، تُمسِك الهدية بين يديها، ترفعها بينهما عاليًا لينسدل الشَّعر الغزير مُهتزًّا مُكتنِزًا بالحياة، تلتقي أربع عيون لامعة دامعة.

ترفع شُهْدَة الباروكة وتُثَبِّتها لنادين على رأسها، تَشُدُّها من يدها نحو المرآة. يضحكان بصوت عـــالٍ مبتهج أثناء رنّة جرس بوّابة البيت. بعد أقلّ من نصف دقيقة سيكون مينا أمام باب الشقة المُوارَب.

شُهْــدَة متكئة على الكنبة تتأمّل نادين في مَحبّة غامرة، وفي اللحظة التي تُمَسِّد نادين بكفّيها الشَّــعر الناعِس علــى كتفيها، تُحِسّ شُهْدَة بالسعادة في راحتيها هي. ترفع عن رأسها الإيشــارب فيظهر رأسها عاريًا، تشعر أنّ جسمها قد مرّ بتاريخ العالم في لحظة.

الموسيقــى ما زالت تصدح بنغمات تعلو تدريجيًا دون أن يقترب أحد مـــن الجهاز. نادين واقفة تبتسم فـــي خفوت بتاج فاتن مَهيب. ضوء المصباح ينزل عليها ليَشُــقَّها إلى نِصفين: نِصف مُعْتِم ونِصف مُنير. من العيْن التي في الجانب المُعتم تلمع دمعة طويلة من نور يمتدّ حتى نهاية الخدّ!

ما إنْ يدخل مينا مبادرًا بالاعتذار عن التأخير حتى يشـــعر كمن هُوِيَ به من مائة طابق في ثانية وَرُفِعَ لألف طابق بعدها بثانية.

تحت الضوء الخافِت شُهْــدَة واقفة إلى جوار نادين. مِن وجه واحدة منهما تُطِلُّ ابتسامة مُفعَمة بطيبة أصيلة وعذوبة نبيلة، وتلتَمِع عيْنا الأخرى بألَقٍ ناعِمٍ عَصيٍّ على الوَصف.

(فيينـــــا، تمّت في ديسمبر 2017)

المؤلف في سطور

طارق الطيب

- من مواليد القاهرة في الثاني من يناير 1959. انتقل في عام 1984 إلى ڤيينّا حيث أنهى دراسته في فلسفة الاقتصاد وهو يعيش الآن فيها ويعمل إلى جانب الكتابة الأدبية بالتدريس في ثلاث جامعات بها (جامعة ڤيينّا، جامعة جراتس، جامعة كريمس).
- نشر حتى الآن ثلاث روايات ومجموعتين قصصيتين وخمس مجموعات شعرية ومسرحية واحدة وكتابًا في السيرة الذاتية وكتابًا في المقالة.
- نُشِرَت له كتب مترجمة في اللغات التالية على ترتيب صدورها: الألمانية، الفرنسية، المقدونية، الصربية، الإنجليزية، الإسبانية، الرومانية، ثم الإيطالية. كما له ترجمات في لغات أخرى لنصوص أدبية في العديد من الأنطولوجيات والمجلات والدوريات العالمية كالأوكرانية والكرواتية والبوسنية والروسية والبرتغالية والمالطية والسويدية والصينية وغيرها.

- شارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية.
- حصل على العديد من المنح السنوية الكبرى والجوائز منها منحة إلياس كانِتـي (Elias Canetti) الكبرى في ڤيينّا في العام 2005 والجائزة الكبرى للشعر في رومانيا في العام 2007.
- عُيِّنَ كسفير للنمسا لعام الحوار الثقافي الأوروبي (EJID) في العام 2008.
- حصل على وسام الجمهورية النمساوية تقديرًا لأعماله في مجال الأدب والتواصل الأدبي داخليًا وعالميًا، في العام 2008.
- حاصل على زمالة "برنامج الكتابة العالمي" وبرنامج "بين السطور" بجامعة أيوا في أميركا، في العام 2008.
- صدر له مؤخَّرًا: (نهارات ڤيينّا) القاهرة، دار العين 2016، و(الرحلة 797 المتجهة إلى ڤيينّا) القاهرة، دار العين 2014، و(محطّات من السيرة الذاتية) القاهرة، دار العين 2012.

وأطوفُ عاريًا

"رغم كلّ هذه الشهور الطويلة، لم أكن قد تعوّدتُ بعدُ أن أقف عاريًا أمام الطالبات والطلّاب في قاعة الرسم، دون وازعٍ صامت يخربشني بهدوء في مكمن ما بداخلي. ما زلتُ أحاول إقناع نفسي بأنّ العيون عليّ لا تتعدّى الفنّ. أدركُ أنه مجرّد وَهْم أحَصّن به ذاتي، أو ربما نسجتُ هذا التصوّر في ذهني حتى أتفادى أيّ تجاوزات. صرتُ أسأل نفسي: لماذا أصبحتُ عاريًا في أوروبا باسم الفنّ؟ لماذا كنتُ أقبَلُ هذا لشَهْدَة بكل بساطة؟ لماذا أتناقض بين ما أقبَله لنفسي وما أقبله للآخرين؟ ولماذا لم أرفض من البداية لو كان الأمر يسبّب لي ألمًا نفسيًا أو حتى ذهنيًا؟ فلم أكن مُجبرًا، ولم أستنكر علانية طلبَ ڤايسْمانّ وماجدالينا حين عَرَضا عليّ الأمر."

في رواية (وأطوفُ عاريًا) يتناول طارق الطيب موضوعًا جديدًا على الرواية العربية أو على الأقل من حيث طريقة المعالجة وزاوية التناول، فالرواية تحكي عن فنان عربي يفشل في إقناع أساتذة أكاديمية الفنون بفيينا بقبوله لدراسة الفن؛ فيضطر لأن يقبل بالوقوف كموديل أمام دارسات ودارسي الفن. يقف عاريًا بعد أن أسقَطتْ الظروف عنه عنوة ورقة التوت التي تستر جسمه؛ فيقرر أن يُسقِط كل أوراق التوت عن كل ما ومَنْ حوله.

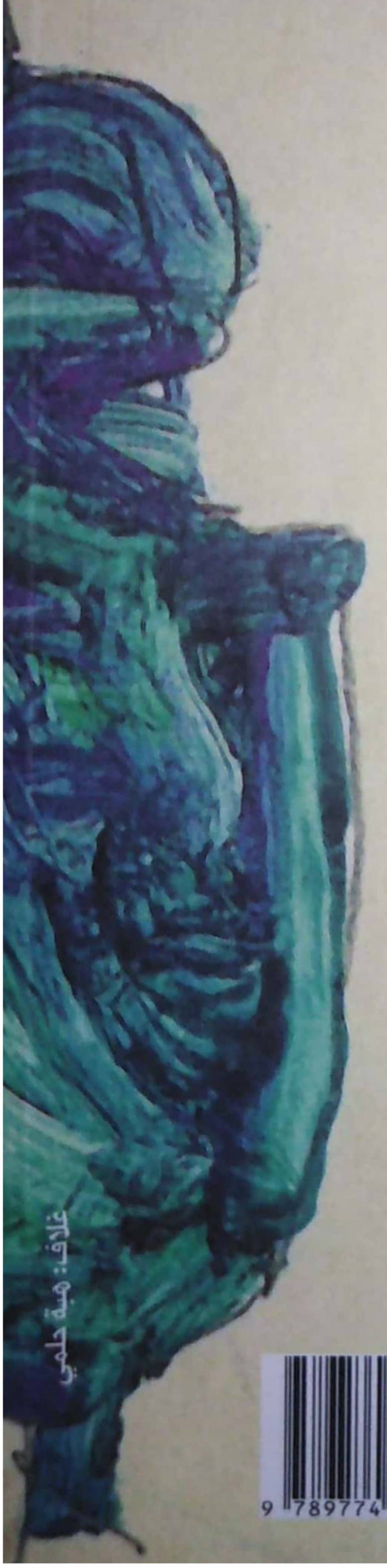

غلاف: هبة حلمي

9 789774 904875

دار العين للنشر
Elain Publishing House